العبودية فى أفريقيا

عايدة العزب موسى

مكتبة الشروق الدولية

العبودية فى إفريقيا
والتاريخ المفقود

الطبعـــة الأولى
١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٤م



شـارع الفتح ـ أبراج عثمان أمـام المريلاند ـ روكسـي ـ القاهرة
تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ ـ ٢٥٦٥٩٣٩ ـ تليفون ٤٥٣٦٢٤٨
Email: shoroukintl @ hotmail. com
shoroukintl @ yahoo.com

العبودية فى إفريقيا
والتاريخ المفقود

عايدة العزب موسى



مقـدمة

أتصور أن أسوأ ما فعله الاستعمار بإفريقيا هو طمسه لتاريخها وحضاراتها القديمة؛ ليصمها بالتخلف والدونية، وبشكل منظم ومدروس أجمع المستعمرون على اختلاف جنسياتهم على اتهام إفريقيا بأنها قارة بلا حضارة، مجرد جماعات من الهمج المتوحشين يأكلون لحوم البشر (لست أدرى أى بشر كانوا يأكلون, هل يأكلون بعضهم، أم يأكلون البيض الغزاة؟!).

والحقيقة أن إفريقيا عندما وطأها المستعمرون الأوائل لم تكن قارة مظلمة متخلفة كما توصف، ولم يكن أهلها بدائيين متوحشين يهيمون فى البرارى والغابات؛ بل كانت قارة ثرية بحضارات عظيمة وزعامات رائعة، ولم يكن أهلها غشمًا متخلفين جاهلين يهللون بالمستعمر مقابل حفنة خرز كما يشاع؛ إنما خضعوا ورضخوا مجبرين تحت ظروف قاسية لمعاهدات هازلة تشين المستعمر قبل أن تشينهم، مثل معاهدات شرق إفريقيا التى تنص على أن «**تبقى هذه المعاهدة سارية إلى أن يبيد التراب ويشيب الغراب**».

لخص لوبنقولا ملك قبائل الماتابيل (زيمبابوى) لأحد المبشرين كيف استعمرت مملكته عام ١٨٨٩م قال: «**أرأيت كيف تقبض الحرباء على الذبابة، إنها تزحف خلفها حتى إذا اقتربت منها كفت عن الزحف والتنفس فترة، ثم تستأنف زحفها بطيئا تقدم رجلاً أولاً وأخرى بعد حين، وعندما تكاد تلامس الذبابة تنقض عليها بلسانها وتختفى الذبابة.. إن انجلترا هى الحرباء وأنا الذبابة**».

هذا التلخيص والفهم المذهل من ملك الماتابيل للاستعمار ينمُّ عن وعى وإدراك كامل بالأخطار، ويدحض التقارير والأقوال الغافلة عن شعوب إفريقيا ونظمهم القبلية وتقاليدهم وفنونهم وعقائدهم، وهى الأكاذيب التى روجت؛ لكى يشعروا الإفريقى بالخجل من ماضيه وواقعه.

ادّعى المستعمرون أنهم جاءوا إفريقيا ليوقفوا الحروب القبلية والاقتتال الهمجى فيها، فى حين أن تاريخ المستعمرين أنفسهم تاريخ اقتتال وحروب ودمار؛ فالحضارة الغربية حضارة جائرة تعد فيها الحروب وسيلة تقدمهم من إخضاع ونهب للآخرين. وهؤلاء «المتحضرون» عندما غزوا إفريقيا لم يوقفوا الحروب، بل زادوها اشتعالاً، وبعدما كان الإفريقى يحارب أخاه بالرمح والسهم أعطوه البارود والبندقية ليبيد بعضهم بعضًا، قالوا للإفريقيين: إنهم يريدون أن يعلموهم العبادة، وطلبوا منهم أن يغلقوا أعينهم، وحينما فتحوها وجدوا الإنجيل فى أيديهم، ووجدوا أن أراضيهم قد اغتصبت، وأنهم أصبحوا جميعًا عبيدًا، وأن قارتهم باتت قارة مستعبدة.

فى الستينيات من القرن الماضى حصلت أغلب الدول الإفريقية على استقلالها، وقيل وقتها إن القرن العشرين هو قرن إفريقيا؛ فقد انطلق المارد الإفريقى من قمقمه بعد كفاح مرير لحركات تحرير اشتعلت فى طول القارة وعرضها بعد الحرب العالمية الثانية، لم يتم الأمر بسهولة أو بدون ثمن وإنما بذلت من أجله أرواح وتضحيات يعجز الكاتب عن وصفها أو حصرها، وبدلاً من أن تجنى إفريقيا ثمار الاستقلال بدأت تواجه ضغوطًا وتدخلات؛ فتحول التحرر الوطنى إلى استقلال شكلى؛ عَلَم يُرفع ونشيد يُغنى، ومن رفض الانصياع من الزعماء أمثال «باتريس لومومبا» و«كوامى نكروما» أجهزوا عليه ليكون عبرةً للآخرين، **الأول** اختطف وقتل فى يناير عام ١٩٦١م ووضع جسده فى حامض ليذوب ويمحى تمامًا من الوجود، و **الثانى** أطاحوا به بانقلاب ثم سمّوه ومات لاجئًا خارج بلاده فى أبريل عام ١٩٧٢ م.

وصاحب هذا الغزو الاستعمارى الجديد دعاية خبيثة صدقها كثيرون، وهى أن الأفارقة لا يستطيعون أن يعيشوا أحرارًا أو يسيّروا حياتهم بأنفسهم، وأن حالة العبودية هى حالة إفريقية وجدت قبل مجىء الغازى الأجنبى، وأن اقتناص العبيد عبر خمسة قرون وشحنهم فى الأغلال إلى أوروبا والأمريكات[1] لم يكن استرقاقًا، وإنما كان نقلة حضارية انتشلتهم من حالة التخلف والتدنى، يجب على

---

(١) أقصد بالأمريكات، أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية، وأهمية الإشارة إلى أمريكا الوسطى أنها من أكثر المناطق التى حل فيها الزنوج الإفريقيون فى بداية تهجيرهم القصرى.

أحفادهم أن يعوها ويمتنوا لها، حاولوا بذلك أن يمحوا من ذاكرة الإنسانية سرقة الشباب الإفريقي والقذف بهم خارج القارة وقسوة الرحلة وهم مربطون بالسلاسل في البواخر الأوروبية وموت العديد منهم من سوء التهوية في السفن أو الطعام الرديء أو من التعذيب أو بالانتحار، فكان منهم من فضّل إلقاء نفسه في المحيط بدلاً من مواصلة العذاب، ثم نزولهم إلى الأراضي الجديدة ومعاملاتهم كالحيوانات، فهم أشياء منحطة متخلفة من حق السيد الأبيض أن يفعل بهم ما يشاء.

هذه الصورة لم ينجح المستعمرون البيض في محوها فقد سُجلت ودُونت في كتابات تاريخية وأعمال فنية وأدبية كثيرة، ولكن الشيء الذي نجحوا في إخفائه هو ما فعله المستعمرون الأوائل بأهالي البلاد ليخضعوهم، والمقاومة الباسلة التي أبداها الأهالي لصد الغزو عن أراضيهم، وهو النضال الذي خُبئ تحت بساط التاريخ وظل مجهولاً وكلما مر الزمن بعد عن الذاكرة وأصبح نسيًا منسيًا.

والحقيقة أن إفريقيا قبل أن يطأها المستعمر بقرون عديدة قامت فيها ممالك عظيمة وروابط حضارية ومسالك تصل أطرافها بالعالم الخارجي، وعلاقات تجارية وصلت إلى الصين، لم يشهد المستعمرون بشيء من هذا ولزموا الصمت والنكران، وأصرّ المستعمرون المحدثون على ازدرائهم ونظرتهم الدونية للإفريقيين. يصف رئيس الوزراء البريطاني السياسي الشهير «ونستون تشرشل» في كتابه اللامع «حرب النهر»، يصف الأفارقة بأنهم **«أقوياء، عقولهم بسيطة، شرسون، يعيشون عيشة إنسان ما قبل التاريخ على الصيد والقتال، يتزوجون ويموتون، أقصى طموح لديهم هو إشباع رغباتهم الجسدية، يعيشون أجواء تملؤها الأشباح والإيمان بقوة السحر وعبادات الأسلاف، يحملون فضائل البربرية، شجعان، جهلاء وجهلهم مصدر براءتهم، تاريخهم جميعًا هو خليط من الشقاء وأسطورة من البؤس»**، وهذه هي نظرة ازدراء الأبيض للإفريقي.

والسؤال: كيف أمكن للإنسان الإفريقي والحضارة الإفريقية أن تقاوم كل هذه الاعتداءات والضغوط؟ كيف استطاع الإفريقي الأعزل أن يقاوم ما فعله المستعمرون الأوائل والرحالة والمبشرون والتجار الأجانب لتحطيم حضارته وممالكه

القـديمـة وطمس مـعـالمهـا؟ وكـيف أمكن أن يتـحـمل ويبـقى مع إذلاله فى كل المجتمعات التى حلّ بها؟ لعل الإجابة على هذه التساؤلات وحل لغز تحمل الجنس الأسود وشرح تصميم المجتمعات والثقافة السوداء على البقاء، تكمن فى النظم الروحية والعقائد والتقاليد التى كانت مصدر السخرية منه.

رفضت هذا التاريخ المكذوب عن إفريقيا وعكفت أبحث عن الحقيقة، وتكشفت لى القراءات كم كان لهذه القارة البائسة من ماض مشرف وتاريخ عظيم؛ فمثلا قبل أن تطأ قدم «كريستوفر كولمبس» أرض أمريكا كان الإفريقيون قد وصلوا إليها قبله بعدة قرون، وعاشوا هناك بين أهلها وتاجروا معهم وأثروا فى الحضارة الأمريكية على نحـو مـا. ويرجع الوجـود الإفـريقى فى الأمـريكات إلى مـا قـبل التـاريخ الأمـريكى؛ فـالحـضـارة المصرية وصلت إلى أمـريكا حـوالى ١٢٠٠ قـبل الميلاد، ووصل الماندنجو من غـرب إفـريقـيا إلى هناك حـوالى ١٣٠٠م قبل أن تظهـر رحلة كولمبس فى الأفق.

كيف أمكن اختفاء هذه الحقائق وكيف أمكن إقصاء هذه القارة، وبعدما كانت سيدة عصرها تحولت إلى قارة مستعبدة وأصبحت شعوبها عبيداً، سواء كانوا على أرضـهم أو خـارجـهـا. من هنا تبلورت فكرة الكتـابة عن العـبـودية فى إفـريقـيـا. والعبودية التى أقصدها ليست حالة العبد الإفريقى فقط، وإنما حالة عبودية شملت قارة بأكملها فى الماضى، كانت عبودية بشر وأرض واليوم عبودية ديون وقروض، وكلا الأمرين صورة من حالات العبودية التى كُتب على إفريقيا أن تعيشها قديمًا وحديثًا. وما أردت أن أسجله فى هذا الكتاب أن هذه العبودية لم تتم بسهولة، وإنما لقيت مقاومة واستبسالاً من الإفريقيين الذين دافعوا دفاعًا مستميتًا عن أرضـهم وثرواتهم وواجـهـوا وتعرضـوا لصور بشعـة من الإبادة الجـمـاعـيـة لإخـضـاعـهـم. والتذكير بالممالك العظيمة التى انهارت بعد مقاومة عنيفة وهو تاريخ أطبق عليه النسيان.

وكـان مما أثارنى وحـفـزنى على مـواصلة البـحث قـراءتى للكتـاب الأزرق، وهو الكتاب الذى أراد المستعمرون ألا نقرأه فأبادوه وأعدموا نُسخَهَ رغم أنهم هم الذين كتبوه ونشروه، هذا الكتاب كتبه المستعمرون البريطانيون؛ ليكشفوا فيه ما فعله الاستعمار الألمانى بالإفريقيين ليخضعوهم، ونشروه عام ١٩١٨م بهدف سياسى بعد

هزيمة الألمان فى الحرب العالمية الأولى ؛ليحلوا لأنفسهم الاستحواذ على المستعمرات الألمانية فى إفريقيا ، وبعد أن أدى الكتاب هدفه وانتزعت من ألمانيا مستعمراتها ، اكتشفوا أن الكتاب لا يدين الاستعمار الألمانى وحده ، بل يدين كل المستعمرين البيض فأمروا بإعدامه .

وإذا كان المستعمر أراد ألا نقرأ كتابه فقد أردت من كتابى أن نقرأ ماضينا وتراثنا ؛ إذ إن شعبًا بدون إحساس بقيمه وماضيه أشبه بسفينة بلا قبطان تتقاذفها الأمواج فلا ترسو إلى بر آمن. وأن ندرك أن العالم الغربى الذى يتشدق بأصل الحضارة والتقدم قد نهل من ثرواتنا وعرقنا وفَنّنَا وحضاراتنا ، وأن ما لديه الآن من معرفة هو نتاج امتزاج حضارات وفنون سابقة على حضاراته ، فكلنا بناءون مقرضون ومقترضون ، ولسنا متخلفين كما يوصموننا ولن نكون عبيد الحضارة الغربية ولن تفقد بوصلتنا الهدف بإذن الله .

* * *

الكتاب يحوى أربعة فصول : **الأول** عن المستعمرين الأوائل ، صدرته بموضوع «رسالة ترويض العبيد» ؛ لكى يعرف القارئ منذ البداية حجم الظلم والقسوة التى عامل بها المستعمرون عبيدهم ، وكيف كانوا يروضونهم ليسحقوا آدميتهم ويحولوهم إلى آلات بشرية بلا مشاعر بلا لغة بلا حقوق بلا أمل . ثم تلاه موضوعات عن الاستعمار البلچيكى ، وكيف حكم ليوبولد الثانى ملك بلچيكا الكونغو ٢٣ سنة وهو الذى لم تطأ قدمه قط أرض الكونغو ، وطوال هذه السنوات كان الشنق على الأشجار وقطع الأيدى والمذابح التى قتل فيها ما يربو على عشرة ملايين إفريقى هم أدواته لإخضاعهم . ثم البرتغال أول من مارست تجارة الرقيق بعد استعبادهم فى القرن الخامس عشر ، وكيف كانت تتم عملية جمع وترحيل العبيد عبر الأطلنطى . ثم الهولنديون وامتلاكهم جزيرة جورى التى كان يتجمع فيها الرقيق ، والتى ظلت تحت سيطرتهم حتى باعوها للإنجليز عام ١٨٧٢م . وأنهيت الفصل بالاستعمار الألمانى وأفردت مساحة للكتاب الأزرق الذى يصف عملية الإبادة المنظمة الأولى فى القرن العشرين التى ارتكبتها الحكومة الألمانية فى ناميبيا والكوارث التى ارتكبتها والقتل الجماعى لشعب الهيريرو أو مذبحة الهيريرو التى راح ضحيتها ٦٥ ألف شخص من تعدادهم الذى كان يبلغ حينذاك ٨٠ ألفًا ، أى أن ما بقى منهم على قيد الحياة ١٥ ألف شخص فقط .

الفصل الثانى: نقلنى هذا الماضى المرير إلى الحاضر المثار وهو قضية تعويض القارة الإفريقية عما لحقها من تدمير أثناء فترة الاستعمار. ويمكن القول إن الفصل الأول هو مقدمة للفصل الثانى الذى يبحث فكرة تعويض الأفارقة عن حقبة العبودية ومَن يدفع فاتورة السداد. وإذا كان الغرب الآن يوافق على تعويض اليهود عما لاقوه فى معسكرات الاعتقال أيام النازية وهى فترة لا تتعدى عشر سنوات، فكم يدفع للأفارقة الذين شُحنوا قسراً وكرهًا عبر المحيط والذين قتلوا أو أصيبوا فى غمار عمليات جمع الرقيق وما نالوه من التعذيب والإبادة فى أوروبا والأمريكات على مدى خمسمائة سنة، وكم يُدفع للقارة الإفريقية التى فقدت شريحة كبيرة من قوتها وثرواتها البشرية، وأحدثت حملات اقتناص أبنائها دماراً واسع النطاق وزادت من عدد الحروب والتمزق والاضطراب فى مجتمعاتها وأفقدت الحياة أمنها. والموضوع الثانى فى هذا الفصل خصصته للأساس القانونى لمطلب التعويضات وهو بحث قيم قدمه المحامى البريطانى الشهير اللورد أنتونى جيفورد فى المؤتمر الأول لمطلب تعويض العبيد الإفريقيين الذى عُقد فى العاصمة أبوجا بنيچيريا عام ١٩٩٣م، وفيه بيَّن الأساس القانونى لهذا المطلب وهو أن استرقاق الإفريقيين كانت جريمة ضد الإنسانية وأن نتائج هذه الجريمة بقيت شاملة فى القارة وخلفاء الرقيق الإفريقيين وحفدتهم، ومن ثَم فإن قضية التعويض تتأكد بغير أى شك، وأن القانون الدولى يعترف بأن الذين يرتكبون جرائم ضد الإنسانية يجب أن يؤدوا التعويض عن هذا الأمر ويلزمهم تعويض هذه الأضرار. وختمته بما دار فى مؤتمر ديربان الذى عُقد فى سبتمبر ٢٠٠١م فى جنوب إفريقيا لمناهضة العنصرية والتمييز العنصرى وبحث الوسائل العملية للحصول على التعويضات عن العبودية والاستعمار.

والفصل الثالث: خصصته لشخصيات كبيرة وزعامات عظيمة - رجالاً ونساء - الذين حاربوا بشجاعة وقاوموا بضراوة حتى سقطوا مثل «ياه أشنتيوا» إحدى ملكات الأشانتى فى ساحل الذهب غانا حاليًا؛ فقد أعلنت هذه المرأة الفولاذية الحرب ضد البريطانيين وقادت جيش الأشانتى، ورغم عدم معرفتها بفنون القتال فقد حاصرت القلعة التى كان البيض يحتمون بها، وأثبت هذا التكتيك فاعليته، بحيث إن البريطانيين تركوا الحامية وانسحبوا منها بعد أن تكبدوا خسائر جمة؛ بسبب المجاعة والأمراض. و«شاكا» ملك الزولو الزعيم الوطنى الذى حارب البريطانيين بشجاعة نادرة حتى أصبحت سيرته أسطورة تتداولها الأجيال. والبائسة «سارا بارتمان» التى

ترمز مأساتها لما حدث لإفريقيا فما عانته هذه الفتاة المسكينة هو صورة مجسمة للمعاناة الشخصية التى كابدها الملايين من أبناء جلدتها السود. والملك «خاما الثالث» ملك محمية بتسوانا الذى أجزل العطاء لأطفال أوروبا الجوعى عندما كانت أوروبا تتسول بعد الحرب العالمية الأولى.

الفصل الرابع: جمعتُ فيه وقائع وأحداثًا عن الماندنجو مؤسسى مملكة مالى القديمة أقوى وأغنى الممالك التى ظهرت فى غرب إفريقيا، الذين وصلوا إلى أمريكا واكتشفوها قبل «كريستوفر كولمبس». و«الفلاشا» اليهود الإثيوبيون الذين سرقتهم إسرائيل سرًا، وألقت بهم فى إسرائيل؛ ليكونوا دروعًا بشرية فى مناطق التماس مع العرب. و«چورچ واشنطن» الرئيس الأمريكى زعيم حركة استقلال أمريكا وحركة تحرير شعبها الأبيض من الاستعمار البريطانى، وكيف كان يعامل عبيده الإفريقيين، ومنظمة «البرودر بوند» أخطر المنظمات السرية البيضاء فى جنوب إفريقيا. وقصة «الجذور» أشهر الأعمال الأدبية والجدل الذى يثور حولها. ثم «مَنْ هُمْ عبيد القرن الواحد والعشرين؟».

وختمت الكتاب باكتشاف حضارة «ثولا ميلا» فى الجنوب الإفريقى التى جاءت من وراء التاريخ لتخاطب الحاضر، وتصحح كثيرًا من المفاهيم الخاطئة عن ماضى إفريقيا المجهول، وتدحض الفكرة العنصرية بأن إفريقيا قبل استعمارها كانت قبائل بدائية متخلفة بلا حضارة.

هذه لمحة سريعة لموضوعات الكتاب عرضتها بإيجاز شديد حتى ترشد القارئ عن علاقة الموضوعات بعضها ببعض وكيف صنفت. وأرجو أن أكون بهذا العمل قد كشفت قدرًا من خبايا تاريخ إفريقيا وأسراره.

وفى النهاية أوجه الشكر لمجلة «نيو أفريكان ـ New African» فقد استعنت كثيرًا بمادتها وموضوعاتها، وأعترف صادقة أنها هى التى أوحت لى بفكرة الكتابة عن العبودية فى إفريقيا، فطوال سنوات عديدة نشرت المجلة موضوعات قيمة كثيرة، من تجميعها وفرزها وتنقيحها والبحث حولها تبلور هذا الكتاب؛ فلها كل الشكر والامتنان.

عايدة العزب موسى

الفصل الأول

المستعمرون الأوائل

رسالة ترويض العبيد

هل يدرى القارئ أن ما نسميه بالاستغلال والاستبداد والقسوة والتعذيب ليس مجرد أفعال عشوائية تحركها الغلظة والشراسة أو عواطف الطمع والكراهية، إنها ليست كذلك فقط، إنها أيضًا خبرات وتجارب وتراكم لدروس مستفادة بحيث تصير فنونًا ومعارف يتناقلها الزبانية ويتبادلون الخبرات فيها لتكون أشد إيلامًا، ولكن التعذيب أدوم تأثيرًا وأفعل فى النفوس، وهذا يحتاج إلى دُرْبة ومران وعقل مفكر وخبرات تتداول وتتراكم.

ولعل أكثر الأمثلة وضوحًا على ذلك المحاضرة التى ألقاها «وليام لنش» مالك العبيد فى الكاريبى على ملاك العبيد فى «مستعمرة» فرچينيا الذين أتوا إليه من كل أنحائها؛ ليستمعوا إلى خبرته فى ترويض العبيد.

وكان أحد أصدقائه من ملاك العبيد فى فرچينيا بالولايات المتحدة دعاه عام ١٧١٢م؛ ليتحدث عن تجربته وأسلوبه فى السيطرة على العبيد فى مستعمرته، وما ابتدعه من أساليب وحشية وخبيثة وأفعال رهيبة لإخضاعهم.

وإذا كان ماضى البشرية يشينه ويخجله صورة العبد الإفريقى الذى اختطف وربط بالسلاسل فى رحلة عذاب طويلة إلى أرض القارات الأمريكية ليخدم السيد الأبيض ويفعل به ما يشاء هذا السيد، فإن ما يفعله الأمريكى الأبيض الآن فى بداية الألفية الثالثة بأسرى حرب أفغانستان لا يختلف كثيرًا عما فعله جدوده من قبل، فبعد أن أفرغت الولايات المتحدة شحنتها من الصواريخ والقنابل والمتفجرات فوق أفغانستان وناسها، ساقت مئات الأسرى منهم مكبلين بالأغلال داخل معتقلات، وفى حملة انتقامية لا مثيل لها، نظر العالم مشدوها، وهو يشاهد أسرابًا من

الأسرى لم تُوَجّه لهم تهمٌ ولم تصدر فى حقهم أحكام قانونية يساقون كالبهائم مصفدين فى الأغلال معصوبة عيونهم مخدرين، وينقلون كالوحوش المفترسة فى أقفاص مكشوفة من الحديد، ويُلقى بهم فى قاعدة جوانتانامو العسكرية الأمريكية فى كوبا.

وفى صحوة ضمير خصصت صحيفة «دى ميل أون صانداى» البريطانية الأسبوعية غلافها بصورة تظهر الوضع المهين للمعتقلين فى القاعدة والقيود التى يرسفون بها والكمامات التى تعطل حواسهم، وكتبت فى عنوانها الرئيسى: « **إنهم لا يسمعون شيئًا ولا يرون شيئًا ولا يشعرون بشى، أيديهم وأرجلهم ترسف بالقيود، إنهم يركعون مذعورين. أبهذه الطريقة يدافع بوش وبلير عن حضارتنا!!».**

ما أشبه اليوم بالأمس، فما يفعله الأمريكى «المتحضر» بأسرى أفغانستان فى القرن الواحد والعشرين، هو نفس ما فعله الأمريكى الأبيض بالإفريقى الأسير المختطف فى القرن الثامن عشر. لا اختلاف بينهما سوى أن الأمريكى اليوم يصف نفسه بالمتحضر وأمريكى الأمس كان يجهر بأنه مستعمر.

وهكذا تبقى صحيحة إلى اليوم محاضرة «وليام لنش» أو رسالته إلى أبناء جلدته، وأن كلماته هذه ونصائحه يتعين أن تنشر وتطرح على الملأ لعلها تحدث غضبًا لدى الرأى العام العالمى.

وقف «وليام لنش» بين أبناء جلدته يقول: أيها السادة، إننى أحييكم هنا على شواطئ نهر جيمس فى ١٧١٢م. أولاً أشكركم أيها السادة فى مستعمرة فرچينيا لدعوتكم لى هنا.

إننى هنا لأساعدكم على حل بعض مشاكلكم مع عبيدكم. إن دعوتكم وصلتنى فى مزرعتى المتواضعة فى جزر الهند الغربية، حيث جربت عددًا من الوسائل الحديثة والوسائل القديمة للسيطرة على العبيد، وإن روما القديمة يمكن أن تحسدنا إذا طُبق برنامجى.

عندما كان قاربنا يبحر جنوبًا فى نهر جيمس، رأيت ما يكفى لمعرفة أن مشكلتكم ليست فريدة، وفى حين كانت روما القديمة تستخدم الخشب كصلبان لوضع

الأجسام البشرية على طول الطرق الرئيسية فأنتم هنا تستخدمون الشجر والحبال لهذا الأمر، وقد لمحت عبداً ميتاً معلقاً على شجرة على بعد ميلين، وأنتم بهذه الطريقة لا تفتقدون فقط هذه الثروة التى تعلقونها، ولكنكم أيضاً تعانون من الانتفاضات ومن هروب العبيد بعيداً، ومن أن محاصيلكم تبقى فى الحقول بغير جنى أكثر مما يستوجب الحصول على الربح الأكبر، كما أنكم تعانون من حوادث الحريق التى تحدث من قتل حيواناتكم.

أيها السادة، إنكم تعرفون ما هى مشاكلكم ولست فى حاجة إلى شرحها لكم ولست هنا ألقى الضوء عليها، إنما أتيت لأقدم لكم وسيلة لحل هذه المشاكل. فى حقيبتى هذه وسيلة مجربة يمكنكم بها السيطرة على عبيدكم السود، وإنى أضمن لكل واحد منكم إذا استخدمها بطريقة صائبة فستمكنه من السيطرة على العبيد لمدة لا تقل عن ٣٠٠ سنة، وطريقتى بسيطة وأى واحد من أسركم وكل من يشاهدها يمكنه أن يستعملها.

إننى أبحث عن عدد من الاختلافات بين العبيد وآخذ هذه الخلافات وأعمل على تضخيمها، أستخدم وأستعمل الخوف وعدم الثقة والحسد لأغراض السيطرة، وهذه الوسائل نجحت فى مزرعتى المتواضعة فى جزر الهند وستعمل أيضاً فى كل الجنوب.

أيها السيد.. خذ هذه القائمة الصغيرة البسيطة من الاختلافات وفكّر فيها، فى قمة قائمتى ستجد اختلاف السن واللون وهناك أيضاً الذكاء والحجم والجنس ومساحة المزارع وحالة المزرعة ووضع الملاك، وحيثما يكون العبيد يحيون فى الوادى أو على التل فى الشرق أو الغرب فى الشمال أو الجنوب أو يكون شعرهم خشناً أو ناعماً أو يكونون طوالاً أو قصاراً.

الآن إن لديك قائمة بالاختلافات وأعطيك طريقة للعمل، ولكن قبل ذلك أؤكد لك أن زرع الشك وفقدان الثقة هو أقوى من الثقة، وأن الحقد أقوى من التملق أو الاحترام أو الإعجاب، وأن العبد الأسود بعد أن يتشرب هذه المشاعر فسيحملها وسيغذيها تغذية ذاتية وسيولدها فى نفسه لمئات من السنين أو من الآلاف منها.

لا تنسَ أن تضع الرجل الأسود العجوز ضد الرجل الأسود الشاب، والرجل الأسود الشاب ضد الرجل العجوز الأسود.

يتعين أن تستخدم العبيد ذوى البشرة الداكنة ضد العبيد ذوى البشرة الأقل سوادًا، وذوى البشرة الأقل سوادًا ضد العبيد ذوى البشرة الداكنة.

يتعين أن تستخدم الرجال ضد النساء والنساء ضد الرجال، ويتعين أيضًا أن تجعل الخدم البيض فاقدى الثقة تمامًا بكل السود، ومن الضرورى أن تجعل عبيدك واثقين بنا ومعتمدين علينا ويجب أن يحبونا ويحترمونا ويثقوا بنا نحن فقط.

أيها السادة، هذه الأساليب هى مفتاحكم للسيطرة فاستخدموها، واجعلوا زوجاتكم وأطفالكم يستخدمونها ولا يتركون أية فرصة تفلت منهم.

إذا استخدمت هذه الوسيلة بكثافة لسنة واحدة فسيبقى العبيد دائمًا فاقدى الثقة، وإليكم التفاصيل:

وخشية من أن أجيالنا فى المستقبل قد لا يتفهمون مبادئ الترويض لكل من الخيل والبشر فإننا نضع أمامهم هذا الفن، وإذا كنا نريد أن ندعم اقتصادنا الأساسى فيجب أن تربط الوحوش بعضها ببعض.

نحن نفهم الخطط قصيرة المدى والنتائج الاقتصادية فى الاضطرابات الاقتصادية الدولية، ولكى نتفادى الاضطراب الاقتصادى يتعين أن يكون لدينا مدى طويل وعميق لاستخدام المهارة والحزم.

ونحن نضع المبادئ الآتية من أجل التخطيط الاقتصادى المعقول والطويل المدى:

١- إن الحصان والزنجى كليهما لا يفيدان الاقتصاد فى الحالة الطبيعية والبدائية.

٢- كليهما يتعين أن يُروض ويُربط بعضهما ببعض للإنتاج المنظم.

٣- ومن أجل المستقبل المنظم فإن الاهتمام يجب أن يُبذل بشكل خاص بالنسبة للنساء والذرية أو الناشئة.

٤- وكليهما يجب أن يدجن لينتج تقسيمًا متنوعًا للعمل.

٥- وكليهما يتعين أن يعلم أن يستجيب إلى لغة جديدة خاصة.

٦- وإن تعليمات نفسية وجسمانية للإحاطة بهما يجب أن توجد.

وبكلمات أخرى يتعين كسر إرادة المقاومة، إن عملية الترويض تصبح الآن هى ذاتها لكل من الحصان والزنجى. والاختلاف هو خلاف قليل فى الدرجة فقط، ولكن كما ذكرنا من قبل هناك فن التخطيط الاقتصادى طويل المدى. كذلك يتعين أن تبقى عينك وأفكارك على الإناث وعلى الناشئة[1] أو الذرية من الخيل والزنوج.

إن برنامجًا مختصرًا لتطوير الناشئة سيلقى الضوء على هذا الأمر، اهتم قليلاً بالجيل الأول الذى انفصل وركِّز على أجيال المستقبل. ومن ثَمَّ إذا تعاملت مع الأم الأنثى فإنها ستروض أبناءها فى السنين الأولى لتطورهم، وعندما ينمو الناشئة فستسلمهم لك؛ لأن ميولها الأنثوية العادية فى حماية النفس ستكون قد فقدتها فى عملية الترويض الأولى التى جرت معها.

وعلى سبيل المثال ففى حالة التعامل مع قطيع من الخيل الوحشية والفرس الأنثى والحصان الصغير، وقارن عملية الترويض مع اثنين من الذكور الزنوج فى حالتهم الطبيعية أو مع الزنجية الحامل مع وليدها.

خذ الحصان وروضه للتعامل المحدود، روض تمامًا الفرس الأنثى حتى تصير مهذبة جدًا يمكن لك أو أى شخص آخر أن يركبها براحة تامة، واستولد الفرس حتى تحصل على الوليد المطلوب، ثم أطلق الفرس بحريتها ودرّبها أن تأكل طعامها من يدك ستجد أنها ستدرب أولادها لكى يأكلوا من يدك أيضًا.

وعندما تروض الزنجى غير المتمدين فاستخدم العملية ذاتها، ولكن بدرجة مختلفة لكى تحصل على نتائج متباينة. استخدم أكثر الزنوج عنادًا واخلع عنه ملابسه أمام الزنوج الذكور الآخرين وأمام النساء وأمام الأطفال واَطْلِه بالقار، وضع عليه الريش، واربط كل ساق له بحصان يتجه عكس الحصان الآخر، ثم اضرب الحصانين لينشطر أمام جميع الزنوج الموجودين. والخطوة الثانية أن تمسك بسوط وتضرب الزنوج الباقين إلى حد الموت أمام النساء والأطفال، لا تقتلهم ولكن اجعلهم يخافون؛ لأنهم يمكن أن يكونوا مفيدين فى استولاد الأطفال بعد ذلك.

---

(١) دائمًا يستخدم «وليام لنس» لفظ off Spring بمعنى نتاج أو مستولد ولا يستخدم قط لفظ ابن أو بنت Daughter - Son.

ثم خذ الأنثى وأجر عدداً من الاختبارات عليها لترى ما إذا كانت إرادتها قد خضعت لرغباتك طواعَية، اختبرها بكل طريقة؛ لأنها هى أكثر العناصر أهمية من أجل الاقتصاديات الجيدة.

إذا وجدت منها أية إشارة لمقاومة الخضوع الكامل لإرادتك فلا تتردد فى استخدام السوط لتضربها إلى أقصى مدى. وخذ حذرك بألا تقتلها؛ لأنك لو فعلت فستفسد الاقتصاديات الجيدة، وعندما يتم الخضوع الكامل فإنها ستدرب ذريتها فى السنين الأولى لهم على الخضوع للعمل عندما يأتى سن العمل.

إن الفهم هو أطيب شيء، ومن ثَمَّ فنحن سنذهب بعيداً لهذه المسألة المتعلقة بما ذكرناه هنا بعملية الترويض للزنجية.

نحن عكسنا العلاقات، وهى فى حالتها الطبيعية غير المتحضرة تكون لديها تبعية قوية للذكر (الرجل) الزنجى غير المتحضر، ويكون لديها اتجاه للمناعة المحدودة بالنسبة لاستقلال أبنائها الذكور وستجعل أبناءها الإناث تابعين مثلها.

ومن الطبيعى بالنسبة لهذا النوع من التوازن فنحن نعكس الطبيعة عندما نتعامل مع الزنجى بضربه بالسوط إلى لحظة الموت وأن يكون ذلك أمامها وبحضورها، وعندما نتركها وحدها بغير حماية وبعد أن تحطم صورة الذكر، فإن المحنة ستنقلها من حالة التبعية السيكولوچية إلى حالة من التجمد والاستقلال والتبلد.

وفى هذه الحالة من الجمود النفسى فإنها ستعكس الأدوار الخاصة بالنسبة للذكور والإناث لنسلها، فهى خوفًا على حياة ابنها الذكر ستدربه نفسيا على أن يكون ضعيفًا من الناحية المعنوية وتابعا ولكن قوى من الناحية الجسمانية.

ولأنها قد صارت مستقلة نفسيّا فإنها ستدرب ابنتها الأنثى لكى تكون مستقلة نفسيّا، ما الذى ستحصل عليه من ذلك؟ ستحصل على امرأة زنجية فى المقدمة وعلى رجل يتوارى بعيدا، وهذه الحالة ممتازة من الناحية الاقتصادية.

وقبل عملية الترويض يجب أن تكون متيقظًا فى كل الأوقات، أما الآن فيمكنك أن تنام مطمئنّا؛ لأنه ينتج من الخوف أن تصير المرأة حارسة لنا، أما الذكر فيصير أداة طيعة مستعداً أن يُربط مع الحصان فى سن البلوغ.

وعندما يبلغ الزنجى سن ١٦ سنة فإنه سيكون مستعداً لحياة طويلة من العمل الفعّال ولإعادة إنتاج قوة العمل الجيدة.

ومن خلال الترويض للزنوج المتوحشين غير المتحضرين، وبجعل الزنجية المتوحشة فى حالة من الاستقلال المتبلد بنفى تصور أن الذكر يقوم بحمايتها وبمحو عملية التبعية من الخضوع للذكر المتوحش الزنجى، نكون قد خلقنا دورة تفيدنا إلى الأبد إلا إذا حدث تحول آخر.

إن خبراءنا يحذروننا من إمكانية حدوث هذا التحول؛ لأنهم يقولون لنا: إن العقل لديه ثورة كبيرة على تصحيح نفسه بعد فترة من الوقت إذا لمس إمكانية لذلك.

وعملاً بهذه النصيحة فإن أحسن طريقة للتعاون مع هذه الظاهرة هى أن نمسح ونلغى التاريخ المعنوى، وأن نخلق لهم عدداً من الظواهر المتوهمة وكل وهم يأتى فعله بينهم.

اللغة المسيطرة

ومتى تم الترويض فمن أجل استبقاء أثره يتعين أن نمحو تماماً اللغة الأصلية لدى الزنجى الجديد، وأن ننشئ لغة جديدة تسهل حياته العملية. وأنتم تعلمون أن للغة تكوينها الخاص وأنها تصل إلى قلوب شعبها، وبقدر ما يعرف الأجنبى لغة غيره من الشعوب بقدر ما يستطيع أن يتحرك وينتقل من خلال كل مستويات هذا المجتمع، ومن ثَمّ إذا كان الأجنبى عدواً لبلد آخر إلى درجة أنه يعرف تكوين لغته إلى هذا المَدى، يكون الوطن قابلاً للغزو من الثقافة الأجنبية، وعلى سبيل المثال فلتأخذ العبد إذا أنت علمته كل ما يتعلق بلغتك فسيعرف كل أسرارك وسيعرف أكثر مما يجوز باعتباره عبداً لن تستطيع أن تستغله بعد ذلك، وإن جعله مغفلاً هو إحدى الصفات الرئيسية لاستبقاء النظام العبودى.

وعلى سبيل المثال أيضاً فإذا قلت للعبد: إنه يجب أن يحسن حصد حاصلاتنا، إذا كان هو يعرف اللغة جيداً فسيعرف أن لفظ حاصلاتنا لا تعنى إلا أنها حاصلات لنا وسينهار النظام العبودى؛ لأنه سيتعامل مع المعنى الحقيقى لكلمة حاصلاتنا.

ومن ثَمّ فعلينا أن نكون حذرين فى استخدام اللغة الجديدة؛ لأن العبد سيوجد فى منزلك وسيتحدث إليك حديث رجل لرجل، وسيكون هذا هو الموت بالنسبة لنظامنا الاقتصادى.

وبالإضافة إلى ذلك فإن تعريف الكلمات والعبارات هو جزء صغير من العملية. إن القيم تخلق وتنتقل بوسائل اتصال من خلال هيكل اللغة، وأن المجتمع كله لديه نظام من القيم المتداخلة، وكل هذه القيم فى المجتمع تنتقل عبر اللغة وتترابط لتعمل بانتظام فى المجتمع.

ولكن من أجل هذه الجسور اللغوية فإن هذه النظم القيمية ستتصادم بعنف وتوجد صراعًا داخليًا أو حربًا أهلية. إن درجة الصراع تتحدد بمدى ضخامة الموضوعات ومدى قوة المعارضة، فمثلاً إذا وضعت عبدًا فى مكان قذر (حظيرة خنازير) ودربته على أن يحيا ويقيم فيه باعتباره وسيلة كاملة للحياة، فلن يجادلك بعد ذلك فى كيف يكون هذا المكان نظيفًا ولن تخشى منه شيئًا.

ومن ناحية أخرى إذا وضعت هذا العبد فى نفس المكان القذر (حظيرة الخنازير)، وجعلت له من لغته ما يشعر به أن هذا المكان أو أن المنزل يمكن أن يكون أحسن من حظيرة الخنازير، يمكن أن ننشئ مشكلة وستجده بعد ذلك فى منزلك أنت.

* * *

والآن أليس رسالة «وليام لنش» ونصائحه الخاصة بترويض العبيد لا تختلف كثيرًا عما يحدث الآن لترويض الشعوب؟!

سفاح الكونغو

منذ تسعين سنة قام وكلاء الملك «ليوبولد الثانى» ملك بلچيكا بمذابح قتل فيها عشرة ملايين إفريقى فى الكونغو، وكان الشنق على الأشجار وقطع الأيدى جزءاً من سياسة «ليوبولد» الاستعمارية. واليوم فإن إرهاب «ليوبولد» قد خُبِئ تحت البساط، ويسميه «آدم هوتشيلد- Hochschild» النسيان الكبير فى كتابه اللامع «شبح الملك ليوبولد» الذى يحكى فيه قصة الاستغلال والقسوة والعنت التى يجب ألا تنساها إفريقيا ولا ينساها العالم.

إن «ليوبولد» لم يضع قدمه قط فى دولة الكونغو، ومع ذلك حكمها ثلاثًا وعشرين سنة من ١٨٨٥ حتى ١٩٠٨م، وحسبما يقول «هوتشيلد»: إنها كانت المستعمرة الوحيدة فى العالم التى يدعيها رجل واحد لنفسه.

كانت الكونغو أرضًا واسعة جدًا، إذا قورنت بمساحة أوروبا فإنها تشغل المنطقة الممتدة من زيورخ إلى موسكو إلى وسط تركيا، وهى أكبر من انجلترا وفرنسا وألمانيا وإسپانيا وإيطاليا مجتمعة. وأغلبها أرض برارى وساڤانا، وتتضمن هضابًا بركانية وجبالاً يغطيها الجليد، وبعض قممها تعلو على جبال الألب.

لقد أثار إرهاب المطاط لليوبولد كثيراً من النقد.فى بريطانيا وأمريكا والقارة الأوروبية خاصة بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٠٨م، ولكنهم حين كانوا يدينون بربرية ليوبولد كانوا هم يرتكبون كوارث وفظاعات ضد الإفريقيين تشابه ما يفعله.

يقول المؤلف هوتشيلد فى الحقيقة فإنه مع خسائر بشرية تقدر بعشرة ملايين شخص فإن ما حدث فى الكونغو يمكن أن يقال إنه من أكبر الجرائم التى ارتكبها الأوروبيون فى إفريقيا.

وخلال عقد من عهد ليوبولد فإن نظامًا للسخرة وُضع لاستخراج المطاط ليس في الكونغو فحسب، بل في الممتلكات الفرنسية غرب وشمال نهر الكونغو، وفي أنجولا التي يحكمها البرتغاليون، وفي الكاميرون التي يحكمها الألمان، وفي الأراضي الاستوائية الإفريقية التابعة لفرنسا، ولكن كل هذه الأراضي المشغولة بالمطاط كانت أقل كثيرًا مما يسيطر عليه ليوبولد ولكن كانت القسوة هي نفسها.

إن العمل بالسخرة وسلاسل العبودية والجوع وحرق القرى كان ذلك كله من النظام السائد، وكان هناك نوع من الكرابيج يُصنع خصيصًا من جلد الخراتيت بعد أن تجفف وتقطع بطريقة تجعل أطرافها حادة وجارحة، وكانت تترك آثارًا دامية على الأجسام، وإن عشرين جلدة منها كانت تنقل المجلود إلى عالم اللاوعي، ومائة جلدة كانت قاتلة. وكان هذا النوع من الكرابيج يستخدم بحرية بواسطة رجال ليوبولد والفرنسيين، حتى إن آلافًا من اللاجئين الذين عبروا نهر الكونغو هروبًا من ليوبولد عادوا من جديد إلى بلادهم هروبًا من قسوة الفرنسيين في الكونغو برازفيل. وتقدر الخسائر البشرية في المناطق الاستوائية الغنية بالمطاط المملوكة لفرنسا بنحو ٥٠٪ مثل الخسائر ذاتها في الكونغو المملوكة لليوبولد.

إن المؤلف هوتشيلد لم يستطع أن يقيس كيف أن حركة الإصلاح في أوروبا ركزت أساسًا على كونغو ليوبولد وحدها، في حين أننا إذا نظرنا إلى المجازر البشرية والنسبة المئوية لمن قتل من البشر، نجد أن الألمان صنعوا نفس الشيء في ناميبيا إن لم يكن أسوأ مما صنعه ليوبولد في الكونغو.

ويذكر المؤلف أنه بهذه المستويات فإن المقياس يكون أسوأ بالنسبة لقبائل الهيريرو في جنوب غرب إفريقيا المعروفة الآن باسم ناميبيا. إن القتلى هناك لم تكن جرائم قتلهم تتخفى وراء شعارات الإنسانية أو ما يشابه، لقد كان قتلاً جماعيًا بسيطًا وصريحًا. وعندما فقد الهيريرو الكثير من أراضيهم واغتصبها الألمان، قاموا بانتفاضة ١٩٠٤م، وردًا على ذلك أرسل الألمان قوات عسكرية ثقيلة تحت قيادة الجنرال لوثر ڤون تروثا الذى أصدر أمرًا لقواته نصه الآتي:

«في أي مكان داخل الحدود «الألمانية!» فإن كل هيريرو يوجد سواء كان يحمل سلاحًا أو لا يحمل وسواء كان لديه ماشية أو ليست لدية ماشية، يجب أن يقتل ولا يجوز اعتقال أي رجل، يجب فقط أن يُقتل»، وعندما أنهى هذا القائد مهمته

١٩٠٧م كان الهيريرو البالغون ٨٠ ألفًا فى عام ١٩٠٣م فقط ١٥ ألفًا، والآخرون قتلوا أو اقتيدوا إلى الصحارى ليموتوا من العطش، بعد أن سمّم رجال القائد الآبار هناك، والبعض الآخر أطلق عليه الرصاص. وكان تسميم الآبار وترك الناس يموتون من العطش فى الصحراء فكرة أملتها عليهم رغبتهم فى توفير الذخيرة وطلقات الرصاص.

وقد حاول المؤلف أن يكون منصفًا بالإشارة إلى ما كان يصنعه الأمريكيون والإنجليز فى أماكن أخرى، فقال: «**فى الوقت الذى كان الألمان فيه يذبحون الهيريرو، كان العالم يجهل القسوة البالغة التى واجه بها الأمريكيون حروب العصابات فى الفيليپين، وكانت قوات الولايات المتحدة تقتل المساجين وتحرق القرى، وتقتل عشرين ألفًا من الثوريين، وتترك مائتى ألف فيليپينى يموتون من الجوع أو المرض.**

والبريطانيون كذلك لم يكونوا يخضعون لنقد عالمى عندما قتلوا السكان الأصليين فى استراليا، ولم يكن هناك احتجاج فى أمريكا أو فى الولايات المتحدة ضد التمييز العنصرى الذى يمارس فى أمريكا ضد الهنود الحمر».

لقد وضع المؤلف سؤالاً مهمًا وهو عندما تمضى هذه المجازر الجماعية بغير انتباه لها إلا من ضحاياها؛ فلماذا كانت انجلترا والولايات المتحدة تثيران عاصفة من النقد والاحتجاج حول ما يحدث فى الكونغو؟ ويجيب على السؤال قائلاً: إن ما حدث فى الكونغو كان قتلاً جماعيًا على نطاق واسع. ولكن الحقيقة أن مَن قاموا بعمليات القتل هذه لصالح ليوبولد لم يكونوا قتلة أكثر من الأوروبيين الذين يعملون فى إفريقيا أو فى كل الحروب، كما ذكر الكاتب «كونراد» فى كتابه «قلب الظلام» أن كل أوروپا ساهمت فى فعل«كورتز-Kurtz»، فمن كورتز؟

إن كورتز هو الشخصية الرئيسية فى قصة «قلب الظلام» لجوزيف كونراد، كان كورتز مبعوث العلم والتقدم ومثقفًا وجامع رءوس القتلى ورسامًا وشاعرًا وصحفيًا ومؤلفًا لتقرير الجمعية الدولية لقمع العادات الوحشية، وهو من أباد الإفريقيين بحجة أنهم متخلفون.

ويعتقد هوتشيلد أن كورتز هو الشخصية الحقيقية لـ «ليون روم»، وروم هذا ولد

فى بلچيكا وتعلم تعليمًا ضعيفًا وانضم للجيش البلچيكى فى سن السادسة عشرة، وبعد تسع سنوات فى سن الخامسة والعشرين من عمره عام ١٨٨٦م، وجد نفسه فى الكونغو يبحث عن مغامرة. صار مأمورًا لأحد الأقاليم فى متادى بالكونغو، وبعد ذلك صار ضمن القوات الإفريقية فى جيش ليوبولد المسمى «القوة العامة فى الكونغو».

إن قسوة روم بلغت حد أن كان الرجال البيض أنفسهم يُصدمون من أفعاله. ويذكر هوتشيلد أنه عندما كان روم رئيسًا لأحد المواقع فى مساقط ستانلى، أرسل الحاكم العام تقريرًا إلى بروكسل عن بعض العملاء، الذين صارت لهم سمعة فى القتل الجماعى للجماهير لأهون الأسباب، وأشار فى ذلك إلى روم الذى كان يضع مشنقة بشكل دائم أمام الموقع الذى يرأسه.

إن كونراد نفسه سبق أن ذهب إلى الكونغو ١٨٩٠م فى الوقت الذى كان روم يرتكب فظائعه، ويكتب هوتشيلد أن المجال الأخلاقى لقصة «قلب الظلام» والظلال الخاصة بالشخصية الرئيسية لم تكن خاصة بالروائى بقدر ما كانت خاصة بالمراقب المفتوح العينين الذى يكشف روح الوقت وروح المكان بصدق كبير.

* * *

كيف أمكن لليوبولد أن يمتلك هذه الأراضى الشاسعة ويستغلها ويقتل شعبها ويستغل ثرواته دون أن تطأها قدمه؟

هناك ثلاثة أشياء يمكن أن تستخرج من هذه القصة الحزينة:

أولها: سذاجة الإفريقيين ملوكًا وشعوبًا.

وثانيها: عدم كفاءة الأوروپيين الذين ذهبوا إلى إفريقيا.

وثالثها: التفوق فى العتاد الحربى والسلاح الذى كان يحوزه الأوروپيون ويفتقده الإفريقيون.

عندما بلغ الأوروپيون الأوَل الكونغو فى عام ١٤٨٢م وكانوا من البرتغال، واجهوا مملكة إفريقية قوية عفية، ويذكر هوتشيلد أنه رغم الازدراء الذى كان يشعر به البرتغاليون تجاه ثقافة الكونغو فإنهم ما لبثوا أن اعترفوا بالنظام والتقدم الذى تتبنى

عليه المملكة هناك، وهى المملكة التى كانت تتولى القيادة فى الساحل الغربى لإفريقيا الوسطى. كانت إمبراطورية كبيرة مترامية الاتساع تتكون من مليونين أو ثلاثة ملايين من السكان، وجزء منها يقع الآن فى عدد من الأقطار الأخرى بعد أن تحكم الأوروبيون فى رسم الحدود فى إفريقيا ١٨٨٥م.

إن أهم ما يميز الكونغو هو النهر العظيم الذى يبلغ طوله ثلاثة آلاف ميل، وله عدد من الأسماء مثل ليولابا وانزاوى وانزيرى، وهى الأسماء التى يطلقها عليه السكان الذين يعيشون حوله. وانزيرى تعنى النهر الذى يبتلع كل الأنهار؛ وذلك بسبب أنه يجمع الروافد الكثيرة، وأحد هذه الروافد هو رافد كاساى الذى يحمل من المياه قدر ما يحمله أطول نهر فى أوروبا وهو نهر الفولجا أو قدر نصف ما يحمله الراين. وله روافد أخرى هى الأوبانجى وهو أطول منه وإن كان أقل منه مياهًا، وطبقًا للنطق البرتغالى فإن انزيرى صارت زائير وهو الاسم الذى أطلقه موبوتو عندما أعاد تسمية البلاد ١٩٧١م، وكما صنع الأوروبيون فى كثير من بلدان إفريقيا فقد غيّروا اسم النهر إلى الكونغو. فى سنة ١٤٨٢م عندما وصل البحار البرتغالى «دياجو» إلى هذا النهر وشاهد مصبه على الأطلنطى اندهش من حجمه. ويذكر هوتشيلد أن علماء جغرافيا البحار المحدثين اكتشفوا دلائل حول قوة النهر العظيم فى انحداره إلى المحيط مائة ميل بعمق ٤ آلاف قدم والنهر ينحنى انحناءة كبيرة، ويصب فى المحيط ٤ , ١ مليون قدم مكعب من الماء فى الثانية الواحدة، وهذه كمية من الماء لا يوجد مثيل لها إلا فى الأمازون.

وبفضل التكنولوچيا الفضائية أمكن الآن معرفة الكثير عن حوض النهر الذى يرتفع إلى نحو ألف قدم بارتفاع ٢٢٠ ميلاً من شاطئ الأطلنطى. ومن ثَمَّ فإن النهر يهبط إلى البحر نحو ٢٢٠ ميلاً.

ويذكر هوتشيلد أنه خلال هذا الهبوط الكبير فإن النهر يجرى فى قنوات ضيقة، ويثور فى أمواج يصل ارتفاعها إلى ٤٠ قدمًا، كما يوجد فيه ٣٢ جندلاً منفصلة كل منها عن الآخر، ومن ثم فإن الانحدار يكون شديدًا وحجم المياه لها قدرة هيدروكهربائية تماثل كل ما يوجد فى الولايات المتحدة من بحيرات وأنهار مجتمعة تقدر بسدس الإمكانيات الهيدروكهربائية فى العالم. ونهر الكونغو هو ثانى أطول نهر فى إفريقيا، يسير فى نحو ٣ , ١ مليون ميل مربع، وهى مساحة تزيد عن الهند.

ومن ثم فإن الكونغو كانت الجوهرة التى من أجلها يمارس الاستعمار القتل، وقد كان هذا الأمر من نصيب «هنرى مورتون ستانلى» الذى استعمرها من أجل الملك ليوبولد الثانى.

كان ستانلى من ويلز بانجلترا ولكنه ظهر بوصفه أمريكيًا، وقد اهتم بالنهر فى جولته الثانية فى إفريقيا وتصور ستانلى أنه النيل.

إن خلفية ستانلى تذكر الكثير عن القسوة التى مارسها على الإفريقيين الذين قابلهم فى رحلاته. ولد فى مدينة تجارية صغيرة فى ويلز ١٨٤١م وسجلته أمه فى كنيسة سانت هيلارى باسم چون رولانز باسترد، ويقال: إن أباه كان سكِّيرًا يسمى چون رولانز يعانى من مرض نفسى يصيب بعض مدمنى الخمور.

باسترد أو هنرى ستانلى

كان چون رولانز باسترد الابن الأول لخمسة أطفال غير شرعيين أنجبتهم أمه، وبعد أن أمضى طفولة بالغة القسوة إلى حد غير عادى فى إصلاحيات الأحداث، فإن چون رولانز باسترد ذهب إلى نيوأورليانز فى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٨٥٩م، حيث غيّر اسمه عدة مرات فسمى نفسه مورلى ومورليك ومورلاند، وفى النهاية استقر على اسم هنرى مورتون ستانلى، مدعيًا أن هذا كان اسم المحسن الغنى الذى كفله فى نيوأورليانز.

صار ستانلى جنديًا وبحارًا وصحفيًا ومكتشفًا مشهورًا، ثم بعد ذلك انتُخِب فى البرلمان.

عندما تولى ليوبولد الملك ١٨٦٥م فى بلچيكا كانت رغبته التى لم تخمد أن يحصل على مستعمرة، حتى إنه عرض أن يشترى الفيليپين من إسپانيا وأن يشترى بحيرة من بحيرات النيل، كما حاول أن يستأجر أراضى من جزيرة فرموزا.

وبالرغم من حجم دولته (بلچيكا) الضئيل فهى بلد صغير وشعب صغير حسبما وصفها هو، وصارت مستقلة ١٨٣٠م، فإن الحملات الشرسة التى خاضها ستانلى فى إفريقيا أتاحت فى النهاية لليوبولد فرصة أن يسيطر على هذه الجوهرة «الكونغو».

قام ستانلى بجولتين صحفيتين فى إفريقيا **الأولى** عام ١٨٦٩ م حيث وجد الرحالة ديفيد ليفنجستون، **والثانية** عام ١٨٧٤ م بدأها من زنجبار ومعه ٣٥٦ رجلاً أغلبهم من الأفارقة وهاجم ودمر ٢٨ مدينة كبيرة وثلاث أو أربع مجموعات من القرى، وكان ينهب ويدمر كل ما يعترض طريقه إلى ثغر نهر الكونغو على شاطئ الأطلنطى.

وفى عام ١٨٧٩م عاد ستانلى إلى إفريقيا ، وكان فى هذه المرة مبعوثًا من الملك ليوبولد؛ لكى يستعمر له الكونغو، واستخدم ستانلى فى هذه المهمة البندقية والسلع الأوروبية الرخيصة والغش الصريح؛ ليكسب ٤٥٠ من الرؤساء المحليين ويسيطر على أرضهم وشعوبهم.

ويذكر ستانلى كيف أن جزيرة مانهاتن فى خليج نيويورك التى تبلغ مساحتها ١٢٢ ميلاً مربعًا قد اشتريت من الأهالى الأمريكيين بواسطة ضابط استعمارى هولندى هو «بيتر مينويد» مقابل سلع تافهة قيمتها ٢٤ دولارًا، فلماذا لا يفعل هو ذلك فى الكونغو أيضًا؟! . وقد كان كل ما فعله أنه طلب من الرؤساء الكونغوليين أن يوقعوا بعلامة إكس على المستندات القانونية المكتوبة بلغة أجنبية التى لم يروها من قبل، وسمى ستانلى هذه الأوراق معاهدات مثل التى وقعت فى أول أبريل ١٨٨٤م بواسطة رؤساء انجومبى وماڤيلا مقابل قطعة واحدة من الملابس تُعطى كل شهر إلى كلّ من الرؤساء الموقعين فضلاً عن هدية من الملابس، وفى مقابل ذلك فإنهم وورثتهم من بعدهم وخلفاءهم إلى الأبد، يعطون إلى الجمعية التى أسسها ليوبولد السيادة وكل حقوق السلطة والحكم على كل أراضيهم ويساعدون بالعمل وغيره وكافة الأعمال فى الحملات التى تقوم بها الجمعية فى أى وقت وعلى أى أراض، وأن تكون كل الطرق والمجارى المائية التى تجرى فى هذه البلاد تشملها هذه الحقوقً وكل مجالات النشاط والصيد واستغلال المناجم والغابات، يكون كل ذلك ملكية مطلقة للجمعية.

بواسطة معاهدات من هذا النوع استعمر ستانلى الكونغو لصالح ليوبولد، ولكن الفرنسيين لم يكونوا ليتركوه بكل هذه الغنيمة، فأرسلوا الكونت «بيتر سافورنان دى برازا» فى بعثة استعمارية خاصة، ونزل برازا فى إقليم شمال نهر الكونغو وأحاط بهذه المنطقة لصالح فرنسا، وصار له مدينة باسمه برازافيل، وصارت هذه

المنطقة تعرف باسم الكونغو برازافيل ، حيث قاد الفرنسيون عملياتهم الوحشية ضد الشعوب المحلية. وفي الوقت نفسه قام برازا بمجهود كبير من أجل ليوبولد فقد عبر النهر وأنشأ سكة حديد وشق طريقًا ترابيًا (مدقًا) بطول ٢٢٠ ميلاً قرب النهر؛ وذلك ليسهل شحن العاج الموجود في الكونغو بوفرة وشحن غيره من الثروات إلى بلچيكا إغناءً لليوبولد ولدولته الصغيرة. وفي عام ١٨٨٤ م عاد ستانلي إلى بلده انجلترا بعد أن أنجز المهمة الخاصة بليوبولد. وأرسل ليوبولد بعد ذلك جماعاته بما فيهم ليون روم؛ ليستخدم الإرهاب والرعب ليحكم هذه البلاد ويسيطر على ثرواتها. وكانت فظائع أجهزة ليوبولد هي التي نبهت أعين العالم، والتي أجبرته على أن يبيع الكونغو للحكومة البلچيكية في عام ١٩٠٨م.

كان العاج أهم ما كان يصدره ليوبولد من الكونغو، ثم حدث بعد ذلك بالصدفة حادثًا غيّر مصير ليوبولد ومستعمرة الكونغو وشعبه، كان «چون دَنلوب» في أيرلندا يجرب دراجة مع ابنه واكتشف إلى أي مدى الإطار المصنوع من المطاط مناسبًا للسير، فأسس شركة للإطارات ١٨٩٠م سميت باسمه دَنلوب، ثم ظهرت هذه الصناعة الكبرى للإطارات من المطاط «إطارات دَنلوب»، وصار المطاط هو الذهب الجديد، وكان هذا ما أثلج صدر ليوبولد وفتح أبواب الثروة له من الكونغو الغني بالمطاط.

إرهاب المطاط

ضغط ليوبولد على وكلائه للمزيد من استغلال المطاط الطبيعي في الكونغو رغم وفرته، ومارس من أجل ذلك مذابح القتل الجماعي، كان استخراج المطاط الطبيعي عملية صعبة استخدم فيها وكلاء ليوبولد إجراءات قاسية؛ ليجبروا الأهالي في الكونغو على أن يذهبوا إلى الغابات ويجمعوا المطاط من أجل ليوبولد، وكان أي رجل يقاوم هذا الأمر يرى بعينيه كيف تُختطف زوجته وتُقيد بالسلاسل ليضطر هو إلى الرضوخ والذهاب لجمع المطاط، وأحيانًا كانت تُقتل زوجته انتقامًا منه.

وقد قاومت كثيرٌ من القرى نظام المطاط؛ فكان وكلاء ليوبولد يأمرون جيش الطوارئ أن يغزو هذه القرى المتمردة ويقتل أهلها، وحتى يتأكد الضباط من أن

الجنود لم يبددوا الرصاص فى اصطياد الحيوانات كانوا يطلبون من الجنود أن يتروا اليد اليمنى لكل شخص يقتلونه. يقول هوتشيلد: إن الدليل النمطى كان اليد اليمنى لكل جثة، وأحيانًا كانوا يحصلون على أيدى أناس لم يقتلوا عندما كانوا يوجهون الرصاص إلى اصطياد الحيوانات فكانوا يقطعون يد رجل حى ليقدموها، وفى بعض الوحدات العسكرية كان هناك أمين على مخزن الأيدى المقطوعة كانت وظيفته تبخيرها. وقد اكتشف هذا الأمر «أدمون دين موريل» وهو كاتب فى خطوط سفن ليفربول التى كان يستخدمها ليوبولد فى شحن ثروات الكونغو، اكتشف فى رحلاته المتعددة للموانى البلچيكية أنه فى حين كان المطاط والعاج يشحنان من الكونغو كان يشحن إلى الكونغو بدلاً منهما الجنود والبنادق. وكان هذا بداية حملته الصحفية التى كشفت فظائع ليوبولد فى الكونغو. أجبرت حملات موريل الصحفية فى أوروبا وأمريكا، بريطانيا فى النهاية على أن تطلب من قنصلها فى الكونغو سير «روجار كاسيمنت» وهو أيرلندى، أن يقوم بجولات تفتيشية فى طول الكونغو وعرضها ويكتب عما يحدث، وكان ما اكتشفه «كاسيمنت» من الفظاعة، بحيث إن وزارة الخارجية بلندن أحرجت، ولم تستطع أن تنشر أصل التقرير.

كان وصف «كاسيمنت» للأيدى المقطوعة ووسائل الجبر العنيفة أكثر مما توقعته الحكومة البريطانية، وعندما نشرت وزارة الخارجية البريطانية أجزاء من التقرير غضب «كاسيمنت» وأرسل خطابًا من ١٨ صفحة يحتج فيه على رؤسائه فى الوزارة ويهدد بالاستقالة؛ لأنهم لم ينشروا التقرير كاملاً.

وفى النهاية اضطرت الحكومة البلچيكية إلى أن تتخذ خطوة وتشترى الكونغو من ليوبولد، بدأت مفاوضات البيع فى ١٩٠٦م واستمرت عامين، وتمت عام ١٩٠٨م. وقبلت الحكومة البلچيكية قبل كل شيء أن تحوز الكونغو بمبلغ ١١٠ مليون فرنك، بعضها كان بسندات على الحكومة، ومنها ٣٢ مليون فرنك كان دينًا للحكومة على ليوبولد، سداداً لقروض سبق أن اقترضها من الحكومة. وقد وافقت الحكومة على أن تدفع ٤٥,٥ مليون فرنك؛ لتكمل مشروعات البناء التى بدأها ليوبولد ولم يكملها، وفوق كل ذلك حصل ليوبولد على ٥٠ مليون فرنك تدفع له أقساطًا كتعبير عن امتنان الحكومة له؛ بسبب تضحياته العظيمة من أجل الكونغو.

ويقول هوتشيلد: إن هذه المبالغ كلها لم يكن يتوقع أن تجبى من دافع الضرائب البلچيكى، إنما كان المتوقع والحاصل أن تستخرج من الكونغو نفسها.

وينهى هوتشيلد كتابه بملاحظة يسميها النسيان الكبير : «**فى المرحلة الاستعمارية فإن التراث الغالب الذى خلفته أوروبا لإفريقيا لم يكن الديموقراطية كما تطبقها اليوم بلدان مثل انجلترا وفرنسا وبلچيكا، إنما كان الحكم الاستبدادى والنهب. وفى كل القارة الإفريقية قد لا تكون هناك أمة مرت بظروف أصعب مما عانى منه الكونغو من انبعاثه من ظلال الماضى.. وعندما أتى الاستقلال عام ١٩٦٠م، عانى الكونغو كثيراً من نقص العناصر الإفريقية المدربة لهذا اليوم، ففى كل الكونغو كان هناك أقل من ٣٠ خريج جامعة من الإفريقيين، ولم يكن هناك ضباط جيش ولا مهندسون ولا زراعيون ولا أطباء من الكونغوليين. لقد صنعت الإدارة الاستعمارية القليل لكى يمكن للكونغو أن يحكم بواسطة شعبه، ومن بين خمسة آلاف وظيفة إدارية فى جهاز الإدارة لم يزد عدد الشاغلين لها من الإفريقيين عن ثلاثة**».

وفى يوم الاستقلال كان الملك بودوان ملك بلچيكا وقتها، كانت لديه الصفاقة بحيث يوجه حديثه لشعب الكونغو فى كنشاسا قائلاً: «**إن الأمر يرجع إليكم الآن أيها السادة لتظهروا أنكم تستحقون ثقتنا**». إنه لا توجد وقاحة أكثر من هذا ويمكن تصور مدى الغيظ الذى شعر به الوطنيون المناضلون فى الكونغو وقتها مثل الزعيم «باتريس لومومبا».

إن كتاب هوتشيلد «شبح الملك ليوبولد» كتاب ممتاز وإفريقيا تدين لكاتبه بدين كبير من الامتنان، وهو جدير بأن يقرأ ويعمم فى مدارس إفريقيا وجامعاتها.

البرتغال مبتدعة الرق

أعتقد أن البرتغاليين أكثر الناس الذين يجب أن يدينوا بالاعتذار للشعب الإفريقى، وأن البرتغال يجب أن تقدم وأن تؤدى دينًا معنويًا لمواجهة الحقائق الخاصة بتاريخها، وتأسف عن الأذى الذى يشعر به - ولا يزال - مئات الملايين من الشعب الإفريقى الأسود.

ولتوضيح هذه الإدانة أقتطف نصًا برتغاليًا قديمًا يرجع إلى القرن الخامس عشر، كتب فى زمان أول شحنة للعبيد تُنقل من غرب إفريقيا إلى البرتغال، وهذا النص كتبه قسيس فرنسسكانى برتغالى هو «فرناندو دى أليفييرا» الذى كان زميلاً وصديقًا للقس «لاس كاساس» أكبر تجار العبيد.

كتب أليفييرا كتابه عام ١٥٥١م بعنوان: «فن الحرب فى البحر» وفيه تتبع كيف كانت تتم عملية جمع وترحيل العبيد الإفارقة عبر الأطلنطى، وأدان البرتغاليين باعتبارهم المبتدعين لتجارة الرق الإفريقى، يقول: **«إنه لا يمكن أن يكون ولا يقبل العقل البشرى بيع وشراء الرجال الأحرار المسالمين، كما يبيع ويشترى الإنسان الوحوشَ والماشيةَ وما شابهها، إنهم يُؤخذون ويُختارون ويُقيدون ويُقادون ويُصنع بهم ما يصنعه الجزار عندما يعرض الحيوانات، كم هى عملية غاشمة ومفسدة؛ فإذا اختطف أسود مسالم وفُصل عن أسرته وعن البيئة الاجتماعية المحيطة به وسيق إلى الساحل ونقل مقيداً بالأغلال عبر الأطلنطى، فإنه ليس هو فقط من يعانى، بل إن أخلافه أيضًا سيكونون ضحايا سادتهم البيض»**.

نحن نعرف ما فعله البريطانيون والفرنسيون والإسبان والهولنديون وغيرهم فى تجارة الرقيق لتعمير القارات الأمريكية، أكثر كثيراً مما فعله البرتغاليون فى البرازيل

أو ما باعه البرتغاليون من العبيد فى الأسواق الأمريكية ، ولكن إدانة البرتغاليين ترجع إلى أنهم أول مَن مارسوا هذه التجارة عبر طرق مباشرة تعبر جنوب الأطلنطى ، وذلك بعد أن أقاموا علاقات مع الممالك الإفريقية القديمة ونجاحهم فى الكونغو ، حيث بدأ التوسع فى تجارة الرق عبر البحار .

وقد اعترف اللورد بالمرستون فى البرلمان البريطانى وكان أكبر رؤساء وزراء بريطانيا فى بدايات القرن التاسع عشر ، بأن البحرية البريطانية ما كانت تستطيع أن تقوم بنشاط فى المحيط الأطلنطى وكذلك سفن القوميات الأخرى ، ما لم تستخدم العلم البرتغالى للتهرب من الوقوع تحت طائلة القوانين فى بلادهم . وإذا أخذنا فى الاعتبار أن تجارة الرق الإفريقية التى جرت عدة قرون قبل ظهور الطاقة البخارية ، كانت هى مصدر الطاقة الذى يضاهى البترول فى هذه الأيام ، ندرك إلى أى حد ساهم العبيد الأفارقة فى تنمية القارات الأمريكية ، وإلى أى حد كانت جريمة البرتغال .

إن كتاب «أليفييرا» يُعَدّ مرجعًا أساسيًا فى تاريخ تجارة الرق ، وقد كان لدى مؤلفه - على خلاف المعتقد السائد - حساسية خاصة تجاه ممارسة الرق ، وأنه يكاد يعتذر مما يقع ويجرى من جراء هذه التجارة ، ناهيك عن الممارسات والجرائم ضد الإنسانية التى ارتكبتها البرتغال والدول الاستعمارية الأخرى التى يرفض البعض حتى الآن الاعتراف بها ويودون حذفها من الماضى . . ولكن يبدو أن أوان الاعتذار قد فات من زمن بعيد ، بعد أن أخفيت الحقائق الخاصة بالاستعمار وبالمشترين البيض والحاملين للرقيق والبائعين لهم .

* * *

كان البرتغاليون أول الأوروبيين الذين نزلوا بإفريقيا مع قيامهم بالحركة الكشفية فى القرن الرابع عشر ، وكان غرضهم فى البداية يرمى إلى التجارة ، وسرعان ما اكتشفوا تجارة الرقيق التى كان يفوق عائدها أية تجارة أخرى ، فركزوا نشاطهم فيها ، وكان الطلب على العبيد يتزايد ؛ وذلك للعمل فى المناجم ومزارع جزر الهند الغربية وغيانا البرتغالية فى أمريكا .

ويعد الدور الذى قام به هؤلاء الرقيق فى خلق البرازيل عظيمًا بالرغم من

الظروف السيئة التى عاشوا فيها، هذا الدور أعظم بكثير من دور المستوطنين الأوروبيين، بل أعظم من دور البرتغاليين أنفسهم فقد كان الرقيق هم القوة التى اعتمد عليها فى المجتمع الزراعى فى البرازيل، كانوا وقود التنمية والإنتاج واستخدمت قوتهم العضلية فى تحريك الآلات والأدوات، كما استخدم الفحم بعد ذلك فى تحريك الآلة البخارية، وكما يُستخدم البترول الآن.

ويمكن القول: **إن تجارة الرق عبر الأطلنطى بدأها البرتغاليون فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وبعدها توالت الاكتشافات الأوروبية على طول الساحل الغربى الإفريقى. وكان سبب سيطرة البرتغاليين على هذه التجارة حادثًا صغيرًا يكاد لا يذكر فى كتب التاريخ. ففى عام ١٤١٥م غزا البرتغاليون مدينة سبته وهى ميناء صغير من موانى المغرب يقع فى الطرف الشمالى عند مضيق جبل طارق، وانتزعوه من المغاربة، وكان هذا الانتصار بداية أحلك الفصول سوادًا فى تاريخ القارة. ولا يزال ميناء سبته يقع تحت الاحتلال الإسپانى رغم الجهود الديپلوماسية المضنية التى تقوم بها المغرب لاسترجاع هذا الميناء المهم. وللأسف فإن المؤرخين والباحثين العرب لم يهتموا بهذا الحدث ونظروا إليه كشأن سقوط أية مدينة من البُلْدان العربية فى يد الغزاة الأوروبيين، فى حين أن سقوط هذا الميناء الصغير الذى لم يلتفت إليه هو الذى فتح الباب لغزو القارة الإفريقية.**

يقول «هيوتوماس» فى مؤلفه القيم «تجارة الرقيق» الذى نُشر عام ١٩٧٧م: «إن نقطة التحول فى الرحلات الأوروبية إلى غرب إفريقيا كانت فى عام ١٤١٥م، عندما قاد البرتغاليون حملة عسكرية للسيطرة على «سبته ـ Cepta» ، وكانت وقتها ميناءً تجاريًا كبيرًا يقع على الشاطئ الجنوبى للبحر المتوسط، وكانت نقطة النهاية الشمالية لعدد من طرق القوافل الآتية من إفريقيا».

من وجهة النظر الأوروبية يذكر «هيوتوماس» أن أهالى جنوة كانوا يمارسون التجارة مع سبته من ٢٥٠ سنة، ويمكن أن يكونوا هم الذين اقترحوا على البرتغاليين غزو سبته، هذا بالإضافة إلى عدد من الدوافع الأخرى كانت لدى البرتغاليين وراء قرار الغزو، منها مثلاً الطموحات السياسية لأمراء البرتغال، والشعور الغلاب والمتنامى لديهم بالفروسية: «إن ملكى المستقبل دورتى وأخاه

هنرى الملاح (وهما نصف إنجليز) كانا مع أبيهما الملك «جوا الأول ـ Joao» قد اكتسبا فروسيتهما من السيطرة على ميناء سبته، وكانا قد سمعا عنها من التجار وقوافل الجمال التى كانت تحمل البضائع وأشياء أخرى إلى سبته ويتبادل بها بالذهب والعبيد القادمين من تمبكتو على النيجر وكنتور فى چامبيا، وهذه التجارة هى ما أوحت إلى هنرى الملاح أن يصل إلى هذه البلاد عن طريق البحر».

ومن وجهة النظر الإفريقية يشرح د. «چون هنرى كلارك» المؤرخ الأمريكى الإفريقى البارز والصحفى الذى اشتهر بأبحاثه الأصيلة فى المسائل التاريخية، فى محاضرة له فى لندن ١٩٨٨م: لماذا كان هذا النصر الصغير فى سبته مهمّا جدّا بالنسبة للأوروپيين؟ يقول: «فى ١٤٠٠م كانت أوروپا خارجة من أوضاع العصور الوسطى، وكان الإفريقيون والعرب والبربر (المراكشيون) يسيطرون على إسپانيا منذ ٧١١ م حتى عام ١٤٠٠، كانت سيطرهم على إسپانيا تغلق أمام الأوروپيين إمكانات السيطرة على البحر الأبيض المتوسط، وكان هذا سبب الحروب التى دارت من أجل السيطرة على التجارة البحرية من البحر المتوسط وسمّيت بعدها بـ «حروب مصير البحر»؛ لأنها تتصل بالقارات الثلاث. كانت السيطرة والتزاحم ينصبان فى الحقيقة على شمال إفريقيا هذا الباب المفتوح إلى إفريقيا».

ويكمل د. كلارك: «وفى عام ١٤١٥م كان البرتغاليون وغيرهم من الأمم الأوروپية يعيشون فى خوف مما يسمى بالعرب، واستطاع البرتغاليون الذين كانوا يعيشون تحت سيطرة الإفريقيين والعرب أن يحرروا أنفسهم من هذه السيطرة، ساعدهم فى ذلك الخلاف الذى قام بين المجموعات العربية والإفريقية وهم «المورڤيد Almorevides»، و«أمهرست ـ Amharst»، وفى هذه السنة ١٤١٥م جاء الحدث الصغير الذى عرف على نطاق ضيق فى التاريخ وهو معركة سبته.

كان البرتغاليون سعداء لأنهم نجحوا فى الهجوم على هذا المنحنى من شاطئ مراكش (المغرب)، وهذا النصر الصغير أثار أوروپا واستحث لديها التفكير بأن العرب ليسوا بعيدين عن إمكانية أن يهزموا، وبدا هذا النصر الصغير فى شكله أنه نصر ضخم وساعد أوروپا على أن تسترد ثقتها. فقد كانت معنويات أوروپا هابطة جدّا، وعاشت مئات السنين فى خوف شديد من الإفريقيين العرب الذين كانوا يسدون الطريق أمام تحركات الأوروپيين فى البحر».

ويكمل د. كلارك «وبعد معركة سبته بدأ البرتغاليون يؤكدون أنفسهم ووجودهم، وهذا التأكيد أدى إلى إضعاف قبضة الإفريقيين والعرب على البحر المتوسط، ومع هذا الإضعاف فإن الخلاف بين العرب والإفريقيين أضعف سيطرتهم على إسبانيا؛ مما أدى إلى أن تتحرر إسبانيا من سيطرتهم». وكان هذا هو كرة الثلج التى أثرت على إفريقيا إلى الأبد.

وطبقًا لما يذكره المؤرخ وورتر دودنى: «كان المسلمون المغاربة الذين كان يطلق عليهم «المور ـ Moors» يقيمون المجتمع النشط القائم على أرض إفريقيا، وكانوا ذوى مستوى معيشى مرتفع، ومن المؤشرات الدالة على ذلك أن الحمامات العامة مثلاً كانت منتشرة وموجودة فى مدن المغرب، فى حين أنه فى ذلك الوقت كانت أكسفورد فى انجلترا تعتقد أن غسيل الجسم هو عمل خطير».

* * *

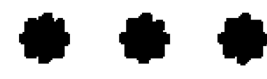
ذهبوا من أجل الذهب فاصطادوا العبيد

رغم أن البرتغاليين عملوا على السيطرة على سبته فقد فشلوا فى أن يسيطروا على تجارة الذهب الإفريقية ويغتصبوها من المغاربة، وأن فشلهم فى الحلول محل المغاربة دفعهم إلى تبنى استراتيجية بحرية، بهدف الحصول المباشر على طريق الذهب الإفريقى.

بدأت خطتهم بالالتفاف حول سواحل إفريقيا من الساحل الشمالى الغربى إلى الساحل الغربى، ووصلوا إلى رأس بوجادور ١٤٣٤ م، والرأس الأخضر ١٤٤٤م، وإلى سيراليون ١٤٦٠ م، وإلى ساحل الذهب ١٤٨٣ م، وإلى رأس الرجاء الصالح ١٤٨٨م.

وفى ٨ أغسطس ١٤٤٤ م وصلت أول شحنة من العبيد الأفارقة إلى البرتغال وكان عددهم ٢٣٥ عبدًا. ويذكر هيوتوماس فى كتابه أن وصول هذا الحجم من الإفريقيين كان شيئًا جديدًا، ذهب الكثيرون ليشاهدوه ومنهم الملك هنرى الذى أخذ يحدق فيهم من على ظهر حصانه، واستلم منهم هدية يبلغ مقدارها ٤٦ عبدًا

وهو يمثل الخمس الملكى، وقد شعر بأنه أنقذ أرواح هؤلاء القوم من أجل الرب . . في حين كتب «جومز دى زورارا» وكان من حاشية الملك هنرى عندما رأى ذعر وبؤس هؤلاء العبيد: «أى قلب قاس لا يستطيع أن ينفعل ويشعر بالشفقة تجاه هؤلاء القوم عندما يصطادون وينفصل الآباء عن أبنائهم والأزواج عن زوجاتهم والإخوة عن إخوانهم، ونجد الألم فى العيون، والدموع تغسل الوجوه، والأكف تضرب الخدود، والصراخ ينبعث عاليًا، والأنظار تحدق بعيدًا كما لو كانت تطلب المعونة من إله الطبيعة».

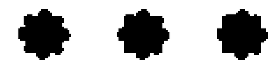


الباعث الحقيقى

ولكن الباعث الحقيقى لاختطاف الأفارقة وجعلهم عبيدًا لم يكن التجارة فقط وإنما الانتقام أيضًا، كشف ذلك هيوتوماس بقوله: «إن أغلب المأسورين والذين كانوا محطّ الأنظار وقتها كانوا من «الأزاناغى ـ Azanagh» (ويعرفون الآن عادة باسمهم البربرى سانهاجا أو«إيدزاجن ـ Idzagen»)وهم سكان ما يعرف حاليًا بالجزء الشمالى من موريتانيا، وهم إحدى قبائل الطوارق المهمة، وشعبهم ممن ساهم فى حركة «المورافيد ـ Almoravid» التى تسببت فى تدمير واسع النطاق فى المنطقة الأيبيرية. وإن أسلاف هؤلاء الذين اختطفوا وسيقوا إلى البرتغال عام ١٤٤٤م، وكانوا يركبون الجمال ويلبسون الجلود، صاروا من خلال مراكش ثم أيبيريا حكّامًا لإمبراطورية تمتد من النيجر والسنغال فى إفريقيا إلى «إبرو ـ Ebro» فى إسپانيا».

ويعلق هيوتوماس «الحقيقة أن البرتغاليين كانوا يصطادون الإفريقيين ويحولونهم إلى عبيد مَحْض انتقام من الأفارقة المغاربة والسيطرة الإفريقية المغربية على شبه جزيرة أيبيريا (إسپانيا والبرتغال)، إن هؤلاء الأسلاف كانوا قد سيطروا على البرتغال لمئات من السنين السابقة قبل سقوط سبته، باختصار أن خطيئة هؤلاء الأسلاف هى ما أراد البرتغاليون أن ينتقموا من خلفائهم، ومنذ عام ١٤٤٤م، وما بعدها استمر البرتغاليون يأسرون المزيد والمزيد من الإفريقيين ويحولونهم إلى

عبيد، كان البرتغاليون وفرقهم يسيرون جماعات أربعات أو أكثر، ويذهبون إلى خليج أرجوين فى شمال موريتانيا وهم مسلحون تسليحًا جيدًا، وينزلون إلى الأرض فى المساء ويفاجئون قرى الصيادين فى هذه المناطق». وهذه الفنيات الخاصة بهذا الاختطاف كانت موروثة من الهجوم على المغاربة فى البرتغال وإسپانيا فلم يكن هناك بدع فى ذلك .



المال ... المال ... المال ...

أتى اصطياد الأفارقة بالكثير من المال لملك البرتغال هنرى الملاح ولقواده ولغيرهم من ذوى الأثر البارز فى حملاته، بما فى ذلك أساقفة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. فى ١٤٤٢م نجد أن البابا يوجينياس الرابع أعلن رعايته لحملات خطف الرقيق التى يقوم بها الملك هنرى فى إفريقيا، وأصدر بذلك بيانًا باباويًا. وفى الخمسينيات ١٤٥٠ ـ ١٤٥٩م فإن البابا نكولا الخامس وكالكتاس الثالث أصدرا موافقاتهما الحارة لهذه الحملات، وكانت الكنيسة راضية بنصيبها من الأسلاب فكان كل ما تطلبه هو تعميد العبيد المرسلين إلى أمريكا حتى يتيسر إنقاذ أرواحهم، وقد تصر الكنيسة فى بعض الأحيان أن تحمل السفينة ناقلة العبيد قسًا يصاحبها فى رحلتها بين القارتين، وكان الأسقف يجلس على مقعده الرخامى على الشاطئ فيعمّد العبيد ويقبض نصيبه من رسوم التصدير، وقد وصلت هذه الضريبة فى القرن السابع عشر إلى ٣٠٠ كراون يدفعها تاجر الرقيق عن كل عبد.

ولكن لم يكن الأمر سهلاً من كل الجوانب بالنسبة للخطافين البرتغاليين، وقد سجل «زورارا» ما يلى: «إن رجالنا كانوا يرهقون جدًا فى اصطياد من يعرف السباحة؛ لأنهم كانوا يغطسون مثل الحيتان فلا يدرك أثرهم أحد، وكانت متابعة أحدهم تمكن الآخرين من الفرار».

كان الذين يقودون حملات الخطف هذه يحصلون على إجازات وجوائز من الملك هنرى الملاح، كما أن هذه الحملات كانت مربحة إلى حد أن أحد الأساقفة أرسل سفينة لحسابه فى إحدى هذه الحملات .

إن الاستيلاء على هؤلاء العبيد لم يعطل الاكتشافات، بل كان هو مصدر تمويل

الاكتشافات الجغرافية فى الوقت نفسه. فهذه الأموال التى حصل عليها البرتغاليون هى ما مكّنَتْهُم من الإبحار حول شاطئ إفريقيا الغربية، وسنة بعد سنة كانوا يخطفون العبيد حتى وصلوا إلى الرأس الأخضر، ثم اتجهوا جنوبًا إلى جزيرتى جورى وداكار فى السنغال. وفى هذا الوقت بدأ الإفريقيون يتعلمون كيف يدافعون عن أنفسهم من الأوروپيين، كانوا يستعملون القوارب الخشبية الطويلة المصنوعة من جذوع الشجر بمهارة ويستخدمون المجداف ولا يعتمدون على الرياح.

ويذكر هيوتوماس أن واحدًا من حاشية الملك هنرى فقدَ حياته فى السعى وراء العبيد الإفريقيين فى واحدة من هذه الحملات، وكذلك «نونو ترستاو» أحد الطليعيين الأوائل فى اختطاف الرقيق مات أيضًا فى سعيه وراء عبد، وأيضًا «نبيل دانماركى» أول من أبحر لغرب إفريقيا من شمال أوروپا بعد أن انضم إلى حاشية الملك هنرى اختطف وقُتل فى جورى ١٤٤٨م.

وعندما زاد عدد القتلى البرتغاليين قرر الملك هنرى أن يغيّر أساليبه، أصدر تعليماته إلى أحد قواده هو «جوا فرناندس» أن يغيّر كل أساليب العمل البرتغالى فى اصطياد العبيد، فبدلاً من أن يصطاد البرتغاليون العبيد عليهم أن يشتروهم، وهذا ما تغير به إلى الأبد وجه تجارة الرقيق عبر الأطلنطى.

* * *

بداية الشراء

إطاعةً لتعليمات الملك هنرى فإن «جوا فرناندس» ظل طوال عام ١٤٤٥م على ساحل أرجوين يجمع المعلومات، واكتسب ثقة الأهالى المحليين ودرس الأسواق، حيث كان يمكن تبادل الذهب والعبيد ببعض السلع الأوروپية المتواضعة.

ومن ثَمَّ بدأ شراء العبيد بدلاً من اختطافهم، شراؤهم من الإفريقيين أنفسهم. وقاد هذا إلى السؤال المهم جدًا وهو: لماذا غيّر الإفريقيون تفكيرهم، لماذا تحول الإفريقيون فجأة من مقاومين لخطف البرتغاليين للعبيد إلى جمعهم هم للعبيد وبيعهم للبرتغاليين؟

يقول هيوتوماس: إن بيع أى حاكم لشخص من شعبه يمكن أن ينظر إليه باعتباره عقوبة قاسية، وعندما كان الملوك الإفريقيون وغيرهم يبيعون أسرى الحرب والغزوات على القبائل الأخرى من جيرانهم كانوا ينظرون إلى هؤلاء الأشخاص باعتبارهم أجانب، فلا يهمهم المصير الذى ينتظرهم وهم يكرهونهم. لم يكن هناك شعور بالقرابة بين الشعوب الإفريقية. هؤلاء المسجونون أو الأسرى الذين كانوا يؤسرون كانوا أصغر الطبقات فى المجتمع فى إفريقيا، وكانوا يُكلفون بالأعمال الشاقة ومنها استخراج الذهب من المناجم.

ولكن هل هذا يشرح بشكل كاف لماذا دار الإفريقيون هذه الدورة المعاكسة فجأة، وصاروا يبيعون شعبهم بدلاً من أن يدافعوا عنه؟.. ومن أين كان يأتى أسرى الحروب، ومتى كانت الحروب تبدأ وقتها، قبل أن يأتى البرتغاليون ويخطفوا العبيد أم بعد ذلك؟

على عكس ما يحكيه الرحالة الأوروپيون من أقاصيص عن الإفريقيين من أنهم لم يكونوا أفضل من الوحوش وأنهم كانوا يعيشون بين الأشجار، الأمر كان على عكس ذلك تمامًا فعندما أتى الأوروپيون واجهوا حضارة ومجتمعات مركبة ومتحضرة فى إفريقيا.

يعترف هيوتوماس فى كتابه «فى هذا الوقت كان صهر الحديد والصلب فى غرب إفريقيا يماثل ما كان يحدث فى أوروپا فى القرن الثالث عشر، إن سنى چامبيا الإقليم الواقع بين نهرى السنغال وچامبيا قامت به صناعات الحديد والنحاس. وكانت نوعية الحديد الإفريقى تقترب من حديد «توليدو» قبل القرن الخامس عشر، وهذه المعادن كانت تصنع منها معظم الأدوات المنزلية الإفريقية مثل السكاكين والبلط والفئوس وغيرها، وكان الحدادون على دراية عالية، وكانت صناعاتهم فى السلاسل وغيرها متقنة وناعمة إلى حد أن الحرفيين الأوروپيين لم يكونوا يستطيعون أن يقلدوها. هكذا كتب أحد القواد الهولنديين عام ١٧٠٠م».

ويستمر هيوتوماس قائلاً: «إنه حقيقة أن إفريقيى غرب إفريقيا لم يعرفوا العربة ذات العجل، ولكن هذا النوع وقتها كان نادراً فى أوروپا أيضًا، وفى كل الأحوال فإنه من الزيف أن نصف غرب إفريقيا فى وقت اتصالها بالبرتغال وغرب أوروپا أنها

كانت شعوبًا متخلفة، فهم كانوا فى مجالات كثيرة أكثر تحضراً، وفى مستوى أرقى مما كان عليه الإسپان والبرتغاليون فى العالم الجديد، بل لعله كان أعلى فى بعض النواحى من المستعمرين البيض».

إذن لماذا باع الإفريقيون العبيد؟ ولماذا وافق الإفريقيون الذين عاشوا فى مجتمعات متحضرة على بيع شعبهم إلى الأوروپيين؟ إن المؤرخ الأمريكى الإفريقى د. كلارك لديه الإجابة الأصوب؛ ففى محاضرته فى لندن ١٩٨٨م التى سبق الإشارة إليها قال ما يلى: «إن كتب التاريخ التى لديك لا تذكر لك أن حادثًا كبيراً وقع فى عام ١٤٩٢م ينبغى أن يعيره الإفريقيون الاهتمام، وهو أنه فى عام ١٤٩٢م فإن «سونى على» إمبراطور واحدة من الأمم الإفريقية الكبيرة والأخيرة فى غرب إفريقيا هى مملكة سونغاى، غرق فى طريق عودته إلى بلده بعد معركة جرت فى الجنوب، وكان حاكمًا مقتدراً. وبعد وفاة «سونى على» حدث تقوض فى السلطة واضطراب فى سونغاى على مدى عام، حتى استطاع أحد العامة وهو «محمد أبو بكر تورى» أن يصل إلى الحكم نتيجة لهذا الاضطراب، وكون آخر الأسر المالكة الكبيرة التى حكمت دولة مستقلة فى إفريقيا، وشكلت الدولة الوطنية قبل أن تغزو تجارة العبيد وتنتشر داخل الأراضى الإفريقية، هذه الدولة القومية الإفريقية الكبيرة كانت تشمل مساحة واسعة جداً. إن النقطة الأساسية المتعلقة بهذا الأمر أنه حين كانت تجارة العبيد تبدأ على طول الساحل الإفريقى فإنه فى داخل إفريقيا الغربية كانت توجد دولة قومية كبيرة تعيش أيامها الأخيرة، فبعد وفاة «محمد أبو بكر تورى» الذى خلف «سونى على» بدأت هذه الدولة يغزوها المراكشيون والملك الأسود المسمى «منصور الثانى»، ومع استخدام المرتزقة الأوروپيين فقد أرسلوا جيشًا عبر الصحراء؛ ليغزو الدولة ويدمروها وقد نجحوا فى ذلك، ودمرت دولة سونغاى أكبر وآخر دولة قومية كبيرة فى غرب إفريقيا، واهتز بذلك الهيكل الإفريقى كله.. وبكلمات أخرى فإن تدمير آخر الدول القومية الكبرى فى غرب إفريقيا كان يعنى وجود وفرة من أسرى الحرب واللاجئين يمكن اصطيادهم وبيعهم بوصفهم رقيقًا».

وبالرغم من ذلك هناك شىء يجب أن يذكر لأنه حقيقى، فباستثناء النزيف الذى حدث للموارد الإفريقية وما صنعه تجار الرقيق العرب، فإن إفريقيا كان لديها من

القدرة ما يكفى ومن التنظيم ما يمكنها من منع التجارة الأوروبية للرقيق، وهذا يترك سؤلاً مهمّاً آخر بغير إجابة: لماذا إذن أقدم الإفريقيون من موريتانيا فى الغرب إلى موزمبيق فى الجنوب الشرقى على بيع الرقيق إلى الأوروبيين؟ هل أغراهم الأوروبيون بالبضائع والمشروبات الرخيصة؟

* * *

استمر البرتغاليون يكتشفون الساحل الإفريقى، وكانوا يشترون العبيد ويأخذونهم معهم إلى البرتغال، وعندما توفى هنرى الملاح فإن خلفاءه الابن فرنا وأخاه الملك أفونسو الخامس لم يكونا مهتمين بإفريقيا، و من ثمّ نقلا مسئولية الممتلكات البرتغالية فى إفريقيا إلى رجل الأعمال اللشبونى « فرناو جومز» مقابل أن يدفع ٢٠٠ ألف ريس Reis (عملة) كل عام للأسرة المالكة البرتغالية. وكان جزء من الصفقة أن يتعهد جومز بأن يستكشف كل عام ٣٠٠ ميل فى الطريق الساحلى فى إفريقيا.

يقول هيوتوماس: إن هذا المشروع غير العادى صار ناجحًا جدًا، بدأ من سيراليون وبتوجيهات من جومز فإن القباطنة أبحروا، حيث وجدوا ما عُرف بعد ذلك بـ«جرين كاست ـ Grain Caste» جنوب سيراليون وهى ليبيريا الآن، ثم أبحروا تجاه الشرق حيث ساحل العاج «كوت ديڤوار» ثم إلى الساحل الذى أسماه البرتغاليون «المينا» (وقد يكون لفظ المينا جاء من الميناء بالعربية أو يكون محرفًا للفظ أمينا وهو المنجم فى اللغة البرتغالية؛ لأنهم صاروا أخيراً على مقربة من مناجم الذهب التى فى غابة آكان أى ساحل الذهب، غانا حاليًا).

وقد غنمت البرتغال أموالاً كثيرة من بيع الرقيق أكثر من كل ما تجمعه من ضرائب على مستوى المملكة كلها، كان بيع الرقيق مربحًا لسبب بسيط وهو أن التجار حصلوا على الرقيق مقابل لا شىء، فمثلاً الأم وابنها كانا يباعان فى سيراليون ١٤٧٥م مقابل حوض للحلاقة وثلاث أساور من البرونز مثلاً.

وفى ١٤٨١م فإن الأمير جاوو الذى صار الملك جاوو الثانى أرسل «ديو جودى أزامبوزا» وهو موظف حكومى خبير سبق أن خدم الأسرة المالكة أرسله ليبنى قلعة فى المينا هى «ساوجورج دى مينا»، وهى أول وأكبر بناية أوروبية أقيمت فى المنطقة

الاستوائية، ويسجل هيوتوماس أن «أزامبوزا» ظهر على الشاطئ ومع مائة من البنائين والنجارين وكمية من الأخشاب والطوب والحجر، وبنيت القلعة وكان الغرض الأساسى من بنائها هو حماية البرتغاليين الأوروبيين من الأوروبيين الآخرين، وقد أقيمت القلعة فى مكان قريب من نهر الكوبرا ومن الطريق الذى يقود إلى مناجم الذهب فى غابات الآكان (غانا).

كانت «المينا» منشأة ملكية فلم يكن التجار الأفراد مسموحًا لهم الاقتراب منها وصارت تحكم ذاتيًا وتحت تصرف الحاكم البرتغالى، ويقال: إن «نانا كوامينا» ملكة منطقة «المينا» كانت غير موافقة على السماح للبرتغاليين ببناء القلعة فى هذا المكان ولكن أزامبوزا استخدم المكر والخداع الأوروبى للحصول على الموافقة.

وبعد ذلك أنشأ البرتغاليون عددًا آخر من الحاميات الأصغر فى شاما واكرا واكسيم، واستخدمت كلها فى حبس العبيد فيها إلى حين تصديرهم إلى الأمريكات.

وفى عام ١٤٨٦م أرسل البرتغاليون «جوا افونسو افييرو» لاستكشاف ساحل بنين، وعندما وصل إلى المدينة العظيمة «بنين» كان مندهشًا من جمالها ووجدها مثيرة للخيال كما يذكر هيوتوماس، وبعدها بسنوات عندما وصل الهولنديون إلى مدينة «بنين» وجدوها تسترعى الانتباه، وكتب أحدهم عند عودته إلى بلاده: «إن المدينة تبدو كبيرة جدًا وعندما تدخل إليها ستسير فى طريق عريض جدًا أعرض سبع أو ثمانى مرات من شارع وارموز فى أمستردام، إن قصر الملك هو تجمع من مبان تشغل فراغًا كبيرًا مثل هارلم ومحاط بالأسوار، وهناك وحدات متعددة لوزراء الأمير وللحاشية القريبة أغلبها فى ضخامة المبانى الحكومية فى أمستردام، وهى مدعمة بأعمدة من الخشب مغلفة بالنحاس نظيفة ولامعة، والمدينة تتكون من ٣٠ شارعًا رئيسيًا مستقيمة بعرض ١٢٠ قدمًا فضلاً عن شوارع جانبية غير محدودة، والمنازل قريبة بعضها من بعض ومنسقة بنظام طيب، إن هؤلاء الناس لا يمكن القول إنهم أقل من الهولنديين بالنسبة للنظافة، إنهم يغسلون وينظفون منازلهم كما تنظف عدسات النظارة اللامعة».

أقام البرتغاليون مراكز تجارية فى مملكة بنين وعلى ساحل غانا كان أهمها

أرجوين والمينا ، ثم نزلوا جنوبًا إلى سواحل الكونغو ، ثم وصلوا إلى أنجولا وأسسوا نقاطًا ساحلية مؤقتة سرعان ما تحولت إلى وجود دائم .

وفى شرق القارة أدت الرغبة لدى البرتغاليين فى وجود محطات فى الطريق إلى الهند ، إلى الاستيلاء على مراكز فى الساحل الشرقى لإفريقيا ، ودخلوا فى معارك مع العرب الذين كانوا يسيطرون على تلك المناطق ، ولم يأت عام ١٥٢٠م حتى كان البرتغاليون قد استولوا على كلوه وزنجبار وبمبا وممبسه ومالندى ومقديشيو ، ووصلوا موزمبيق عام ١٥٣٠م ، وأنشأوا حصونًا حربية ومراكز تجارية كان أهمها مركز سوفالا الذى كان ثغرًا عربيًا ومركزًا لسلطة عربية ظلت لألف سنة .

ثم توقفت الجهود الكشفية الاستعمارية البرتغالية فى شرق إفريقيا ؛ بسبب ظهور الأسطول التركى فى مياه الساحل الشرقى الإفريقى .

* * *

التورط الهولندى فى تجارة الرق

إن الهولنديين يعرفون كل شىء عن أبطالهم العاديين : أدميرال دى رويتر الذى أبحر إلى نهر التايمز ليلقن الإنجليز درسًا فى ١٦٦٧م، أبطال حرب الثمانين سنة ضد إسپانيا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وحديثًا أبطال المقاومة ضد الاحتلال النازى، وهناك البطل الأكبر لهم جميعًا «بت هاين»، وهو ضابط بحرى آخر فى القرن السابع عشر الذى فاجأ الأسطول الإسپانى فى هاڤانا (كوبا) واستولى على كل الفضة . . إن كل طفل هولندى ينمو وهو يغنى أغنية كُتبت عن بطولاته وأفعاله.

كل شىء يسجله التاريخ الهولندى ما عدا شأن واحد هو شأن الرق، وإنه ليدعو إلى الدهشة أن كتب التاريخ تصمت بالنسبة لهذا الأمر ولا تشير إلى أن «بت هاين» هذا الذى يحتفى به قاد حملة غير ناجحة فى ١٦٢٤م؛ للاستيلاء على لواندا فى أنجولا وانتزاعها من البرتغاليين بتعليمات من شركة الهند الغربية ومقرها أمستردام، ولا إلى أن سفن التجارة الهولندية كانت منذ القرن السادس عشر تجوب الموانى الإفريقية الغربية حيث تنشط تجارة الرق، ولا إلى أن جزيرة جورى التى كان يتجمع فيها الرقيق ظلت تحت سيطرة الهولنديين حتى باعوها للإنجليز ١٨٧٢م، ولا يعرف إلا القليل عن الصفقات التى أجراها الدبلوماسيون الهولنديون وبعثات التبشير والتجار مع قبائل الأشانتى والفانتى في غانا والباكونجو وغيرهم فى الكونغو وأنجولا.

إن التصوير الشهير فى القرن السابع عشر للوفد التجارى الهولندى الذى كان يسجد أمام الملك «الفادو» ملك الباكونجو (وهى الآن امبانزا فى الكونغو)، لا يحكى لنا إن كانت هناك مفاوضات تجرى لإقامة حلف ضد البرتغاليين وللإمداد

بالماء والطعام والعبيد للمستعمرة الهولندية فى لواندا (أنجولا)، وكانت مستعمرة قلقة وغير مستقرة.

المشروع الاستعمارى الوحيد فى إفريقيا التى وجدت كتب التاريخ الهولندى أنه يستحق الإشارة يتعلق بالكاب (فى جنوب إفريقيا)، وهو فى ذاته مصدر المأساة الكبرى التى أدى إلى التفرقة العنصرية.

شهدت هولندا سنوات مجد فعلى على مدى أربعة قرون، كانت السفن الهولندية تبحر من أمستردام وميدل برج وغيرهما وتمضى جيئة وذهاباً على طول شاطئ إفريقيا الغربى، كان غرضها التجارة. وثمّة أمْر آخر نادراً ما يذكر وهو تجارة الرقيق، وعندما تذكر هذه التجارة فى كتب التاريخ الهولندى تذكر كأنها شىء يفعله أناس آخرون.

فهم يقولون: إن هولندا تورطت فى تجارة الرق بالصدفة، وأن بعض السفن الإسپانية والبرتغالية التى استولى عليها الهولنديون كانت تحمل رقيقًا إفريقيين، وإنه فى أول مرة وصلت سفينة إلى ميدل برج تحمل هذه الشحنة البشرية العجيبة فإن الآباء الهولنديين لم يعرفوا كيف يتعاملون مع هؤلاء الإفريقيين فتركوهم أحراراً. ورغم أن هذا القول مشكوك فيه، وحتى لو كان قد حدث فإن كل ذلك تغير سريعًا عندما سيطر الهولنديون على برنامبوكو فى البرازيل فى ١٦٢٠م، وتحققوا من أنه لن تقوم مزارع هناك بغير الرقيق الإفريقى.

وكانت الطريقة الوحيدة لضمان الجدوى الاقتصادية لبرنامبوكو هى ممارسة هذه التجارة، وبالقوة إذا استلزم الأمر. وكانت أنجولا هى أكثر ما يمدهم بالعبيد، وبالذات الغزوات التى كانت تشن على لواندا.

يقول هيوتوماس فى كتابه الرائع الذى نشر ١٩٩٧ م بعنوان «تجارة الرق عبر الأطلنطى من ١٤٤٠م إلى ١٨٧٠م» يقول: «فى عام ١٦٤٠ م كان الوجود الهولندى دائمًا فى كل من إفريقيا والكاريبى، وكان الهولنديون فى هذه السنوات هم القوة العالمية المسيطرة، يتلون البرتغال فى كلا الجانبين من الأطلنطى، ولديهم حيازات لا حصر لها فى الشرق أيضًا»، ويضيف هيوتوماس قائلاً: «إن التجار الهولنديين فى الخمسينيات من القرن السابع عشر كانوا لا يزالون يسيطرون على

سوق الرقيق فى الهند الغربية، وإن وضعهم المميز هناك يعكس أهميتهم العالمية، لقد بقيت هولندا القوة الاقتصادية العالمية المسيطرة فى أوروبا الوسطى وفى البلطيق، وظلت تجارة العالم فى أيديهم حتى القرن الثامن عشر عندما انتقلت السيطرة إلى لندن، ومع ذلك بقيت أمستردام سوقًا لكل شىء تحت الشمس».

وقد ظلت تجارة الرق تمارس فى سرية فى مزارع السكر الهولندية فى البرازيل أولاً، ثم فى الكاريبى. وسورينام ظلت لا يُعرف عنها شىء ولا عن ظروف معيشة الرق فيها، فلم يسجل فى التاريخ الهولندى إلا مزارع القطن فى سورينام بأنها هى التى ساعدت فى الدفعة الأولى للثورة الصناعية فى بريطانيا.

وطبقًا لما يقوله عالم الاجتماع «جودى كحلا» وهو إفريقى أمضى سنوات عديدة يضطلع على الأرشيفات الهولندية: «هناك شىء آخر يكمن وراء عدم الاهتمام النسبى بذكر تجارة الرق، إنه يتعلق بعدم القدرة على التعامل مع الماضى، فالتاريخ لم يسمح قط للهولنديين أن يصنعوا الأمر المشرف ويلغوا هذه التجارة، عندما تحين لهم الفرصة، مثلما فعل الإنجليز. فعندما انهارت الجمهورية الهولندية فى نهاية القرن الثامن عشر احتل الفرنسيون هولندا لمدد قصيرة وسيطر الإنجليز على المستعمرات الهولندية، فى ذلك الوقت كان الفرنسيون والإنجليز إما ألغوا تجارة الرق، أو كانوا فى طريقهم إلى ذلك، لم تكن الأراضى الواطئة (هولندا) لديها قط الفرصة؛ لكى تحرر نفسها من هذا الماضى المشين، وقد صار الأمر أكثر صعوبة عندما يجرى الكلام عن الماضى».

إن الاحتجاجات ضد تجارة الرقيق بقيت غير معروفة حتى إن الشاعر الهولندى الكبير فى القرن السابع عشر «بريديرو» عارض هذه التجارة صائحًا هذه العادة غير الإنسانية وهذه النذالة لا تعرف الله، ولكن بقيت كلماته غريبة فى تلك الأيام.

ويقال: إن بعض الوزراء الإصلاحيين فى هولندا وجّهوا دعوة ضد هذه التجارة وضد الظروف القاسية للعمل فى المزارع، وأن كاتبًا مشهوراً فى القرن التاسع عشر هو نيكولاس بيتس كان ضمن المجموعة الصغيرة التى نادت بإلغاء الرق، وأن البرلمان الهولندى عرف بعض المستنيرين القلائل من أعضائه كانوا ضد التجارة، ولكن كما يقول كحلا: «لقد كنت فى الأرشيفات ونظرت فى أوراقها، إن الاحتجاجات ضد

تجارة الرق لم أجد دليلاً عليه»، ويضيف « فى أرشيف هولندا تجد الصراع التقليدى بين التاجر والوزير، بين الرغبة فى تحصيل المال والدعوة لمكارم الأخلاق، أما بالنسبة لما يحدث فى مستعمرات المناطق الاستوائية فلا توجد مشكلة أخلاقية فإن ما يجرى هناك يجرى على همج متوحشين!

وعندما اتجهت الأمم الأوروبية الأخرى إلى إلغاء هذه التجارة، كان السياسيون الهولنديون حينذاك أسرع فى الإشارة إلى أنه لا يزال هناك ما يمكن الحصول عليه من المال من إلغاء هذه التجارة، فكانت الضرائب التى يؤديها القرويون وكذلك بيع محاصيل البن والسكر هما ما كانا يدفعان ثمن حرية العبد فى سورينام، كان نوع من الاستغلال يمول نوعًا آخر من الاستغلال وهكذا انتهت العبودية».

ويعلن الكاتب المعروف «فرانك مارسينينوس اريون»: أن ملاك الرقيق قد عوضوا عن فقدهم لهذا العمل فى حين أن ضحايا التجارة لم يُقدم إليهم قرش واحد، فى التجارة فإن التاجر دائمًا يربح وهو فى أيام الآحاد يجد مقعده فى الكنيسة فى الصف الأول.

يقول كحلا: إن هذا التحويل للحياة البشرية إلى سلعة الذى صنعه الأجداد هو أمر مؤلم لمن يعيشون فى القرن الواحد والعشرين، وأكثر مما يحتمله ويطيقه المعاصرون، ولكن عندما تطرح هذه المسألة، فإن حالة من الدفاع عن النفس تثور مثل أن يقول لك أحدهم: آه.. نعم هو أمر فظيع، ولكن لا بد أن الآخرين كانوا أسوأ، وهذا ما يسميه الكاتب الهولندى المعاصر «أدريان ڤان ديس»: «الاتجاه نحو الإنكار».

وسواء كان هؤلاء أكثر سوءًا أم لم يكونوا فإن هذا أمر خارج الموضوع. الموضوع أنه فى وقت ما فى التاريخ، فإن هولندا وواحدة من شركاتها الأولى المتعددة الجنسية كانتا متورطتين فى هذا الصنيع غير الإنسانى، وهذا أمر يتفق الجميع عليه الآن.

* * *

فى بداية الألفية الثالثة ظهرت دراسة فى شكل كتاب بعنوان: «٤٥٠ سنة من التورط الهولندى فى تجارة الرق» أعدها ب. سى. إيمر، وتركزت الدراسة على الجانب الاقتصادى لهذه التجارة، وسرعان ما صارت مادة لمناقشات عامة.

يقول إيمر فى دراسته: إنه مما نعتبره عنصريًا الآن كانت الكنيسة وقتها تقبله، فمن الدلائل المتاحة الآن أن الرجال الهولنديين والنساء الهولنديات فى القرن السابع عشر كانوا يحتاجون لتبرير معنوى للقيام بهذه الأعمال، وكما يجرى فى قصص الكتاب المقدس أن الإفريقيين كانوا سودًا، ومن ثَمّ فهم لم يكونوا شيئًا آخر غير أنهم كانوا من سلالة «حام بن نوح» الذى سَخر من أبيه وهو سكران وعوقب بالعبودية الدائمة لتهجمه، وأن كل ما يأمله الإفريقيون هو أن يكونوا مسيحيين بواسطة المحسن الهولندى الذى جاء لينتشلهم من هذا القدر الفظيع. وثَمّة تبرير آخر يورده إيمر، أن الرق كان بركة لدى الإفريقيين فإذا هم لم يباعوا رقيقًا فمن المؤكد أنهم كانوا سيقتلون بواسطة من اقتنصوهم.

حظى كتاب إيمر باهتمام كبير خاصة بعدما عرض فى التليفزيون والإذاعة، وأخذ الجدل حوله اتجاهين متعارضين، أحد هذين الاتجاهين تبنته جماعات الأقليات وسلالة الرقيق، والآخر تبناه عموم الهولنديين. أدان ممثلو الاتجاه الأول أفكار إيمر لغروره الغربى، وعدم تفهمه لأوضاع الرقيق، وتركيزه على الجوانب الاقتصادية وحدها. وقد واجه إيمر ذلك بقوله: إنه كان يحاول أن يكون موضوعيًا وهذا ما آثار ذرية الرقيق، وأن الأمر الوحيد الذى يمكن أن يوافقهم عليه هو أن هناك احتياجات أكثر يجب أن تكتشف عما حدث فى هولندا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية على مدى ٤٥٠ عامًا. وانحاز ممثلو الاتجاه الثانى إلى إيمر، وتساءلوا: ما الهدف من التاريخ؟ هل هو الكتابة بصدق عما حدث فى الماضى أو أنه وسيلة فى أيدى من يدعون أن لهم حقًا فى التعويض عن أخطاء الماضى؟ وهل آلام الماضى يمكن أن تترجم إلى أموال نقدية الآن؟

هذه السخرية لم تمنع سلالة الرقيق الذى استقروا فى الأراضى الواطئة (هولندا) من أن يثيروا مسألة تجارة الرق بشكل جدى، وقام البعض بعمل مسرحيات تمثل، وآخرون خاضوا مبادرات سياسية وتحدثوا عن التعويضات، ولكن دائمًا يحبطهم عدم الرد من السلطات الهولندية هناك.

ويحاول بعض المثقفين الآن من سلالة الرقيق إحياء ذكرى مأساة أجدادهم

بإقامة نصب تذكارى فى أمستردام يذكّر بالدور الهولندى فى الرق. وقد قام تسعة من فنانى سورينام وغرب إفريقيا والجزر الهولندية وهولندا بوضع تصميمات خاصة بهذا النصب، وعرضت هذه النماذج فعلاً فى قاعة مدينة أمستردام، ودُعى الجمهور للمشاركة فى اختيار أحسن تصميم يمكن بناؤه فى ميدان فسيح متاخم للمؤسسة الاستوائية الملكية.

وثَمَّة اقتراح بأن يكون الاحتفال فى يوم أول يوليو من كل عام لأن هذا اليوم من الأيام الوطنية الذى يحتفل به الهولنديون بانتهاء الاحتلال النازى لهولندا ١٩٤٥م. وفى أول يوليو أيضًا ١٨٦٧م ألغت الحكومة الهولندية الرق فى مستعمراتها، ويُعرف هذا التقويم فى سورينام «بكيتى كوتى» بمعنى: «السلاسل تنكسر». وفى الحقيقة هناك بالفعل احتفال يجرى كل عام فى ميدان سورينام ولكن الحضور فيه قليل. أو أن يكون يوم ١٧ أغسطس وهو يوم بدء ثورة العبيد التى حدثت فى كاراكاو عام ١٧٩٥م، وهذا يمكن أن يكون تذكاراً آخر يضم إلى التقويم الوطنى الهولندى.

الاستعمار الألمانى و« الكتاب الأزرق »

لا يوجد استعمار شرير واستعمار طيب، أو استعمار قاس واستعمار متسامح، فالاستعمار هو الاستعمار، بطش وإذلال وإبادة وسحق للأهالى الوطنيين. ولكن عندما يدون تاريخ الاستعمار فى إفريقيا، فإن الاستعمار الألمانى يصنف أنه أبشع وأقسى أنواع الاستعمار، وإن شعب جنوب غرب إفريقيا، الذى يطلق على دولته حاليًا اسم ناميبيا[1] بعد استقلالها، لم يقاس من التعذيب والبطش فحسب، بل وقعت عليه عملية الإبادة المنظمة الأولى فى القرن العشرين. وإن الحرب المأساوية التى شنها المستعمرون الألمان على شعب الهيريرو خلال عامى ١٩٠٤م و١٩٠٨م لم يكن الهدف منها إخضاع الأهالى فقط، بل إبادتهم إبادة كاملة. لقد أدت ثورتهم التى عرفت بانتفاضة الهيريرو ضد الحكم الألمانى إلى حرب مريرة استمرت أربع سنوات، عاش بعدها من بقى من الهيريرو محطمًا، وكان انتقام ألمانيا من هؤلاء الرعايا الذين تجرءوا على تحديها انتقامًا وحشيًا، وصار الهيريرو الذين كانوا يبلغون ٨٠ ألفًا من الرجال الأشداء لا يزيد عددهم عن ١٥ ألفًا من البشر المشردين.

---

(١) تبلغ مساحة إقليم جنوب غرب إفريقيا، الأقليم الذى يدور حوله هذا الموضوع عن «الكتاب الأزرق» ثلثى دولة جنوب إفريقيا، وأكبر من مجموع مساحتى فرنسا وبريطانيا معًا. وهو إقليم مستوى السطح، تحيط به الصحراء، وسكانه يتكونون من عدة قبائل أهمها وأكبرها عددًا قبيلتا الهيريرو والهوتنتوت، وهما من أكثر الشعوب الإفريقية أناقة فى الشكل، ذوو أطراف طويلة وقامات منتصبة ووجوه بيضاوية وجباه عالية وأنوف كأنوف النسر، هادئون ذوو رشاقة وكبرياء، يثيرون الإعجاب بوقارهم وقاماتهم. وهم مهرة كرسوا حياتهم لتربية الماشية، وكانت ثروتهم من الماشية حديث كل من رأى هذه القطعان فى القرن التاسع عشر. ولكن كانت القبليتان الهيريرو والهوتنتوت على عداء دائم، وعمل كل منهما على تجريد الآخر من أرضه وقطعان ماشيته.

والعجيب أنه لا يوجد الآن من يذكّر بهذه الحرب، ولا يوجد فى تلك البلاد نصب قومى يذكّر بأسماء أى من رجال شعب الهيريرو أو شعب ناما من يطلق عليهم بالهوتنتوت الذين كانوا الضحايا الأساسيين فى الحرب، أو يشار إلى معسكرات الاعتقال التى مات فيها الآلاف.

وعلى العكس فإن أسماء كل من أصيب من الألمان فى هذه الحرب سُجلت وحُفرت على حوائط الكنائس وفى الطريق إلى مجلس الدولة والبرلمان الألمانيين، وبقى الأدب المنشور محدوداً فى وقائع الألمان فى الحرب.

حتى الكتاب الأزرق الذى نعرضه والذى كشف عن عمليات الإبادة هذه، أمر بتدميره وحرقه بعد ثمانى سنوات من صدوره، بحجة أنه لا يدين العنصر الألمانى وحده، بل إنه يدين كل الجنس الأبيض المستعمر. وكانت الحكومة البريطانية قد أعدت هذا الكتاب اللعين وأمرت بنشره عام ١٩١٨م، وتعبير الكتاب الأزرق كان يستخدم فى تلك الأيام للإشارة إلى أى تقرير ينشره ويوزعه البرلمان البريطانى. والعنوان الكامل للكتاب هو «اتحاد جنوب إفريقيا - تقرير عن أهالى جنوب غرب إفريقيا وتعامل الألمان معهم»، أعد التقرير مكتب مدير جنوب غرب إفريقيا فى وندهوك (التى أصبحت فيما بعد عاصمة البلاد)، ونشر فى المملكة المتحدة بواسطة الناشر الرسمى للحكومة البريطانية (مكتب مطبوعات جلالة الملك)، وقدم الكتاب إلى مجلس البرلمان فى لندن فى أغسطس ١٩١٨م. ولكن بعد ثمانى سنوات فى عام ١٩٢٦م أمرت حكومة جلالة الملك وحلفاؤها فى جنوب إفريقيا بالتدمير الكامل لهذا الكتاب بعد أن أعيد الاعتبار لألمانيا من جانب الحلفاء عقب الحرب العالمية الأولى، وصار الكتاب مصدر إزعاج لألمانيا وللجنس الأبيض برمته؛ لما يصور به الأوروبيين من كونهم مغتصبين شديدى القسوة.

يدور الكتاب الأزرق حول الفظائع التى ارتكبت، **وهو يشير إلى أمر الإبادة الذى أصدرته الإدارة الألمانية الذى كان يحتم قتل كل رجل وكل امرأة وكل طفل من الهيريرو.** والكتاب يثير الإنسان إلى حد الغثيان بما حواه من أوصاف تفصيلية وصور فوتوغرافية وقتل المساجين من الجرحى وغير الجرحى ومن الرجال والنساء والأطفال الصغار، وحتى من استسلم منهم وهم فى الرمق الأخير، كان الجند

وملاحظو العمال فى المعسكرات يضربونهم بالسياط حتى الموت جزاء لهم على مقاومتهم، ومن استطاعوا الهرب من يد الجنود الألمان أبادتهم الصحراء؛ إذ إن من نجى من أبناء القبيلة هاموا فى أنحاء البلاد وهلكوا من الجوع والعطش، وذلك بعد أن فقدوا أرضهم وقطعانهم وحريتهم وحياتهم العائلية، كما تمزقت وحدتهم القبلية.

ولكن برغم حرص المستعمرين على إفناء الكتاب، فقد نجت بعض النسخ، وقد استطاعت المجلة الإفريقية المتخصصة «نيو أفريكان-New African» أن تحصل أخيراً على إحدى النسخ النادرة من الكتاب؛ فأفسحت له صفحاتها لنشر مقتطفات منه. وكشفت عن أسباب تأليف الكتاب ونشره، وعهدت إلى «جيرمى سلفتر» الأستاذ بقسم التاريخ بجامعة ناميبيا بتقديمه، فكتب ورقة ممتازة بعنوان: «سياسات المصالحة: إعدام الكتاب الأزرق»، وقد أضافت لى هذه الورقة الكثير فى بحثى هذا عن الاستعمار الألمانى.

ولا يسعنى إلا أن أقدم كل الشكر لمجلة «نيو أفريكان» التى اهتمت بالبحث عن هذا الكتاب الذى لم يرد الغرب أن نقرأه، ونشرت عنه فأضاءت لنا جانبًا خفيًا معتمًا حدث لشعب إفريقى كُتب عليه أن يُباد.

* * *

فى بداية الرّبع الأخير من القرن التاسع عشر نزل إلى ساحل إفريقيا الجنوبية الغربية تاجر ألمانى يدعى« لودريتز- Luderitz»، وكتب إلى وزارة الخارجية الألمانية يسأل: عما إذا كان لديها استعداد لحماية محطات التجارة التى اقترح تأسيسها على ساحل إفريقيا الغربى الجنوبى؟ فكتب بسمارك إلى بريطانيا يسألها بدوره: عما إذا كانت هناك ادعاءات بريطانية على منطقة ما هناك؟ فأجيب عليه: أن مستعمرة الرأس (جنوب إفريقيا) هى صاحبة الأمر.

استقر لودرتز فعلاً فى المنطقة، وتملك عن طريق المعاهدات ما يقرب من ٢١٥ ميلاً مربعًا بجوار خليج انجرا ورفع عليها العلم الألمانى، وذلك فى مايو ١٨٨٣م. وفى شهر أغسطس رغبت الحكومة الألمانية أن تضع هذه المنطقة تحت حمايتها، ولم تمانع حكومة بريطانيا أو حكومة الرأس(١)، فأعلنت ألمانيا فى ٢٨ أبريل عام

---

(١) كانت حكومة جنوب إفريقيا البريطانية تسمى وقتها حكومة الرأس. . .

١٨٨٤م وضع هذه الأجزاء تحت الحماية الألمانية واعترفت حكومتا انجلترا والرأس بالأمر وأعلن هذا رسميًا فى ٧ أغسطس، وهى تشمل المنطقة بين كونين ونهر الأورنج باستثناء المراكز البريطانية على خليج «ولفش– Walfish».

ولما هُزمت ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) استولت عصبة الأمم على المستعمرات الألمانية وعهدت بإدارتها إلى الدول المنتصرة وحلفائها، فمنحت إقليم جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا) إلى اتحاد جنوب إفريقيا الذى ضمه إلى أراضيه.

كان من مصلحة الإدارة البريطانية وحلفائها الحاكمين لجنوب إفريقيا أن يظهروا سوءات ما فعله الاستعمار الألمانى بشعب ناميبيا؛ ليبرروا وجودهم ويشوهوا صورة ألمانيا المنهزمة ويزيدوا من كراهيتها؛ ولهذا صدر الكتاب الأزرق الذى يعتمد فى مادته على أقوال ٤٧ شاهداً على أحداث إبادة شعب ذلك الإقليم. ولكن بعد أن استنفد الكتاب غرضه السياسى ووجه نقداً لاذعًا لمرحلة الاستعمار الألمانى فى ناميبيا، صدرت الأوامر فى عام ١٩٢٦م بتدمير كل نسخ الكتاب، وذلك فى نطاق سياسة المصالحة الدولية بعد الحرب العالمية الأولى، ورغبة فى دمج السكان البيض المتكلمين الألمانية فى ناميبيا فى المشروع الاستعمارى الجديد الذى تشرف عليه حكومة جنوب إفريقيا البريطانية.

جامع الكتاب هو الميچور «توماس ليزلى أوريلى» الذى عُين فى ٢٢ أغسطس ١٩١٦م حاكمًا عسكريًا لإقليم «أمارورو–Omaruru» فى جنوب غرب إفريقيا، فنشط فى جمع مادته وأعد مسودته فى نهاية ١٩١٧م.

المنظر الأول فى الكتاب الذى يواجهه القارئ ويشكل النغمة الرئيسية لباقى أجزاء الكتاب، هو صورة لستة قتلى ناميبيين معلقين على أشجار، ويحيط بهذه الجثث عدد من الجنود الألمان.

يبلغ عدد صفحات الكتاب ٢١٢ صفحة وينقسم قسمين:

القسم الأول: يشمل ١٥٠ صفحة، تحتوى على ١٥ فصلاً كتبها أوريلى بعنوان: «الأهالى والإدارة الألمانية».

والقسم الثانى: يشمل ٤٩ صفحة بعنوان: «الأهالى وقانون العقوبات» ، وهو من إعداد أ. ج. ووترز الذى خدم باعتباره مفتشًا عن التاج البريطانى فى ناميبيا فى أكتوبر ١٩١٥م.

والصفحات الأخيرة من الكتاب الأزرق تمثل ملحقًا يتضمن مجموعة المستندات، الأول منها تقرير طبى عن الوسائل الألمانية فى العقاب، وهو مختصر وتصحبه إحدى عشرة صورة فوتوغرافية لعمليات الإعدام البشعة والنماذج المختلفة للسلاسل التى كانت توضع فى الرقاب، والقيود التى قيدت بها الأرجل والسواعد، وصور ظهور النساء المسلوخة، وصور الهيريرو اللاجئين الذين عادوا من الصحراء وهم يموتون جوعًا.

والملحقان التاليان يتضمنان مستندات كتبت بالألمانية، الأول منها هو خطاب أرسله الحاكم الألمانى إلى عماله وضباطه فى الإقليم التابع له، والخطابات التالية أرسلها الموظفون الألمان وتتعلق بالشكاوى عن المعاملة السيئة التى يمارسها المواطنون البيض على السكان الأهالى السود فى مدينة «أودشخت» والإقليم المحيط بها.

إن الدور الذى قام به «أوريلى» فى الكتاب هو جمعه لشهادات شهود كانوا يعيشون فى إقليم أمارورو.

ويبدو أن التقرير كله أعدَّ فى أقل من ١٢ شهرًا باعتبار أن المبادرة الأساسية لهذه الوثيقة قد أنجزت فى مارس ١٩١٧م، فى حين أن الإضافة النهائية للتقرير وهى المقدمة التى كتبها چورچس الحاكم الإدارى الأول فى جنوب غرب إفريقيا مؤرخة فى ١٨ يناير ١٩١٨م.

وكان «أوريلى» قد عُين عام ١٩١٦م عضوًا فى المحكمة الجنائية الخاصة التى مارست عملها كمحكمة عليا فى الإقليم خلال فترة الأحكام العسكرية من سنة ١٩١٥م إلى ١٩٢٠م. والملاحظ أن القسم الثانى من الكتاب الأزرق يتكون فى عمومه من تعليقات على القضايا التى سمعتها هذه المحكمة مع إضافات عن المرحلة الألمانية ، وأن ٨٥ حالة من الحالات التى أشار إليها ووترز فى القسم الثانى من الكتاب، قد استمعت إليها المحكمة الجنائية الخاصة التى كان «أوريلى» عضوا بها.

ويبدو أن «أوريلى» قد ترك هذا العمل وغادر جنوب غرب إفريقيا بعد إتمام عمله فى الكتاب بقليل.

النقاش حول مصداقية وقائع الكتاب

بعد استقلال ناميبيا بدأ الكتاب الأزرق يصير بؤرة للنقاش الأكاديمى، وقد ظهر هذا النص الخبىء من بين ظلال الأرشيفات. هوجم الكتاب فى مقال نشرته عام ١٩٩٥م الراحلة «برجيت لاو» بعنوان: «المؤكدات غير الأكيدة فى حرب الهيريرو ١٩٠٤م» وفيه نقدت البحث الذى قام به المؤرخ هوست دريشلار، ونشر فى عام ١٩٨٠م بعنوان: «دعنا نموت مقاتلين» ذكرت فيه أن الألمان اتبعوا سياسة القتل الجماعى ضد شعب الهيريرو، وقد وصفت «لاو» هذا الزعم بأنه غير حقيقى وغير صادق.

يقول «هوست دريشلار»: إن الكتاب الأزرق لم تدمره فقط الإدارة الاستعمارية لجنوب إفريقيا ١٩٢٦م، ولكنه أيضًا أنكره المؤلفون الألمان إنكاراً مقصوداً؛ لأن الكتاب يقدم صورة صادقة عن الأحداث التى جرت فى حرب ١٩٠٤-١٩٠٨م وخلالها أبيد نحو ٦٥ ألفًا من الهيريرو. ويعترف دريشلار بأن ثَمَّةَ ضعفًا فى النص فيقول: «إن الفصول الأولى تحتوى على عدد من الأخطاء الواقعية، وأكثر من هذا فإن اللهجة العامة للعمل تكشف اتجاهًا لتصوير السياسة الاستعمارية البريطانية على نحو مثالى، إلا أن الكتاب يعتبر مصدراً أوليًا مهمًا للشهادة».

أما «لاو» فقد اتخذت موقفًا معاديًا جدًا للكتاب الأزرق، ووصفته بأنه منشور دعاية إنجليزى ضد الألمان، وأكدت أنه كان هناك محض حرب دعاية ليس لها أى مصداقية. وفضلاً عن ذلك فهى تدعى أن توزيع الكتاب جرى من اتحاد جنوب إفريقيا وموظفيه، متجاهلين أن إعدام الكتاب هو جزء من السياسة الدولية فى هذا الوقت.

أثار مقال «لاو» جدلاً واسعًا حول مصداقية القتل الجماعى، حتى إن عدداً من الأكاديميين قبلوا التحدى الذى أثارته فى نقدها لدريشلار ومصداقية الكتاب

الأزرق. وعن الفصل الرئيسى عن انتفاضة الهيريرو الذى قدم دريشلار فيه ١٤٠ ملحوظة تتعلق بمصادر شهادته.

وفى الاستجابة المباشرة لملاحظات «لاو» فقد صدرت دراسة تحمل عنوان: «نحو الفداء - التاريخ السياسى والاجتماعى لشعب الهيريرو فى ناميبيا بين عامى ١٨٩٠م، و ١٩٢٣م» ذكرت الدراسة أن الجزء الأكبر من الشهادة التى تضمنها الكتاب الأزرق هى ترجمة من النصوص الألمانية التى نشرت فى ذلك الوقت، والتى كانت سجلت ما أثبتته لجنة تقصى الحقائق الألمانية حول آثار العقاب البدنى. ويؤكد مؤلفو الكتاب على المدى الذى جمعوا فيه الشهادات الشفهية ممن عايشوا حرب ناميبيا من ١٩٠٤م - ١٩٠٨م وتعرضوا للتفاصيل المحزنة والمرعبة التى تلت ذلك، وهى وإن كان لا يتصورها الخيال فقد رويت عن شهود رأوها رأى العين.

وأكثر من هذا فإن «أوريلى» يدعى أن هذه القصص جمعت باعتبارها أقوالاً ذكرها طواعية من كانوا يعيشون من الرؤساء والقادة البارزين للقبائل المعنية، وأن الشهادات الشفهية لشهود ناميبيا بعد الحرب بقيت منسية فى حين أن الأقوال المكتوبة للقوات الألمانية صارت تتكرر ويُعاد إنتاجها كل حين.

***

. الرد الرسمى الألمانى

فى ١٩١٩م بعد عام من نشر الكتاب الأزرق، نشر المكتب الاستعمارى الألمانى رداً رسمياً بعنوان: «معاملة الأهالى والشعوب الأخرى فى الممتلكات الاستعمارية لألمانيا وانجلترا»، ردّ على الكتاب الأزرق الإنجليزى الصادر فى أغسطس ١٩١٨م وشكك فى الشهادات الواردة فى الكتاب التى صدرت من أهالى هم فى نظره مخلوقات بدائية فقيرة، ليس لديهم أى فهم لمعنى اليمين الذى يحلفه الشاهد ولا للشهادات التى تسجل.

ويذكر الرد الألمانى أن الأسود غير المتعلم ليس لديه أى تمييز ولا يدرك الفرق بين الحقيقة والخيال، ومن ثمّ فإن الواحدة والخمسين شهادة الواردة فى الكتاب قصص

من نسج الخيال، وإن هؤلاء الذين يألفون السيكولوچية الإفريقية يعرفون كيف أن الأهالى يحبون أن يمزجوا خيالاتهم بقصص الكوارث، وكيف أنهم يبتكرون ذلك بشكل غير طبيعى، فى حين أنه لا يكون هناك أى أساس لهذه الخيالات.

إن التقرير الألمانى المضاد يدعى أنه عندما يستدعى الأهالى للشهادة فإن خيالاً منطلقًا دائمًا ما يشوه رؤيتهم للحقيقة، وعلى عكس هذه النغمة العالية للاتهامات الفارغة فإن جزءاً مهمًا من الدفاع الألمانى يعتمد على أن الجنود الألمان امتنعوا عن تنفيذ أوامر الچنرال الألمانى ڤون تروثا الخاصة بإبادة الهيريرو، ولكن لسوء الحظ فإن الجنود فعلوا ذلك فى صمت.

ويثير المكتب الاستعمارى الألمانى الانتباه إلى ما يعتبره واحدة من أقوى حجتين ضد مصداقية الكتاب الأزرق وحقيقته، أولها أن قليلاً من البيض هم من شهدوا على هذه الأمور، وأن محاولة التحليل والنقد هذه اعتمدت فى الأساس على لون البشرة الخاص بمن سُجلت أقوالهم فى الكتاب الأزرق.

وطبقا لما يذكره المكتب الاستعمارى فإن الشهادات التى قدمها الكتاب الأزرق يجب ألا تؤخذ بجدية؛ لأنها لا تعتمد سوى شهادة واحدة لرجل أبيض.

وآخر مسمار فى نعش مصداقية الكتاب طبقًا للمكتب الاستعمارى الألمانى هو أن هذا الرجل الأبيض الوحيد يظهر أنه ليس أوروبيًا، ولكنه من رأس الرجاء الصالح أى أنه من جنوب إفريقيا ودمه دم ملون وخليط.

وفى غياب تاريخ مسجل يُعْتَمَد عليه، فإن المؤلفين الإنجليز للكتاب الأزرق متهمون بارتكاب خطأ، باعتبار أن المعلومات التى أتوا بها من الأهالى هى معلومات غير أمينة، ولا تمثل الحقائق الواقعة؛ لأن الأهالى يكذبون.

والنقد الثانى الذى يثيره الألمان بالنسبة للكتاب الأزرق أنه كتب كأداة فعّالة يستخدمها الوفد البريطانى فى المفاوضات التى جرت فى نهاية الحرب العالمية الأولى.

وإن جدول الأعمال البريطانى طبقًا لما يقوله الألمان هو محاولة إفقاد الثقة فى ألمانيا بحسبانها دولة استعمارية؛ لتأكيد أن المستعمرات الألمانية السابقة يتعين أن تبتلعها الإمبراطورية البريطانية. وبكلمات المكتب الاستعمارى الألمانى فإن الكتاب الأزرق هو مسخ خفى للحقيقة وتصدير كاريكاتيرى.

من الواضح أن الشهادات التى تضمنها الكتاب الأزرق لعبت دوراً مهمّا خلال مناقشات ڤرساى (مؤتمر السلام ١٩١٩م)[1] عن مستقبل المستعمرات الألمانية، وكان الحاكم السابق لشرق إفريقيا الألمانية المسمى «هنريك شنى» يستخدم هذه الحجة بقوة، زاعمًا أن الأساس الذى بُنى عليه الكتاب الأزرق جاء بعد تشكيل اللجنة الخاصة فى مارس ١٩١٧م التى أعدت المادة المطلوبة للوفد البريطانى فى مؤتمر السلام بڤرساى. وذكر أن هذه اللجنة هى التى حركت الهجوم ضد الإدارة الاستعمارية الألمانية، كما ذكر «شنى» فى كتيب صغير أصدره قبل ذلك بعنوان: «كيف استولى على المستعمرات الألمانية؟» زعم فيه أن الكتاب الأزرق وضع فى إطار المنافسة الاستعمارية القائمة. وعندما فرضت معاهدة ڤرساى على ألمانيا، فإن سوء الإدارة المزعوم لمستعمراتها استخدم كذريعة لتهدئة الشكوك حول الاتهامات، ولتبرير أن انجلترا لم تذهب إلى الحرب للسيطرة على مزيد من الأرض. وذكر «شنى» أيضًا أن رئيس الوزراء البريطانى «لويد چورچ» فى ١٤ يناير ١٩١٩م استخدم المثل الخاص بناميبيا فى مفاوضات ڤرساى للقول بأن ألمانيا لا تستحق أن تكون قوة استعمارية؛ لأنها فى جنوب غرب إفريقيا كانت تتبع سياسة مخططة للتفرقة العنصرية!!

حرب الكلمات

فى يونيو ١٩١٨م قبل أن يقدم الكتاب الأزرق إلى البرلمان البريطانى فى أغسطس بوقت قصير، أرسل «چورچس» الحاكم الإدارى البريطانى الأول لجنوب غرب إفريقيا إلى كل المبعوثين العسكريين فى ناميبيا: «لتبذلوا جهدكم لقمع أى محاولات تتعلق بسوء المعاملة للأهالى؛ لأن البريطانيين يجب أن يكون لهم سجل نظيف فى هذا الشأن.. وهذا أمر جوهرى إذا كنا نريد أن نستخدم سوء المعاملة الألمانى مع الأهالى باعتباره سببًا فى استبقاء هذا البلد».

وبعد ذلك كتب «چورچس» فى تقرير رسمى حُرر بعد توقيع معاهدة ڤرساى «لقد استخدم الكتاب الأزرق فى پاريس استخدامًا كبيراً، وهو الكتاب الذى

(١) وهو المؤتمر الذى انعقد لإعادة تقسيم العالم بين الدول المنتصرة فى الحرب.

جمعت مادته بناءً على التعليمات التى أصدرتها، وهو يتناول سوء معاملة الألمان لقبائل الهيريرو والقبائل الأخرى فى هذا البلد. وقد أعلنت بوضوح أنه ينبغى الاهتمام بهذه الشعوب المتخلفة فاقدة الأمل، وأن يكون ذلك واجبًا أساسيًا لعصبة الأمم، وأن رعاية هذه الشعوب يجب أن تعطى لدولة أظهرت قدرتها على اتباع الضمير فى هذا الشأن»!!

من الواضح أن الكتاب الأزرق كان فى حقيقته أداة استخدمت لتجريد ألمانيا من أى أمل فى استبقاء إمبراطوريتها الإفريقية فى المباحثات الخاصة لتسوية السلام بعد الحرب. وفى الحقيقة أن الحديث عن الكتاب الأزرق فى سياق حرب الدعاية التى نشأت حول المسألة الاستعمارية، يفسر لماذا سهل على البريطانيين الموافقة على استبعاد الكتاب الأزرق من أرفف المكتبات فى العالم بعد أقل من عقد واحد من السنين بعد أن أنتج المطلوب منه سياسيًا.

كانت المناقشة حول الإثم الاستعمارى الألمانى تستخدم لدى كتّاب الدعاية البريطانيين على نطاق واسع. وكان «إيڤان لوين» واحدًا من كتّاب الدعاية الكبار الذين كتبوا عن الاستعمار الألمانى. وفى كتيب أصدره ١٩١٥م بعنوان: «الألمان فى إفريقيا: أهدافهم فى القارة السوداء وكيف غنموا مستعمراتهم الإفريقية؟» كتب يقول: «إن هناك تفسيرًا عنصريًا لنجاح الاستعماريين البريطانيين ولفشل الاستعماريين الألمان، ويرجع ذلك فى رأيه إلى أن البريطانيين على خلاف الألمان يحوزون على صلاحية الفهم والقياس الصحيح لشعور الأهالى، ومن ثَمّ فهم قادرون على تقدير قوة المشاعر الأهلية، والألمان من ناحية أخرى يفتقدون الخصائص السيكولوچية الموجودة لدى الأنجلوساكسون؛ لذلك فشلوا كلما اتصلوا بالمشاعر الأهلية التى لم يستطيعوا أبدا فهمها».

وفى كتاب آخر أصدره «إيفان لوين» ١٩١٨م بعنوان: «الحكم الألمانى بإفريقيا» وهى نفس السنة التى نشر فيها الكتاب الأزرق، ذكر لوين بوضوح أنه يعتقد أن هناك أجناسًا خاضعة تعتبر أطفال العالم مثل «أهالى إفريقيا سواء اعتبروا عنصرًا اقتصاديًا أو كائنات بشرية هم فى الحقيقة أطفال ولديهم عيوبهم، ولكن فى حالاتهم الفطرية مع عيوبهم الخفية التى نتجت عن الفساد والحضارة الحسية يمكن أن يتشكلوا ويكونوا كالعجينة فى يد المثّال».

إن هذا التصور للشعوب الإفريقية هو تصور مشترك بالنسبة للقوى الاستعمارية، وقد يكون مثله الواضح فى المادة ٢٢ من ميثاق الأمم المتحدة ذاتها الذى يعرّف الشعب فى بعض المستعمرات السابقة لألمانيا مثل ناميبيا، باعتبارهم «شعوبًا ليست قادرة بعد على أن تقف بنفسها تحت الظروف الضاغطة الصلبة للعالم الحديث».

* * *

الكتاب يجب أن يعدم

بعد أن أدى الكتاب الأزرق هدفه السياسى فى تدمير سمعة ألمانيا، تيقظ المستعمرون إلى أن نشر هذا الكتاب يعتبر خطأ كبيرًا ليس ضد ألمانيا فقط، بل ضد الجنس الأبيض فى عمومه فقرروا إعدامه.

وفى ٢٩ يوليو ١٩٢٦م صدر قرار من أعضاء الجمعية التشريعية بتدمير الكتاب، وكتبت صحيفة «وندهوك آدڤيرتيزر» فى افتتاحية عددها الصادر فى ٣١ يوليو «إن القرار لم يكتف بتدمير كل نسخ الكتاب الأزرق، ولكن طالب الحكومة البريطانية وحكومة جنوب إفريقيا بأن تحذف أية إشارة عن الكتاب تكون وردت ضمن وثائقها الرسمية»، أى أنه يتعين نسيان هذه المسألة تمامًا، ولعل ذلك يفسر لماذا لم يوجد أى أثر لهذه الأوراق فى الأرشيفات البريطانية، ولماذا اختفى الصندوقان المليئان بالمستندات الخاصة بالميجور «أوريلى» واضع الكتاب.

وفى الحقيقة أن تدمير الكتاب الأزرق يجب أن يُنظر إليه فى سياق الأشكال الدولية وروح المصالحة التى حلّت فى منتصف العشرينيات من القرن العشرين.

ومن الناحية الدولية فإن التأييد البريطانى لتدمير الكتاب الأزرق، يجب أن ينظر إليه مرتبطًا بحركات التعاون مع ألمانيا فى عصبة الأمم.

وفى داخل ناميبيا، فإن حملة إعدام الكتاب يمكن أن ينظر إليها، كنتيجة للجهود التى كانت تُبذل وقتها لدعم الوحدة داخل جماعة المستوطنين البيض من ذوى الأصول القومية الأوروبية المتباينة؛ وذلك ليكونوا قوة سياسية اجتماعية ذات مصالح داخل ناميبيا. وقد ذكر «هنريك شنى» الحاكم الألمانى السابق لشرق إفريقيا فى كتابه ١٩٢٦م أنه يجب إزالة الوهم الخاص بإثم الاستعمار قائلاً: «نحن الألمان ندين لأنفسنا ولأطفالنا ولوضعنا بين الأمم بأن هذه الانطباعات التى يبوء بها شرفنا

يجب أن ندحضها أمام العالم، نحن ندين بذلك من أجل مستقبل جنسنا؛ وذلك حتى ينجلى الطريق لعودة ألمانيا إلى صفوف الأمم المستعمرة».

وفى ١٩٢٦م قُبلت ألمانيا فى عصبة الأمم وضمنت مقعداً دائمًا فى مجلس العصبة (وهى ميزة تقارن بالعضوية الدائمة فى مجلس الأمن اليوم).

وفى حين أن الجهود بُذلت لتطوير سياسة المصالحة الدولية من خلال عصبة الأمم، فإن شكلاً من أشكال التصالح الاستعمارى أخذ ينطرح داخل ناميبيا نفسها، خاصة بعد أن ظهرت رغبة قوية لدى الشعب الأسود بأن يستعيد أرضه والملكية التى فقدها تحت الحكم الألمانى، فاتبع ساسة جنوب إفريقيا الذين سيطروا على الإقليم استراتيچية تشجيع الاستيطان الأبيض السريع فى ناميبيا وتطوير الهياكل السياسية به، للمساعدة على إيجاد وحدة داخل جماعة المستوطنين البيض.

وشهد عام ١٩٢٦م حملة الانتخابات الأولى فى ناميبيا التى جرت بين البيض، وفى خطبة من خطب الحملة الانتخابية التى قام بها مستر «چوستى» رئيس الحزب الوطنى هناك، أيد التعاون بين كل فصائل الجماعات البيض وحث أصحاب المزارع على أنه يجب أن يعملوا معًا سواء كانوا ألمانًا أو هولنديين أو إنجليزاً.

إن المدى الذى بلغته هذه الحملة فى عملية المصالحة كان ظاهراً أيضًا فى حديث المدير الجديد مستر «ويرث -Werth» الذى وصل ناميبيا خلال الحملة الانتخابية. وطبقًا لما جاء فى الصحف، فقد ذكر ويرث أنه متنبه إلى أن جنوب غرب إفريقيا تحتاج إلى مستوطنين مثل البوير، وأن الواجب الأول على الإدارة هو جلب العدد الكافى منهم لهذه البلاد. ومن المعلوم أن البوير(١) هم مستوطنون ممتازون، ولذلك فسيحاول أن يجلب أكثر ما يستطيع منهم من اتحاد جنوب إفريقيا. ومن جهة أخرى

---

(١) مع تزايد عدد المستعمرين فى جنوب إفريقيا تزايداً طبيعيًا خلال القرن الثامن عشر، أخذ كثير منهم فى البحث عن رزقه بالاشتغال بالتجارة والصيد مع الهوتنتوت سكان البلاد الأصليين، الذين تبادلوا معهم ما ينتجونه بالماشية، وبمرور الوقت صار هؤلاء المستعمرون زراعًا مُرَبّين للماشية وأطلق عليهم اسم «البوير الرحل ـTrek Boer» وكانوا رواداً أشداء سلخوا أنفسهم من تيار النمو الأوروبى ووطنوا أنفسهم على الملاءمة مع الحياة القاسية، وعزموا على كسب قوتهم من رعى الحيوان، ودخلوا بذلك منافسة مع السكان الأصليين، وهم فلاحون مربون للماشية مثلهم تمامًا، وفى النهاية أطلق أبناؤهم على أنفسهم لقب الإفريقيين أو الأفريكانر، وهم يختلفون عن غيرهم من الإفريقيين بنزعتهم الفردية الشهيرة وبشعورهم بالتميز والتعالى.

فهو يرحب بالمهاجرين من شمال أوروبا الذى أثبت التاريخ أنهم أحسن مستعمرين أتوا من هذا الجزء من أوروبا.

وبكلمات أخرى فإن المستوطنين الألمان كانوا يشجعون فى ذلك الوقت لكى يهاجروا إلى ناميبيا، وأن الادعاء الذى ذكره الكتاب الأزرق من أن المهاجر الألمانى غير قادر بالمرة على أن يكون مناسبا باعتباره مستعمراً ، هذا الادعاء قد أغفل ونسى، بل إن الحجة العكسية صارت هى المرفوعة وهى أن التاريخ قد أثبت أن الألمان هم فى الواقع أحسن المستعمرين، وأن الصحف المحلية صارت تتكلم عن الوطنية المحلية وعن الجنود الألمان، وكل ذلك ولد من رماد الكتاب الأزرق.

وفى يوليو ١٩٢٦م صوتت الجمعية التشريعية على أن اللغة الألمانية يجب أن تكون اللغة الرسمية فى ناميبيا. وهذا القرار يفسر لماذا بقى عدد من الهيئات التى شيدت قبل الاستقلال فى ١٩٩٠ م تحتوى على نصوص مكتوبة باللغات الثلاث الأفريكانز والإنجليزية والألمانية.

* * *

مقدمة الكتاب الأزرق

يبدأ الكتاب الأزرق بمقدمة كتبها فى عام ١٩١٨ الحاكم البريطانى لجنوب غرب إفريقيا «چورچس- E.H. Gorges» تحدث فيها عن أجناس أهالى البلاد وتاريخهم ومعاملاتهم قبل تسرب الأوروپيين إليهم حتى خضعوا للسيطرة الألمانية. وأعطى ملامح مختصرة عن الأساليب التى دخل بها النفوذ الألمانى والوسائل التى اتبعها الألمان لغرس سيطرتهم على الإقليم، والكوارث التى ارتكبوها التى أدت إلى دعم هذا النفوذ وإلحاقه الرسمى بألمانيا.

وبالطبع عندما يكتب حاكم بريطانى فهو يكتب من وجهة النظر البريطانية ولصالح الاستعمار البريطانى؛ وعندما يقارن بين الاستعمار الألمانى والاستعمار البريطانى يصف الأول بالقسوة والعنف ويصف ذاته بالرحمة والحنكة، ويقارن بين وحشية الأول ونبل الثانى، وهدفه من ذلك اقتلاع جذور الاستعمار الألمانى وتثبيت الوجود البريطانى؛ لذلك علينا أن نأخذ كلامه بتحفظ فكلاهما كاذب غشوم،

والحقيقة الأكيدة هى أن شعب هذا الإقليم شهد ظلمًا فادحًا على يد البيض، سواء كانوا ألمانًا أو بريطانيين.

وهذا نص المقدمة التى كتبها الحاكم البريطانى «چورچس» وتصدرت الكتاب: «فى عام ١٩٠٥م شن المستعمرون الألمان حرب إبادة على قبيلة الهيريرو[1]، ولم يكن هناك ذرة عطف على شعب الهيريرو البائس، ولا الاعتراف بأن لهم أية حقوق، أو أن لهم قيمة فى المشروع الاقتصادى لهذه المستعمرة، حتى الأغنام والماشية أبادها الألمان وشاركت أصحابها فى هذا المصير، ورغم أن أعين المستوطنين البيض نظرت إلى قطعان الماشية الخاصة بالأهالى بطمع شديد، فقد ضُحى بها ولاقت مصير ملاكها فى وجه أعمى للحاكم الألمانى «ڤون تروثا -Von Trotha».

لقد كان الوقت المتاح قصيرًا لجمع المادة اللازمة لهذا التقرير وللموازنة بينها وتحقيقها. ولكن بالرغم من ذلك فإن حجمًا ضخمًا من البيانات قد وجد بما يحوى من براهين غير قابلة للدحض عن الأعمال غير المناسبة التى أدخلتها ألمانيا فى خطتها لاستعمار هذا الاقليم، وعدم المبالاة التى تعمدت بها إنكار الحقوق المؤمنة للأهالى الموجودين هناك، وأعمال القسوة التى فرضتها على هذه الشعوب عندما صار العبء باهظًا جدًا وحاولوا أن يؤكدوا حقوقهم.

كان هدف هذا التقرير هو إظهار الملامح الرئيسية فى شكل مبسط ممكن استيعابه، وأعتقد أنه يوجد هنا ما يكفى لكى لا يبقى شك عن الإجراءات المرعبة التى اتبعت من الإدارة الاستعمارية الألمانية، سواء اتبعت تحت أوامر حكومة برلين أو بعلم منها، أو اتبعها أفراد من الألمان استوطنوا واستقروا فى هذه البلاد، أو ما

---

(١) تصنف دائرة المعارف البريطانية الهيريرو أو أوڤاهيريرو بأنهم شعب مرح من شعوب جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا)، يحيون فى إقليم يعرف باسم دامارا لاند أو هيريرولاند، أى أرض الدامارا أو أرض الهيريرو، وهم يسمون أنفسهم «أوڤاهيريرو». عملهم الأساسى رعى الماشية، وهم جنس مقاتل، ويتمتعون بمهارات عسكرية ظهرت فى ثورتهم ضد الألمان ١٩٠٤-١٩٠٨م.

وقد أرسل الهيريرو أثناء ثورتهم إلى أهالى الساحل الشرقى لإفريقيا الخاضع للسيطرة الألمانية أن ينهضوا للثورة مثلهم فى غرب إفريقيا ضد الألمان، وبناء على نداءاتهم وتحريضهم انتشرت الثورة فى مناطق شاسعة جدًا من الغرب إلى الشرق، وكان هذا الصنيع مثلاً من أمثلة التضامن المتنامى بين الشعوب الإفريقية فى الزمن البعيد.

شعر به الأهالى البائسون تحت أحداث القسوة والنهب التى خضعوا لها بشكل منظم.

وإنه سيظهر أنه بالنسبة للأهالى لم يكن يوجد قانون فى الواقع الفعلى خلال ١٧ سنة الأولى بعد الإلحاق الرسمى لهذه البلاد بألمانيا ١٨٩٠م، وأن الحماية التى يتعين أن يكفلها القانون لم يكن مصدرها البواعث الإنسانية، ولكن لأنها جاءت فى الوقت المناسب؛ بسبب الإدراك بأن الأهالى هم عنصر مفيد فى هذه البلاد، وأنه بغير قوة عملهم كان يستحيل رعى الماشية فى المناطق الشاسعة من البلاد المناسبة لذلك كما يستحيل التنقيب عن النحاس والماس فى المناجم.

فى القسم الأول من الكتاب ثَمَّة مسح سريع لتاريخ هذا البلد منذ التسرب الأول للأوروبيين إليه، وقد ذكرت الوسائل التى اتبعتها ألمانيا لتأسيس سيطرتها، وأظهرت الكوارث التى ارتكبت مع الأهالى.

وفى الباب الخامس عشر أشير إلى كيف أن الكاتب الألمانى «روربخ - Rohrbach» فى سياق حديثه عن إبادة قبيلة الهيريرو ١٩٠٥م، أشار بأسى إلى الماشية والأغنام المملوكة للهيريرو التى أبيدت وشاركت أصحابها الأهالى فى هذا المصير، ولم يكن هناك كلمة واحدة من العطف على شعب الهيريرو البائس أو الاعتراف بأن لهم قيمة فى المشروع الاقتصادى لهذه المستعمرة.

وعلى أية حال فإن الإنسان يستطيع أن يقتنع أن المستعمرين الألمان أو نسبة منهم بعد أن شبعوا من منظر الدم البشرى الذى أريق عامى ١٩٠٤، و١٩٠٥م، صاروا أكثر قلقًا على مستقبل العمالة الإفريقية وأكثر حرصًا على الوجود الحى للأهالى لاستخدامهم فى إخراج الثروات الإفريقية، وظهر ذلك لهم بعد إبادة الهيريرو، ومن ثَمَّ فقد استخدموا نفوذهم الذى يملكونه لوقف عمليات الذبح المجنون للبشر التى كانت قائمة.

إن الذين بقوا من الأحياء من الأهالى صاروا عبيدًا ووزعوا على المزارع عمالاً زراعيين، حرروا من رعب التدمير المنظم، ولكنهم صاروا كأفراد خاضعين للعقوبات القاسية التى تقضى بها المحاكم وعساكر البوليس، ولمبدأ العقوبات الإقطاعية الذى يفرضه النظام الألمانى ويملكه كل صاحب مزرعة على خدمه.

إن الحدود الخاصة بهذا النظام العقابى الإقطاعى قد صورت فى الجزء الثانى من الباب الثانى من الكتاب خلال وقائع إحدى الدعاوى القليلة التى نظرت أمام المحاكم الألمانية فى هذا الشأن، وكذلك فى الصور الفوتوغرافية التى وردت فى هذا الباب. وفى هذه الدعوى شخّص رئيس القضاة فى محكمة الاستئناف الألمانية هذه الأفعال التى يمارسها صاحب المزرعة الأبيض ، باعتبارها من بقايا الأفعال السيئة لأيام العبودية، وقد خفض الحكم الذى كانت حكمت به المحكمة الأدنى بالحبس ٢١ شهراً فى سبع حالات منفصلة وصفت بأنها من أعمال القسوة ذات الطبيعة المرعبة، خفضت إلى حكم بالسجن أربعة أشهر وغرامة ٧٠٠ مارك، وإن اثنتين من الضحايا وهما من النساء ماتتا بعد ذلك بقليل، وإذا نظر فى الصورة الفوتوغرافية فإن المرء يعجب كيف لم تموتا أثناء الجلد.

القليل المعروف

إنه من الملاحظ أن كثيراً من العناصر الإنجليزية هنا لم تعرف إلا القليل عن هذا الأمر؛ لأن ألمانيا أبقت هذا البلد دائمًا بعيداً ومغلقًا بقدر ما تستطيع، وكان الأشخاص المنتمون لجنسيات أجنبية لا يساعدون ولا يشجعون على الاستقرار فى هذه البلاد.

وعندما ارتكب الأسوأ من هذه الأفعال وهو مذبحة الهيريرو، لم تكن حقول الماس الكائنة فى لدرازنجت قد اكتشفت بعد، وأن الشعب الأجنبى الذى انجذب لهذه السواحل عند فتح هذه الحقول لم يكن وُجد بعدُ. وقليل من المستوطنين فى اتحاد جنوب إفريقيا فى ذلك الوقت يتذكرون تلك الأيام وأغلبهم لا يتذكرونها البتة.

إن الحقوق فى هذه المسألة بين الأطراف المتعارضة لم تكن مفهومة، ولم يضيّع الألمان أية فرصة هنا أو فى المستعمرات المجاورة لإظهار الأهالى فى أسوأ صورة، ولو كانت عرفت هذه الحقائق كما هى معروفة الآن بفحص دقيق للبينات الموثقة ولشهادات الأحياء التى تؤكدها، فقد كان ثمة احتجاج يوجه إلى ألمانيا من القوى الأخرى. ومن المعروف أن الجرائم التى ارتكبت تسربت أخبارها من ألمانيا عام ١٩٠٥م؛ ونتيجة لذلك فإن القوانين والاتفاقيات الخاصة بالأهالى وحقوقهم

أذيعت ونُشرت، ولكن الحالات التي حصل فيها الأهالى على حقوقهم المقررة لهم بموَجب هذه القوانين وجدت وإن كان عددها قليلاً جداً.

إن السلطة التي خولت للموظفين الصغار جلد الأهالى وتقييدهم بالسلاسل، بلغت أقصاها من الناحية العملية، فكان لكل عضو فى قوة البوليس تطبيقها حتى فى حالات المخالفات التافهة بناءً على شكوى السادة، ومن المعروف أن حالات عديدة من الاغتصاب قد ارتكبت ضد نساء الأهالى ومعظمها لم يضبط أو ترك بغير عقاب.

وقد ترك الأهالى فى حالة من حالات الخوف الدائم، ولم يجدوا فرصة للإفلات من هذا الشعور، ولم يكونوا يجرءون على الذهاب إلى الشرطة بشكاواهم، وكانوا يجردونهم من ماشيتهم ومن أراضيهم كما حدث فى انتفاضة ١٩٠٤م، وكان القانون يمنعهم من حيازة مخزون كبير ويجردهم من الاحتفاظ بوسائل عيشهم، وكانوا يجبرون على قبول العمل بأجر غير ملائم بالمرة وكثيراً ما كان لا يؤدى، وكان السادة ينظرون إلى الخدم الأهالى باعتبارهم عبيداً مجردين من أية حقوق ويتعرضون للجلد، وكان الخدم ينظرون إلى السادة الألمان، باعتبارهم أعداء لا مهرب منهم.

كان هذا هو الوضع الذى وجدته فى يوليو ١٩١٥ م عندما عهدت إلىّ مهمة انتظام الأعمال فى هذه المحمية، وقمت بتأمين وتأسيس علاقات أحسن بين البيض والسود وهو ما كان مطلوباً. إن كل الأحكام السيئة فى القوانين الألمانية التى تخص الأهالى راجعتها واستبدلت بها القوانين والأعراف المعمول بها فى اتحاد جنوب إفريقيا.

وجدت أن الرغبة فى توقيع العقوبات البدنية القاسية على الخدم من الأهالى قد استبقاها بشكل قوى ملاك المزارع الألمان، ورغم أنها قد قلت نتيجة للأحكام الصادرة من محاكمنا فإن الحالات التى كانت تحدث بصراحة كانت كثيرة جداً.

وبسبب اتساع رقعة هذه البلاد وانتشار المزارع وبعثرتها وسوء معاملة الأهالى فإن الرعب قد سيطر عليهم، ومن ثم لا يستطيعون أن يتقدموا بشكاواهم؛ لذلك فثمة حالات كثيرة لا تصل إلى المحاكم.

إن الأهالى الآن وقد تحرروا من القمع الذى عانوا منه ٢٥ سنة قبل سيطرتنا على

هذه البلاد ، وبطريقتهم البسيطة فى التفكير لم يستطيعوا أن يفهموا لماذا بعد هزيمة الألمان لم نأخذ منهم أراضيهم ، وسبب هذا الكثير من الصعوبات للإدارة .

إن الأهالى بعد المعاملة السيئة التى خضعوا لها من أرباب عملهم السابقين صارت أعداد كبيرة منهم رافضين قبول العمل وغير متحمسين له ، وصار الأمر يحتاج إلى كثير من الصبر لتعليمهم ضرورة أن يعملوا لكى يحيوا ، وأن الحريات التى يتمتعون بها الآن تحملهم بالتزامات عليهم ، وأنه فى حين أن موظفين يقدمون الحماية لهم جميعًا ويساعدون كل عامل لضمان حسن معاملته وحصوله على الأجر المناسب ، فإن عليهم أن يقدموا العمل بشكل حقيقى .

وإن الأحكام التى استسلمت لها القوات الألمانية فى جنوب غرب إفريقيا فى يوليو ١٩١٥م ، تذكر الأهالى المدنيين واحتياطى الجيش بأنه يتعين أن يسمح لهم باسترداد أعمالهم الطبيعية ، وظهر فوراً على طول المحمية طلب قوى على العمالة المحلية .

إن السياسة المحلية الجارية الآن تعتمد أساسًا على ما جرى فى الترانسفال (فى جنوب إفريقيا) ، وطبقًا لها ومن أجل تقليل حالات التشرد والجرائم بين الأهالى ، كان يجب النظر إلى كل من هو قادر جسمانيًا من الأهالى أن يكون له عمل ما .

لقد كان هناك ميل قوى فى حالات كثيرة لإعادة الارتباط بالسادة السابقين ، ولكن الرفض كان واضحًا .

إن معرفة أننا لا نقبل إساءة معاملة الأهالى وأن محاكمنا لا تفرق عندما يرتكب عدوان ما بين الأبيض والأسود ، هذه المعرفة انتشرت بالتدريج ، وقد صاحبها حقيقة أن الأحكام العقابية الشديدة قد فرضت على الأوروبيين بين حين وآخر فى حالة عدوانهم على الأهالى ، وعندما ظهر ذلك فى الضوء وضح للأهالى أن الحالة صارت أحسن من سابقتها ، رغم أنه لايزال هناك قصور فى العمل الذى يرجى أن يكون كاملاً من الأهالى الموجودين .

إن شركات التنقيب عن الماس فى لدرإتزبخت من ١٩٠٨ - ١٩١٤ م استوردت آلاف العمال الملونين من رأس الرجاء الصالح بنفقة باهظة وبأجور عالية ؛ لأن المحمية لم تكن قادرة على أن تمدهم بالعمل الكافى من داخل الحدود . **ثم إنه بعد مرور عدد قليل من السنوات ضُحى بقسوة بحياة نحو ٩٠ ألفًا من الأهالى .**

ولا داعى للقول إن السياسة الأهلية الحالية معترض عليها بشدة من المستوطنين الألمان فى هذا البلد، ويقال بصراحة ووضوح عن المزارعين الألمان: إن بقاءنا المستمر فى هذا البلد يمكن أن يكون محتملاً إذا تغيرت سياستنا الأهلية إلى ما يلائم آراءهم. إنهم يعترضون بشدة على أية قيود تُفرض على حقهم فى ممارسة العقاب حيثما يشاءون، وبعد مرور بضعة شهور من وجودنا فإن طلبات عديدة كانت تأتى تباعًا من الألمان؛ ليستردوا أسلحتهم النارية التى سلموها من قبل بحجة الدفاع عن أنفسهم فى مواجهة الأهالى.

وفى نوفمبر ١٩١٥م نجد أن شائعات محذرة أطلقها الألمان حول أن ثمة انتفاضة يقوم بها الأهالى وأن حياة أى أوروبى لم تعد آمنة، وكنا نحاط بمشاعر التوتر من كل جانب لتأمين حماية الناس. وقد أظهرت الأبحاث الموثوق بها أنه لا يوجد ظل من الحقيقة فى هذه التقارير، وإنى استطيع القول إن هذه القصص قد نشرت عن عمد لإجبارى على إعادة الأسلحة النارية لمن أخذت منهم؛ وذلك ليهددوا بها خدمهم من الأهالى.

وفى المحاكم الصغيرة عرضت قضايا لا يقل عددها عن ٣١٠ قضية عن سوء معاملة الخدم الأهالى من جانب سادتهم، وقد قضى فيها بتوقيع العقاب منذ إنشاء هذه المحاكم فى ٢٠ سبتمبر ١٨١٥م.

إيذاء نساء الأهالى

ثمة سمة أخرى هى محل اعتراض شديد فى النسيج الاجتماعى للمحمية، تظهر أن الألمان كان لديهم علاقات فاسقة بين الرجال الأوروبيين من العساكر والجنود والشرطة وغيرهم، وبين النساء المحليات، بصرف النظر عن اعتراضات تتعلق بممارسات تجرى بين هؤلاء النساء وأقاربهم من الذكور.

إنه مع تدمير نظام القبيلة بعد أحداث ١٩٠٤ـ١٩٠٥م، وتوزيع ما بقى على قيد الحياة من الأهالى، بوصفهم عمالاً لدى المستوطنين الأوروبيين، أجبرت النساء بأعداد كبيرة على أن يصرن محظيات للأوروبيين، مع النتيجة الحتمية لذلك وهى أن الأهالى صاروا يشعرون بالازدراء لسادتهم الذين صمموا على استبقاء مراكزهم بسياسة القسوة والعنف البالغ.

وإن الألمانى فى جنوب غرب إفريقيا باعتباره مستعمراً قد فشل بشكل عام فى أنه

لم يظهر أبدًا استعدادًا لكى يتعلم ويتفهم وجهة نظر الأهالى، ويتعرف على الأفكار والعادات والتقاليد الخاصة بالشعب.

وعندما وصل الألمانى إلى هنا وجد الأهالى أغنياء وأنهم كثيرون، وبدا أن غرضه الوحيد- بقدر ما يكون قويًا - أن ينتهز كل فرصة ممكنة ،ويستغل بساطة هؤلاء الناس ليستغلهم تمامًا.

وعندما تبين له أن هذه العملية لم تتم بالسرعة اللازمة بدأ عمليات القتل والتدمير؛ مما أنتج الكوارث التى نراها حولنا الآن.

إن ذلك، غريب عما هو فى رأس الرجاء الصالح ومستعمرة «ناتال» فى مستعمرة جنوب إفريقيا. فإن المستوطنين الألمان أثبتوا جدارتهم، وفى كل أحداث السنوات الماضية أثبتوا قدرتهم على التلاؤم والنجاح بوصفهم مستعمرين؛ لعل السبب فى ذلك نجده فى حقيقة أن فى هذه الممتلكات البريطانية وجد المهاجر الألمانى نظامًا محددًا واضحًا ومفهومًا يجرى بين الأوروبيين وبين السكان الأصليين البدائيين.

ولكن الألمانى باعتباره رائدًا فى هذه الأراضى الهمجية، وبدون التأثير والنصيحة اللذين يقدمهما أناس من جنسيات أخرى لديهم خبرات استعمارية طويلة، بغير ذلك فقد أثبت بنفسه فى كل وقائع جنوب غرب إفريقيا أنه غير قادر وغير مناسب على الإطلاق.

الأرض

إن الأرض هنا، عندما تقرر استعمارها بالشكل الأكثر ربحية، وبعد أن وزعت البعثات والشركات والتجار فيما بينهم الحصص المنتقاة، بعد كل ذلك أعطيت الأرض والجزء الأكبر مما بقى للجنود الذين عبّروا عن رغبتهم فى الاستيطان هنا، وقد كانوا رجالاً غلاظ الأكباد، وعندما أطلق سراحهم من المؤسسة العسكرية التى دربوا فيها، فقد حملوا معهم إلى ممتلكاتهم الجديدة وسائلهم العسكرية وأفكارهم العدوانية تجاه الأهالى الذين كانوا يحكمونهم أثناء وجودهم بالخدمة العسكرية.

وإن الشرطة أيضًا جلبت من الظروف نفسها ومن التنظيمات نفسها بغير اختلاف، وإذا كان هناك اختلاف فهو الأسوأ؛ لأنهم اختيروا فى الأساس من أكثر عناصر الجيش اتصالاً بالقسوة.

وبعد ذلك فعندما انتهى هذا العمل ظن الجهاز الوظيفى فى برلين فى نفسه أنه إزاء أرستقراطية استعمارية ألمانية، وقد قيل محليًا : إن القيصر كان لديه اهتمام شخصى بهذه المسألة، وأنه بفضل نفوذه وُجد هذا العدد الضخم من الأشخاص ليستوطنوا فى أحسن المناطق فى هذه المحمية.

وإذا صدّق الإنسان القصص التى كانت تروج بين الأقل حظًا من الجالية الألمانية حول إخوانهم الأكثر تميزاً، فلم يكن بين هؤلاء المتميزين أى نسبة محترمة من الأشخاص الحائزين على الأوسمة والنياشين.

الحاكم ليتوين

إنه من المثير للاهتمام قراءة ما ذكره «ليتوين-Leutwein» (وكان حاكمًا بهذا الإقليم إحدى عشرة سنة) حول محاولة ألمانيا إنشاء المستعمرة. ففى الكتاب الذى نشره بعد استدعائه لألمانيا أشار إلى بدايات السياسة الألمانية المعتمدة فى محاولة تطويع السكان الأصليين حسب مصيرهم، يقول :

لقد ساعدت فعليًا فى تقرير هذه السياسة التى نُفذت بإجماع إزاء السكان الأصليين ؛ وذلك لسبب يرجع على الأقل إلى الحرب مع ويت بووى التى فتحت عينى فى البداية الأولى للنشاط الاستعمارى، فيما يتعلق بالصعوبات التى ظهرت عند قمع الانتفاضات الأهلية فى جنوب غرب إفريقيا.

ومنذ ذلك الوقت فقد استخدمت أكثر مساعى لجعل القبائل الأهلية تخدم هدفنا، وأن نوقع الواحدة منهم ضد الأخرى. وحتى السياسة المغايرة لذلك كانت تبدو أكثر صعوبة، ولكنها تكون أيضًا خادمة لأهدافنا وللتأثير على الأهالى ؛ لكى يقتل بعضهم الآخر، وهذا أنفع من أن نتوقع تدفق الماء والدماء من بلدنا الأم لقمعهم. إن هذه السياسة ثبت استحالة تنفيذها بغير عوائق، ولكن ذلك أخف وطأة علينا من ألا تتبع أصلاً.

وفى هذا المجال مما يلفت النظر تتبع الإمبراطورية البريطانية فى العالم، إن إحصاء السكان فى الإمبراطورية البريطانية ١٩٠١م والنتائج التى نشرت قبل الآن بقليل يكشفان عن أن قرابة ٤٠٠ مليون خاضع لملك انجلترا منهم ٥٤ مليونًا فقط من

البيض بنسبة ٥ , ١٣ ٪ ، وهذا العدد هو أقل من عدد المحكومين البيض فى الإمبراطورية الألمانية. وإنه مما يستحق الدراسة هو كيف أمكن لـ ٥٤ مليونًا فقط من البيض من الإمبراطورية البريطانية أن يسيطروا على ٣٥٠ مليونًا من الأهالى. ويبدو مستحيلاً أن هذا ممكن أن يتم بواسطة ما تفرضه الشرطة من قوة وقمع. إن الافتراض الوحيد الباقى هو أن البريطانيين فهموا أكثر منا كيف يجذبون الأهالى للاهتمام بالقضية البريطانية ويجعلونهم خاضعين لهم.

ويبدو أنهم طبقوا نظمًا مختلفة تمامًا طبقًا لطريقتهم فى استعمار الأقاليم وسكانها، ونحن نعرف مثلاً أن مستعمرة رأس الرجاء وهو البلد الذى حدث فيه عدد من الهبات الأهلية وقمعت، وأثار ذلك من الصعوبات مثلما أثير عندنا فى جنوب غرب إفريقيا، ولكنهم كانوا يعتبرون الأهالى مواطنين كاملى المواطنة. فعندما لا تنفذ قبيلة من قبائل الأهالى القوانين والنظام مثل «كوراناس-Korannas» فإن البريطانيين يدمرون هذه القبيلة بقواتهم المسلحة، ولكنهم لا يفعلون ذلك بغير مساعدة القبائل الأهلية الأخرى، وقد تخلصوا من مشاكسة قبائل «الهوتنتوت-Hottentot» بواسطة الهجرة إلى محمياتنا. وفى باسوتولاند حيث تستقر قبيلة ذات طابع عسكرى فى بلد جبلى، فإن الإنجليز يكتفون بالحكم الاسمى حتى يمنعوا أى قلاقل، وهم بذلك لا يجيزون هجرة البيض إلى هذا البلد.

فى الحقيقة أن كل ذلك يتطلب فهمًا خاصًا للعادات والتقاليد الخاصة بالأهالى إذا كان الجنس الأبيض يعمل على أن يبقى سيدًا فى بيته الخاص تحت ظروف متنوعة كما يحدث فى الإمبراطورية البريطانية.

وما لم تفهم أمة هذا الفهم، فعليها أن تترك الاستعمار جانبًا؛ لأنها لن تستطيع أن تتذوق طعم البهجة هناك.

ويوجب الإنصاف علىّ أن أقول إن ثمة استثناءات ملحوظة على القاعدة العامة التى رأيناها هنا، إن هناك من الرجال الذين تحلوا بالاهتمام الذكى الجاد فى سلوكهم وفى اهتماماتهم برخاء الأهالى وتعاملوا مع الأهالى بشكل معقول، ولكن عدد هؤلاء طبقًا للمعلومات التى لدىّ يعتبر قليلاً نسبيًا. وإنه من الصعب أن يستأصل الأثر السيئ للمغامرين الذين سيطروا على سياسة هذا البلد فى الأيام الأولى لتأسيس النفوذ الألمانى.

ويوجد فى هذا التقرير الكفاية لإقناع من يلتزمون الشك حول عدم ملاءمة الألمان للسيطرة على الأهالى، وكذلك لكى نظهر لهم ما يمكن أن يتوقع إذا كان هؤلاء الأهالى البؤساء فى هذا القسم من إفريقيا قد أعيدوا من جديد إلى النظام السابق.

ومن أجل آلامهم ومن أجل نصيبهم فى إذاعة المعلومات التى جمعت هنا، فإن هؤلاء الذين أشير إلى أسمائهم وإلى زملائهم سيكونون أناسًا مستهدفين؛ وذلك إن لم يكونوا قد صاروا كذلك فعلاً، وأن إزاحتهم ستصير مسألة وقت فقط.

إن الرأى المحلى هنا هو بالإجماع ضد أى فكرة للعودة تحت رحمة الألمان، وإن أى اقتراح باحتمال فعل من هذا النوع من جانب بريطانيا العظمى سيقابل بأقصى اعتراض.

وقبل الانتهاء من الملاحظات الواردة فى هذه المقدمة، فإنى أرغب فى التعبير عن التزامى تجاه من جمعوا هذه المادة والإشارة إليهم، فإن مخطط الجزء الأول هو الميجور« ت. ل. أوريلى- T.L.Oreilly» المدعى أمام المحكمة العليا بجنوب إفريقيا وإقليم الترانسفال والحاكم لمحميه الأمارورو. إن الميجور أوريلى كان يمارس عمله الرسمى هنا خلال السنوات الثلاث الماضية، وهو على علم بهذا البلد وسكانه.

والقسم الثانى أعده مستر «ووترز- A.J. Waters» المدعى فى هذه المحمية الذى أقام هنا منذ أكتوبر ١٩١٥م.

إن كُلاً منهما أنجز المهام الموكلة إليه باهتمام بالغ، وفى الخطوط التى رغبا فى أن تسير فيها، ومارسا الإشراف العام على العمل، وإن أية قيمة لهذا التقرير إنما ترجع إليهما.

إمضاء

المدير

E.H. Gorges

مقر الحكم وندهوك جنوب غرب إفريقيا فى ١٩ يناير ١٩١٨م

* * *

بعد المقدمة التى كتبها «چورچس» الحاكم البريطانى الإدارى لمستعمرة جنوب غرب إفريقيا، هذه بعض المقتطفات من فصول الكتاب التى تشير إلى كيف بدأ الاستعمار الألمانى، وكيف كان يسوس الأهالى، وهى السياسة التى أدت إلى ثورة الهيريرو وإبادتهم فى المستعمرة الألمانية.

كان التجار وبعثات التبشير دائمًا يمثلون الطلائع المتقدمة فى تمهيد الطريق للنفوذ الألمانى للإلحاق والحكم. ونمة كلمة من الكلمات المأثورة للأمير بسمارك وهى «**إن المبشر والتاجر يجب أن يسبقا الجندى**». وفى هذا النظام كانت جنوب غرب إفريقيا نموذجًا فريدًا.

فى عام ١٨١٤م أرسلت الحكومة البريطانية فى رأس الرجاء الصالح «ڤون شميلن-Von Schemelen»، وهو مبشر ألمانى ليقوم بأعمال التبشير بين الهوتنتوت الذين يعيشون عبر نهر أورانج فى ناماكوالاند الكبرى. واستقر «ڤون شميلن» فى«بيثانى-Bethany» ثم بعد ذلك ارتبط بالهوتنتوت تحت قيادة «چاچر أفريكانر-Jager Af ricane» وسار معهم إلى الشمال. جعل ڤون شميلن من چاچر أفريكانر أركان حرب فى جنوب دامارالاند، وسميت القرية التى أقام فيها باسمه «رجا شميلن» على شرفه، واتخذ فتاة من الهوتنتوت زوجة له، وصار عضواً ذا نفوذ فى القبيلة.

وبعد أن استقر ڤون شميلن بشكل أكيد، يبدو أنه نسى كل شىء يتعلق بالحكومة البريطانية فى رأس الرجاء (الكاب)، ووضع نفسه فى اتصال مباشر مع برلين. وكانت تقاريره عن البلاد وأهاليها تصل ألمانيا الحين بعد الحين، ونتج عنها انجذاب بعثات التبشير الألمانية إلى جنوب غرب إفريقيا.

وفى عام ١٨٤٠م بدأت جمعية تبشير«رينش-Rhenish» فى برلين تهتم بشكل رسمى بهذا الحقل الجديد من حقول العمل التبشيرى والاستثمارى.

وفى عام ١٨٦٧م توطدت مراكز تبشير مزدهرة فى ناماكوالاند الكبرى ودامارالاند (أرض قبائل الهيريرو والهوتنتوت).

وكان على أفراد هذه الإرساليات أن يؤمنوا حاجاتهم لأنفسهم ولعائلاتهم، ولم

يكونوا يستطيعون ذلك إلا بالمزج بين النشاط الدينى ونشاط الأعمال. وطبقًا لذلك وجد أنه من الضرورى إنشاء محال مرتبطة ومتصلة لكل مراكز التبشير؛ لينفقوا من أرباحها على أنفسهم، وكان الأهالى الإفريقيون يحصلون على السلع والملابس والسلاح والذخيرة والحلوى، بمبادلة ذلك كله بقطعان الماشية والأغنام ومنتجات الحقول.

هذا المزج بين أعمال التجارة والنشاط التبشيرى، قدر أن يكون له أفعل النتائج الروحية بالنسبة للأهالى البسطاء، وكان التقدم بطيئا، ومضى نحو ثلاثين عامًا من التبشير ومن التجارة قبل أن يتحول إلى ديانتهم أول هيريرو، وهى سيدة عجوز هجرت عبادة أسلافها وقبلت أن تعمد بالمسيحية.

وعندما توسع العمل التبشيرى للإرساليات بتأسيس مراكز جديدة للبعثات التبشيرية، استتبع ذلك كنتيجة طبيعية أن المنجزات فى المجال التجارى قد توسعت هى الأخرى وبذات النسبة، وفى الحقيقة فإن حجم المكاسب الدنيوية قد اتسع أكثر كثيرًا من الناتج الدينى لهذا النشاط.

وفى ذات الستينيات من القرن التاسع عشر بعد عشر سنين أو اثنتى عشرة سنة من بدء نشاط بعثة رينش، كسر الاحتكار بدخول تجارة الماشية من مستعمرة الكاب من الجنوب. وهؤلاء الوافدون الجدد لم يكن لديهم محال محددة، وكانوا يمرون على الأهالى بالعربات التى تجرها الثيران ويبيعون البضائع أو يستبدلون بها غيرها ويتسلمون الغنم والماشية بربح طيب فى أسواق المنافسين من التجار الإنجليز، وفضلا عن ذلك لم تكن هذه المنافسات من مبشرين قريبين منهم.

* * *

المستعمرون الحقيقيون

فى ١٨٦٠م أو نحو ذلك نمت المنافسة بشكل حاد بين بعثات التبشير وقررت بذل ما فى وسعها لإقصاء معارضيها. كان التاجر الآتى من الكاب يتميز بوسيلة نقل العربات التى تجرها الثيران، ولكن هذه المزية قد حيدت إلى حد ما أو فقدت فائدتها؛ بسبب بُعد المسافة بين الأسواق الخاصة بالتاجر، واستحالة استبدال العجلات التى تتلف فى الصحارى والأحراش.

وكانت البعثات إذا استطاعت أن تبنى أو تستبقى نوعًا من الصيانة الجيدة للعربات بشكل كاف، وتقديم المعونة والمدد للعدد اللازم من التجار الذين يقومون بالعمل، فإنها تكون قد كسبت نصف المعركة، وبهذه الطريقة صارت أعمال السرقة والأعمال غير القانونية للتجار الإنجليز يمكن تحديها.

وفى هذا السياق بدأ النشاط التبشيرى يقترح أنه بالإضافة إلى تحويل الأهالى إلى المسيحية أنه يتعين تعليمهم التجارة والحرف المفيدة. وقد نشطت جمعية متعاطفة بدأت نشاطها فى دعوة الحرفيين الألمان إلى الهجرة من ألمانيا مع عائلاتهم والتوطن فى «أودنج بجوى»، حيث يوجد مركز قيادة التبشير. ويمكن القول إن: الحدّاد وصانع العربات الآتيين من مدن ألمانيا كانا أول المستعمرين الحقيقيين الذين ينشدون الربح باستغلال الأهالى، وكانوا رجالاً أتوا بالمطرقة والسندان فى أيديهم وهم مستعدون لكسب معاشهم اليومى بعمل أيديهم.

فى هذا الصدد بنيت العربات، ثم وجد أنه من الضرورى أن يتاح للمستعمرين أن يسافروا مع العربات المحملة بين الأهالى، ويقوموا بالتجارة المضادة المنافسة لتجارة الكاب، وذلك تحت رعاية ومباركة جمعية بعثة رينش.

وتسجل تقارير البعثة التبشيرية أن هؤلاء قد باعوا كل المنتجات التى كان يبيعها التجار الإنجليز فيما عدا الكحوليات. ولكن بقى لتجار الكاب مزية أنهم يحصلون على الماشية ويبيعونها فى سوق مدينة الكاب.

اضطهاد الهوتنتوت

كان عدد هؤلاء البيض قليلاً ولكنهم كانوا أصحاب نفوذ واسع؛ لأنهم يوردون السلع الحديثة ويمثلون نفوذًا جديدًا لعالم كبير له نظمه القوية المخالفة لنظم الإفريقيين. **وكانت سياسة ألمانيا وغيرها من المستعمرين البيض هى تأليب الأهالى على بعضهم البعض؛ فيثيرون قبيلة ضد أخرى ويعدون بمساعدتها حتى إذا فازت بالنصر انقلبوا عليها بعد أن تكون أخضعت الأولى.**

وكانت الظروف فى إقليم جنوب غرب إفريقيا مهيأة لذلك، فأكبر قبيلتين وهما

الهوتنتوت والهيريرو كانتا فى صراع دائم من أجل الرعى والماء، وطالما اندلعت بينهما الحروب القبلية، تغير إحداهما على الأخرى وتنتصر عليها، ثم ما تلبث الأخرى أن تسترد النصر من الأولى وهكذا.

وقد وجد الألمان فى قبائل الهيريرو غايتهم فدفعوهم لدخول الحرب ضد الهوتنتوت، وكان يقود الهيريرو فى المعركة التجار الإنجليز «فردريك جرين» و«هاى بيتل» والرحالة «أندرسون» الذى اشتغل بالتجارة وتقرب من الهيريرو حتى حصل على وظيفة نائب الزعيم والقائد العسكرى، استطاع هؤلاء هزيمة الهوتنتوت واستعاد الهيريرو أراضيهم واستقلالهم الذى كانوا فقدوه جزئيًا من الهوتنتوت على مدى ٢٥ عامًا. وقد قابل الهوتنتوت هذا التدخل الصارخ لصالح الهيريرو باشمئزاز وأدانوا التدخل الفعّال لجرين وغيره من التجار البيض، وسرعان ما أغاروا على حانوت أندرسون ونهبوه هو ومقر بعثة التبشير، وذهب ممثلو البعثة إلى برلين يلتمسون الحماية.

طلب هؤلاء من ملك ألمانيا إنشاء مقر بحرى فى «خليج ولفش ـWalfish Bay»، وأكد الملك للمبشرين أنه مهتم بهذا الأمر جدًا، ولكن اندلاع الحرب البروسية الفرنسية فى ١٨٧٠م صرف الانتباه عن هذا الأمر فترة ما.

استحث هذا الوعد البعثة التبشيرية على استعادة إنعاش مصالحها فى الأنشطة والمغامرات التجارية، وعينت تاجرًا خاصًا لتجارتها باعتبارها فرعًا من بعثه رينش. ويبدو أن هذا الأمر لم يكن مقبولاً من السلطة الألمانية؛ لذلك أنشأت شركة محدودة كجهاز مستقل فى ألمانيا ١٨٧٣م، بهدف التجارة فى مجال النشاط التبشيرى لجمعية المبشرين رينش.

وتعهدت الجمعية أن تكفل للشركة كل المساعدات والدعم الممكن، وفى مقابل ذلك تتسلم ٥٠٪ من صافى الشركة. ووُضع شرط فى الاتفاق يتعلق بنوعية اختيار من يرسل بهم من قبل الشركة، باعتبارهم مديرين أو تجارًا بأن يكونوا ذوى صلة بالتبشير المسيحى.

كان الهدف الأساسى للشركة هو تطوير الأعمال الخاصة بالماشية وفتح طريق للتصدير إلى أوروبا. ولكن بسبب الصعوبات التى واجهت النقل وبسبب فقدان الكفاءة وبسبب عدم الأمانة من ذوى العقل المسيحى الذين تولوا إدارة الأعمال، تكبدت الشركة خسائر باهظة، قدرت خسائرها فى ست سنوات بنحو ٢٠٠ ألف مارك، وهى تساوى وقتها عشرة آلاف جنيه استرلينى. ثم كان نشوب الحرب من جديد فى ١٨٨٠م بين الهيريرو والهوتنتوت؛ مما حطم كل الآمال وعجل بإنهاء المشروع وصُفيت الشركة بعد ذلك.

السيطرة على الأرض

فى هذه الفترة وقع حدث كانت له أهمية كبيرة، ففى ١٨٧٦م زار المفوض البريطانى مستر «پالجريف - W.C.Palgrave» إقليم جنوب غرب إفريقيا؛ وذلك ليتحقق من الرغبات التى يبديها الرؤساء المحليون بالنسبة لسيطرة بريطانيا العظمى، وليعد تقريراً لحكومة الكاب حول مدى الاهتمام بهذه المستعمرة وما حدودها على الشاطئ الغربى للقارة الإفريقية لكى تشمل خليج ولفش ومدى تكلفة ذلك.

استقبل پالجريف استقبالاً طيبًا من شعب الهيريرو وسلموه فى ٩ سبتمبر ١٨٧٩م خطابًا موجهًا إلى السيد «هنرى باركلى» الحاكم العام البريطانى لرأس الرجاء الصالح (الكاب)، موقعًا من ٥٨ من الرؤساء والزعماء، تضمن الخطاب فيما تضمنه ما يلى:

«نحن نريد أن نعيش فى سلام مع بعضنا البعض ومع جيراننا، كما نود أن تبقى بلادنا وأطفالنا، نحن نرغب فى أن يشب أطفالنا متحضرين أكثر منا وأكثر مما أتاحت لنا الظروف، ولذلك وبعد العديد من الاجتماعات التى عقدناها بيننا، فنحن نقبل بخضوع كبير أن نطلب من سعادتكم أن ترسلوا لنا من يحكمنا ويكون على رأس بلادنا. وإننا نطالب سعادتكم بمزيد من الخشوع أن تعلموا الكافة بأن سواحلنا وحدودنا الساحلية صارت فى حيازتكم، وأننا منحناكم الحق فى البقاء فيها وفقًا لمتطلبات حمايتها، وكذلك لبناء المدن والقرى قرب كل الأماكن المناسبة».

بعث مستر پالجريف إلى الحاكم العام فى الكاب بالخطاب، وأوصى أن تلحق بالأراضى البريطانية كل سواحل ناما كوالاند ودامارالاند، وأن يتم تعيين مقيم بريطانى لهذه المناطق، ولكن لم تأخذ الحكومة البريطانية بهذه النصيحة وألحقت بها فقط خليج ولفش فى عام ١٨٧٨م، وبضعة أميال مربعة من الصحراء القريبة من الخليج.

استفاد المشروع الاستعمارى الألمانى من تقاعس الإنجليز، وكانت الخطوة المهمة التالية التى اتخذها هى مد النفوذ الألمانى والسيطرة على ما لم تضمه إليها بريطانيا العظمى. وكان التجار الألمان أول من نشطوا فى ذلك من أمثال «لودريتز-Luderitze».

تدعم نشاط التجار المبشرين بالتدريج بواسطة التجار المحترفين، وتدعم أيضًا العمل لبناء التجارة الألمانية والنفوذ الألمانى وللتخلص من بريطانيا والبريطانيين. وقد وصفت هذه الفترة من ١٨٨٠م - ١٨٩٠م بفترة إدارة التجار.

لم يستدع الأمر وقتًا طويلاً لكى يكتشف التاجر الألمانى لودريتز أنه بعد خليج ولفش يوجد خليج آخر فى إنجرابكويتا (يسمى الآن باسم التاجر لودريتزبخت)، وأنه أحسن مكان على الساحل بين نهرى الأورانج و كونين.

وفى أغسطس ١٨٨٣م استطاع لودريتز أن ينتزع من رئيس الهوتنتوت حق إدارة المنطقة التى تقع بين خطى عرض ٢٦ جنوبًا ونهر أورانج، ويحدها البحر من الغرب ويحدها من الشرق خط يجرى على بعد ٢٠ ميلاً داخل البلاد من الشمال الجنوبى.

وفى عام ١٨٨٤م زار جماعة من العلماء والباحثين الألمان ناماكوالاند ودامارالاند، ونقبوا عن المناجم وعن الإمكانيات الخاصة بالمناجم والزراعة هناك.

وفى السنة نفسها أرسل المستشار الألمانى الشهير الأمير بسمارك برقية برفع العلم الألمانى على هذه الأراضى، ووضعها تحت حماية الإمبراطورية الألمانية.

بدأ لودريتز يتمادى فى نشاطه وشجعته هذه السياسات المتبعة والاعتراف بالوجود الإمبراطورى فى هذه المنطقة، فقام بعملية شراء حقوق الملكية فيما تبقى

من الساحل من خط عرض ٢٦ جنوبًا إلى رأس فريبو بالقرب من ثغر كونين وطولها نحو ١٠٠ ميل إلى الجنوب، وهذه الاتفاقيات كانت مطلوبة بقصد إقناع المستثمر الألمانى بأن يشارك فى مشروعات لودريتز.

ذهب لودريتز إلى ألمانيا مسلحًا بهذه الوثائق، حيث نجح فى سنة ١٨٨٥م فى أن يقيم شركة تسمى «الشركة الاستعمارية الألمانية لجنوب غرب إفريقيا» برأس مال قدرة ٣٠٠ ألف مارك (١٥ ألف جنيه استرلينى) وهى غير الشركة الغنية المسماة بـ «الشركة الاستعمارية الألمانية».

وقد ذكر علنًا فى ألمانيا - فى ذلك الوقت - أن مساهمى الشركة تحركوا بدافع من الوطنية، باعتبار أن ذلك البلد الذى يمكن أن تظهر أهميته فى المستقبل يتعين ألا يمضى فى أيدى قوى أجنبية، ولا يكاد يذكر العمل الاستعمارى الفعلى والبناء الذى أجرته هذه الشركة برأسمالها الضئيل البالغ ١٥ ألف جنيه استرلينى لسبب بسيط هو أن لا شىء قد تمّ.

والحقيقة أن الفكرة المجردة لعمل شىء جوهرى لفتح بلد مثل جنوب غرب إفريقيا بمثل هذا الرأسمال الصغير هى شىء عابث وهزلى، كمن يريد أن ينقل ماء البحر بدلو. وإن كل ما فعلته هذه الشركة منذ تأسسها حتى ١٩٠٧م هو أن تحصل على حقوق التنقيب، وأن تنتظر ما يأتى من بعد وتكون مستعدة أن تنفق الأموال لاستغلال المناجم.

وأيًا ما كان الأمر، ففى أكتوبر ١٨٨٥م بعثت الحكومة الألمانية مراقبًا حكوميًا للشركة الحديثة التكوين هو الدكتور «جورنج» بصحبة أحد رؤساء الشرطة. وكان جورنج يمثل نوعًا من الوكيل التجارى ذى سلطات محددة بالنسبة للمقيمين الألمان فى هذه البلاد، ولكن لم تكن لديه سلطة بأن يعد بأن يحمى الأهالى الألمان.

وشرع د. جورنج فى اتخاذ إجراءات حماية الاتفاقات بمساعدة المبشر «كارل بتنر - Carl Buttner»، وحماية الرؤساء المحليين الذين يتقاتلون فيما بينهم، وفى مقابل هذه الحماية طلب من الرؤساء المحليين أن يعطوا لألمانيا مزية الدولة الأولى بالرعاية، وأن يتعهدوا بألا يعطوا تسهيلات أو حقوقًا لغير الألمان بغير موافقة الإمبراطور. وكان من هؤلاء كماهيريرو رئيس الهيريرو والأوكاهنجا القائد

الرئيسى للهيريرو فى داماralاند الذى انضم إلى الاتفاقية فى ٢١ أكتوبر ١٨٨٥م . وقد ذكر الحاكم الإدارى ليتوين أن هؤلاء الأشخاص الذين وعدوا بالحماية باسم إمبراطور ألمانيا لم يكن هناك أية إمكانية لتنفيذ ما وعدوا به .

جمهورية يوبنج تونيا

وفى السنة التى ارتفع فيها علم ألمانيا على دامارالاند ، فإن رجالاً من الترانسفال ومن مستعمرى الكاب بقيادة المغامر البريطانى وليام جوردون ، اشتروا كل المساحات الواسعة فى الشمال التى تعرف الآن باسم جروت فونتين اشتروها من رئيس الأوفامبولاند .

وفى جروت فونتين أسس جوردن ١٨٨٤م جمهورية «يوبنج تونيا-Uping Tonia» ووزع المزارع على المواطنين البيض ، ووضع دستوراً وأجرى انتخابات وصار الرئيس الأول ، وبالإضافة إلى حقوقه على الأرض ، فإن جوردون حصل على حقوق شخصية على كل المناجم فى المنطقة الغنية بالمناجم ، حيث يوجد الآن منجم نحاس «تسومب-Tsumeb » . وقد قوبلت مشكلة جمهورية جوردون باهتمام كبير وبحذر وعدم ثقة فيه ، كما أثارت طموحات لودريتز وشركائه .

وعلى أية حال فقد حُلت مشكلة جمهورية جوردون باغتياله عندما كان فى رحلة إلى أوفامبولاند . ويقال إن رئيس الأوفامبو كان هو المسئول عن الاغتيال ، وقد يكون هذا ما حدث أو لا يكون ، فمن الصعب إثبات من هو المحرض ، فالجميع كانت لديهم مصلحة فى إقصاء جوردون .

وبعد أن عرف مقتل جوردون ، اتخذ د . جورنج خطوات لينصح أتباعه فى جروت فونتين أن إمبراطور ألمانيا لا يمكنه للحظة واحدة أن يحتمل فكرة وجود جمهورية على أراضيه .

وبناءً على تلك النصيحة فإن الجمهوريين الخائفين والمضطربين حملوا بضائعهم ومواشيهم وساروا فى كل الاتجاهات ، بعضهم ذهب إلى الترانسفال والكاب ، وبعضهم انضم إلى مستعمرة البوير فى هومباتا بانجولا ، وكانت هذه هى نهاية جمهورية يوبنج تونيا .

التجار البريطانيون

من غير المتصور أن يكون التجار البريطانيون فى هذا البلد قد نظروا إلى عمل جوردون بلامبالاة، بل على العكس وُضعت العقبات فى طريق رجاله، وبذلت حكومة الكاب والتجار البريطانيون جهداً لتأمين النفوذ البريطانى أو لاستعادته على أمل أن تصير هذه البلاد من بعد تحت الحكم البريطانى. وكان يجرى تحطيم المشاريع والأطماع الألمانية، ليس فقط فى جنوب غرب إفريقيا، ولكن أيضًا فى كل جنوب القارة. كان الرجال البريطانيون فى الموقع يرون الخطر الألمانى واضحًا، ولكن ذلك لم يكن مفهومًا ولا مقدراً فى لندن.

أتت المتاعب لألمانيا من تاجر إنجليزى يسمى «روبرت لويس» يتذكره الهيريرو باسم بوبى لويس. ويؤكد الألمان أن لويس كان عميلاً ماجوراً لسيسل رودس (وهو أحد المستعمرين الذين أتوا إلى إفريقيا من انجلترا ودعموا النفوذ الإنجليزى فيها وإليه نسب إقليم روديسيا).

كان لويس ينشط فى التجارة بكثافة عبر داماراالاند وناماكوالاند الكبرى، وكانت له شعبية واسعة مع الأهالى ونفوذ ملحوظ مع الرؤساء المحليين. لم تكن التجارة هدفه الحقيقى، إنما كان الهدف الأساسى فى حياة لويس هو إقصاء الألمان من هذه البلاد.

وفى اجتماع لرؤساء وقادة الهيريرو فى أوكاهنجا، أبلغ الرئيس القديم للهيريرو فى حضور مستشاريه، أبلغ د. جورنج أنه لايعترف بأية ادعاءات ألمانية حول السيطرة على بلاده أو شعبه، وجعل جورنج ورجاله يفهمون أنه «إذا لم يكونوا يرغبون فى رؤية أيديهم تسقط على أقدامهم، فعليهم أن يخرجوا من أراضيهم وأن يعودوا إلى ألمانيا قبل غروب الشمس».

لم ينتظر د. جورنج ورجال الشركة طويلاً، فقد ابتعدوا فى عجلة وحزموا أشياءهم، وذهبوا إلى خليج ولفش فى حماية المقيم البريطانى.

ومن خليج ولفش استغاثوا بحكومة ألمانيا لتحميهم ضد إجراءات لويس الذى وصف بأنه عميل سيسل رودس فى البلاد، وأنه يتبع كافة الأساليب بلا خجل ويقوم بأنشطة وصفوها بأنها خطرة.

وقد أشير فى شهادة الحاكم ليتوين إلى أن لويس باعتباره تاجراً إنجليزيّاً عاش طويلاً بين الهيريرو، وأنه منذ البداية يمثل أعنف عدو للألمان، وأنه أطلق الوعود للهيريرو وكل الأكاذيب بأن الهيريرو يدحضون المعاهدة التى سبق أن أبرموها مع د. جورنج وأن د. جورنج لم تكن لديه سلطة ليلزم التاجر الألمانى بأية معاهدة، وأن لويس باعتباره فرداً من الأفراد العاديين فإن له من الحقوق ما لچورنج للتأثير وللتعاقد مع الهيريرو.

وعلى العموم فقد طالبت الشركة وممثلو اللاجئين الألمان الإمبراطوريةَ الألمانية بالحماية العملية؛ لتتمكن الشركة من أن تسير فى نشاطها وتمارس حقوقها وتحقق مصالحها فى دامارالاند.

ورد المستشار الألمانى على هذه الاستغاثات بقوله: «إن هذا ليس من وظائف الإمبراطور، وإن هذا يظل بعيداً عن البرامج التى تتبناها السياسة الاستعمارية الألمانية فى التدخل لصالح الدولة وإنشاء المنظمات بين الشعوب غير المتحضرة، أو استخدام القوة المسلحة لمحاربة المعارضة التى يقوم بها رؤساء الأهالى ضد الأعمال القائمة التى يديرها رعايا ألمان فى بلاد ما وراء البحار، وإنه لا يعطى وعداً باسم الإمبراطور يتعلق بالتوجه السلمى فى عمليات التنقيب ولا بالنسبة للتعهدات الخاصة بجنوب غرب إفريقيا».

أثار نشر هذا الإعلان فى الصحافة التجارية الألمانية لغطًا بين الشركات وجمعيات التبشير؛ مما جعل المبشر الألمانى برينكر فى أوكاهنجا يكتب خطابًا شديداً يحتج فيه على المستشار الألمانى وأشار فيه:

«إنه لا فائدة إذن من إبرام الاتفاقات؛ لأن الاتفاقات والحقوق لا يضمنها ويعطيها قيمتها إلا حجم القوة التى تكمن وراءها. وإذا كان ثمة حصة فى الكنز يجب تأمينها، فإن السلطة الأوروپية يجب أن تنشأ هنا لتعاقب كل شكل من أشكال الكبر والزهو الذى يمارسه الأهالى وكل عمل من أعمال العدوان على المصالح. وتحت هذه الحماية فإن مزارع الماشية الخاصة بالأهالى (يقصد بالأهالى هنا الأوروپيين) يجب أن تنمو وكل أوروپى يجب أن يؤمّن وعمل المبشرين يجب أن يزدهر».

وطلب المبشر برينكر من الحكومة الألمانية ٤٠٠ جندى ألمانى وبطاريتين لإنجاز أهدافه.

ومما يثير الانتباه ملاحظة أن مزارع الماشية الخاصة بالأوروبيين نمت وازدهرت فعلاً تحت هذه الحماية، ففى الوقت الذى ذكر فيه برينكر فى خطابه أن شعب الهيريرو يمتلك ماشية تقدر بعشرات الآلاف ويحتمل أن تكون بمئات الآلاف، هذه الثروة فى خلال اثنى عشر عامًا بعد تثبيت الحماية الألمانية ذهبت لأيدى الألمان، فإن من بقى على قيد الحياة من الهيريرو، لم يكونوا يملكون ثورًا واحدًا ولا عجلاً؛ إذ منعوا بواسطة القوانين الألمانية من أن يمتلكوا قطعانًا.

أحدثت إجابة الرفض على المطالب إثارة واستياء داخل ألمانيا، واضطر المستشار الألمانى أن يعدل من موقفه بعد ذلك، فأرسل أول حملة جنود من ألمانيا وكان عدد أفرادها ضئيلاً لا يزيد عن ٢١ جنديًا تحت قيادة كابتن يسمى س. فون فرانسوا، وقد وصل هؤلاء إلى ساحل جنوب غرب إفريقيا، وهناك ترك الكابتن فرانسوا بعض رجاله وأسرع إلى أوكاهنجا؛ ليقدم فروض الاحترام إلى زعيم الهيريرو «كماهيريرو»، ولكنه استقبل هناك ببرود فعاد سريعًا وترك المكان، وذهب إلى ساويبس التى تقع على الساحل حيث بنى قلعته وانتظر التطورات.

* * *

كانت ألمانيا هى آخر الدول الأوروبية التى حصلت على مستعمرات، وكانت أول دولة أوروبية تخسرها. ففى عام ١٨٧٨م لم تكن ألمانيا تمتلك قدمًا مربعًا واحدًا فى الممتلكات المستعمرة، وبعد مضى عشر سنوات أصبحت مالكة لمساحات واسعة فى شرق إفريقيا وجنوبها الغربى ووسطها وغربها، وذلك بفضل جهود المستشار الألمانى بسمارك الذى وحد ألمانيا وسار بها إلى أن تكون دولة كبرى.

ففى نوفمبر ١٨٨٤م دعا بسمارك إلى المؤتمر الشهير مؤتمر لندن - كونغو، الذى عقد فى برلين (من نوفمبر ١٨٨٤م إلى فبراير ١٨٨٥م) تحت إشرافه.

فى المؤتمر سلّم الجميع بإمكان تقسيم قارة إفريقيا دون اعتبار للسكان ودون اعتراف بأى حاكم فيها، إلا إذا كان البيض هم الحكّام. وأدت الحدود السياسية الجديدة التى رسموها على الورق إلى تمزيق القبائل بل إلى تمزيق القرى، وبدلاً من

أن تشن دول الغرب حروبًا بينها حول مناطق النفوذ الاستعمارى اتفق الجميع ضد سكان أقاليم إفريقيا الذين لم يعرفوا شيئًا عن مؤتمر برلين ولم يعترفوا به.

وأعلن المؤتمر أن كل إفريقيا الاستوائية هى منطقة للتجارة الحرة، وبذلك ضمن لألمانيا شريحة كبيرة فى الكونغو الأدنى، وبالإضافة إلى عدد آخر من القرارات فقد جعل من واجب كلٍّ القوى الاستعمارية أن تتفق كل منها مع الأخرى فى حالة حدوث توسعات جديدة. وكتب أحد الألمان معلقًا «**لقد انتهى الاحتكار الاستعمارى الإنجليزى وظهر توزيع أكثر عدالة للممتلكات الاستعمارية!**».

وتمادى المؤتمر إلى أبعد من ذلك، فقبل انتهائه تعهدت القوى التى حضرت المؤتمر بما يلى:

أولا: حفظ الأجناس البدائية فى إفريقيا.

ثانيًا: المحافظة على مصالحهم.

ثالثا: تنمية تطورهم وتقدمهم المادى والمعنوى.

وفى يوليو ١٨٩٠م كانت ألمانيا ذات دور بارز فى مؤتمر مناهضة العبودية المنعقد فى بروكسل، وذكر التقرير الصادر عنه بأن ثمة رغبة مؤكدة للقوى التى حضرت المؤتمر بأن تحمى الأجناس المحلية فى إفريقيا من العبودية والاضطهاد.

ولا يثير العجب معرفة أن هذه السياسة الألمانية المعلنة والمعترف بها جعلت الساسة والشعب البريطانى لا يترددون فى الترحيب بهذه القوة الجديدة ودخولها فى مجال الاستعمار العالمى، باعتبارها كما جاء فى التقرير «شريكًا فى العمل العظيم الخاص بتمدين الأجناس المتخلفة والوثنية فى الأرض».

كان ظاهراً بأنه بهذه الروح وبهذه التأكيدات بالوعود المؤكدة فى مؤتمرى برلين وبروكسل، أن بريطانيا العظمى سمحت لألمانيا بأن تستولى على ٣٢٢ ألفًا و ٤٥٠ (٣٣٢, ٤٥٠) ميلاً مربعًا من أراضى جنوب غرب إفريقيا. وهكذا بجرة قلم صار يتبع إمبراطور ألمانيا وتحت سيطرته كل الأراضى الواسعة والفسيحة التى يسكنها الأوفامبو والهيريرو والدامارالاند الهوتنتوت والباستارد والبوشمن.

وقد كتب أحد المؤرخين الألمان مشيراً إلى هذا الحدث بقوله: «باعتبار التوسع

المتزايد للممتلكات الألمانية، فإن أول شيء تحتاج إليه أن يكون ثمة تحديد واضح لمجالات النفوذ لكل من ألمانيا وانجلترا؛ وذلك لضمان التأسيس الجاد للعمل الحضاري لكل من الأمتين».

بعد أن صار إلحاق أراضي جنوب غرب إفريقيا بألمانيا حقيقة واقعة، وأتم الساسة الألمان إنجازهم فإن الرأى العام الألمانى بدأ يكتشف بعد سنوات ليست كثيرة من الإلحاق أن حقيقة السياسة الألمانية كانت مرعبة بالنسبة للأهالى سيئى الحظ فى جنوب غرب إفريقيا. ولم تظهر آثار هذه السياسة بشكل قوى، إلا بعد التمرد الثانى والأخير للهيريرو ١٩٠٤م. وإن الدكتور چو الذى كان يشغل منصبًا رفيعًا فى المكتب الألمانى ١٨٩٠م، والذى يعتبر ملهمًا ومعتمداً بالنسبة للسياسة الألمانية الاستعمارية كتب يقول: «إن قرار استعمار جنوب غرب إفريقيا لم يكن يمكن أن يعنى أكثر مما يلى، أن تسلم القبائل أراضيهم التى كانوا يرعون عليها ماشيتهم، من أجل أن يستطيع الرجل الأبيض امتلاك هذه الأراضى ليرعى عليها ماشيته. هذا الموقف عندما جرى التساؤل عنه من وجهة نظر القانون الأخلاقى، كانت الإجابة أنه بالنسبة للشعوب الخاصة بجنوب غرب إفريقيا فإن فقد حريتهم وتطورهم إلى طبقة من العمال تخدم وتتبع الشعب الأبيض، **أن ذلك يمثل تطبيقًا لقانون الوجود أى البقاء للأقوياء والبقاء للأصلح على أوضح مستوى (صراع الوجود)، إن ذلك ينطبق على الأمة بقدر ما ينطبق على الفرد؛ فإن حق الوجود يبرره فى الأساس الدرجة التى يكون فيها الوجود مفيداً للتقدم والتطور العام.** ولا توجد حجة يمكن إبداؤها تتعلق بأن المحافظة على الاستقلال الوطنى وعلى الملكية الوطنية وعلى التنظيمات السياسية لأجناس جنوب غرب إفريقيا بأية درجة من درجات هذا الاحتفاظ، يمكن أن تكون أكثر ملاءمة أو بذات القدر من المزايا، بالنسبة لتطور الجنس البشرى بعامة أو تطور الجنس الألمانى بخاصة من جعل هذه الأجناس خادمة ومجالاً لامتلاك الرجل الأبيض لملكيته وسيطرته».

رئيس الهوتنتوت الرائع

فى ١٨٩٠م كان قد عين الكابتن الألمانى س. فون فرانسوا مديراً للأراضى

الملحقة، ووجد الأمور فى حالة شديدة الاضطراب؛ بسبب أفعال سلفه د. جورنج الذى هرب من سوء إدارته.

كان وضع فون فرانسوا شديد الاضطراب، لم يكن معه إلا ٢١ جنديًا، وأكثر من ذلك فإنه صادف وصوله إلى هناك أن شبت الحرب بين الهيريرو تحت قيادة كماهيريرو وبين الهوتنتوت بقيادة الإفريقى الرائع والجندى القوى هندريك ويت بووى. ويعد هندريك ويت بووى من أكثر زعماء الهوتنتوت قدرة على التأثير فى النفوس، كان قائدًا ورجل دين ودولة، ومات وهو يحارب المستعمر، وقد وحد قبائل الهوتنتوت وعقد اتفاقية وقعها جميع زعمائهم تعهدوا فيها ألا يبيعوا أراضيهم إلى شخص أبيض وألا يشنوا حربًا على الهيريرو دون سبب مشروع. وكان الهيريرو يمثلون العدو اللدود للهوتنتوت.

وكان هندريك ويت بووى وأبوه ويت بووى مؤسس مملكة الويت بووى، قد رفضا من البداية أية معاهدة للحماية مع المندوب الألمانى جورنج، وقد غضب الرئيس ويت بووى عندما عرض عليهم جورنج اتفاقية حماية ليوقعها وكان غضبه شديدًا إلى حد أن أغلق مقر الكنيسة والبعثة التبشيرية، ومنع قسيس الكنيسة «راست» من أن يقدم أى خدمات دينية، وصار هو القسيس الأكبر لشعبه ونقل ذلك إلى ابنه وخليفته هندريك الذى اتبع طريق أبيه حتى وفاته.

أدرك الألمان أنه مضيعة للوقت محاولة التفاوض مع ويت بووى؛ لذلك فإن د. جورنج وفون فرانسوا حوّلا اهتمامهما إلى كماهيريرو زعيم الهيريرو، فقدما إليه وعدًا من إمبراطور ألمانيا بأنه سيرسل جنوده ليساعدوا الهيريرو ضد هندريك ويت بووى، وبذلك سيطرا على كماهيريرو وأكدا على اتفاقية ١٨٨٥م، التى كان قد وقعها كماهيريرو من قبل مع د. جورنج ثم عدل عنها فأعيدت إلى الفاعلية. ولما أمن جورنج جانب الهيريرو بعث إلى هندريك ويت بووى بما يلى:

«إلى الرئيس هندريك ويت بووى، لقد أبلغت أن فى نيتك أن تشن الحرب ضد الهيريرو، وأنك تنوى كما فعلت من قبل أن تدمر القرى وتنهب الماشية. إن الحكومة الألمانية لا تستطيع أن تحتمل الاضطرابات المستمرة التى تثيرها ضد السلام بالنسبة للأرض والشعب الحائزين على حماية ألمانيا، وأن تثير الاضطرابات بالنسبة

للتجارة وخطوط الاتصال، إنك مجبر على أن تحفظ السلام بكل الوسائل فى كل الأراضى، وإنى أطلب منك أن توقف الحروب، وأن تنشد السلم مع الهيريرو، وأن تعود إلى «جيبون – Gibeon» إننى أو من يمثلنى أو من يخلفنى مستعد للتدخل من أجل استعادة الصداقة، وحكومة انجلترا تؤيدنا فى جهودنا لضمان السلام وليس ذلك فى مصلحتك، وقد أوقفت توريد السلاح والذخيرة لك من بتسواناالاند البريطانية. وإن الحكومة الألمانية تمتلك وسائل أخرى من القوة لتحطيمك، ويتعين أن يكون هذا واضحًا لك؛ لذلك أطلب منك بإصرار أن تلجأ للسلام إذا كنت تريد أن تحافظ على أرضك وشعبك ونفسك».

بعد أن تسلم ويت بووى الخطاب تجاهله، وفشلت التهديدات والبيانات الواردة به أن تحدث أى أثر لديه، ولم يرد على جورنج وإنما توجه إلى عدوه التقليدى كماهيريرو، وبعث إليه بخطاب يعد نصًا رائعًا فى مفهوم الوطنية:

«إلى العزيز كابتن كماهيريرو

اليوم أكتب لك فى إطار صلاحيتك باعتبارك الرئيس الدائم لداماراالاند؛ لأنى استلمت خطابا من د. جورنج قال لى فيه أشياء خطيرة؛ مما وجدت معه من الضرورى أن أخاطبك.

من محتوى خطاب د. جورنج سمعت وفهمت أنك وضعت نفسك تحت حماية الألمان، وأن د. جورنج بذلك حصل على النفوذ الكامل والسلطة ليأمر وليصل بين الأشياء وليتدخل فى شئون بلادنا، ويتدخل حتى فى هذه الحرب التى تقوم من قديم بيننا.

لقد أدهشنى وإنى ألومك لأنك أسميت نفسك الرئيس الدائم لداماراالاند وهذا حقيقى؛ لأن بلدنا له اسمان فقط هما داماراالاند و«ناماالاند–Nama Land»، ويمكن القول: إن داماراالاند تنتمى إلى أمة الهيريرو وهى أمة مستقلة ومملكة مستقلة، وإن ناماالاند تنتمى فقط إلى الأمم الحمراء اللون فى الممالك المستقلة، بمثل ما يقال عن أراضى الشعب الأبيض مثل ألمانيا وانجلترا وغيرهما.

إنها ممالك مستقلة وكل الأمم المختلفة لديها رؤساؤها الخاصين، وكل رئيس فيهم

له أرضه وشعبه الذى عليه وحده يمارس الحكم؛ ولذلك لا يوجد شخص آخر أو رئيس آخر يمكن أن يصدر له أمراً أو يجبره على شىء.

وفى هذا العالم فإن كل رئيس لأمة هو مجرد ممثل لقدرة الله تعالى، وهو يقف مسئولاً أمام الله وحده ملك الملوك جميعًا وسيد السادة كلهم، وأمامه فنحن جميعًا الذين يحيون تحت قبة السماء نركع على ركبنا.

ولكن يا عزيزى الكابتن فقد قبلت أنت حكومة أخرى، وسلمت لهذه الحكومة لكى تكون محميًا من حكومة بشرية أخرى من كل الأخطار وأساسًا لتكون محميًا منى فى هذه الحرب.. إنك محمى من حكومة ألمانيا وهى من تساعدك ولكن يا عزيزى الكابتن هل يمكنك أن تقدر هذا الذى تصنعه؟.. إنك تنظر لى باعتبارى عائقًا وعقبة؛ ولذلك فقد قبلت هذه الحكومة الكبيرة لكى تحطمنى بجبروتها، ولكن يبدو لى أنك لم تستوعب الأمر جيداً بالنظر إلى وضعك ووضع شعبك وبالنظر لأخلافك الذين يأتون من بعدك وبالنظر لسلطاتك الرئاسية نفسها.

هل تتصور أنك ستستعيد حقوقك وسلطاتك باعتبارك رئيسًا مستقلاً بعد أن تحطمنى إذا نجحت؟، هذه فكرتك، ولكن يا عزيزى الكابتن فى النهاية ستشعر بالندم بعد أن تكون سلمت أرضك وسلطاتك على الأرض إلى أيدى الشعب الأبيض.

وأكثر من ذلك أن حربنا ليس ميئوسًا منها بالقدر الذى تتخذ هذه الخطوة الكبيرة (وهنا فإن ويت بووى أعاد باختصار ذكر أسباب الحرب والخطوات التى يمكن أن تأتى بالسلام)، وبنفس الطريقة التى يمكن أن يتبارا فيها بغير تدخل أجنبى، ولكن بالرغم من ذلك كله فإنى آمل أن الحرب بيننا تنتهى وأن يتلوها السلام.

ولكن هذا الشىء الذى فعلته وهو أنك سلّمت نفسك للشعب الأبيض يحكمك متصوراً أنك تتصرف بحكمة، أن ذلك سيصبح عبئًا عليك وستحمله خطيئة على ظهرك.. قد تأملت بكفاية هذا الأمر، وما إذا كنت قد فهمت ما تصنعه وتسليمك نفسك للحماية الألمانية.

وأنا لا أستطيع أن أعرف ما إذا كنت وأمة الهيريرو تفهمون العادات والشرائع والسياسات الخاصة بهذه الحكومة، وأنكم ستحيون بسلام تحت قيادتها..

إنك لم تفهم و لم تهنأ مع أفعال د. جورنج؛ لأنه لن يستشيرك فى رغباتك ولن يرجع إلى شرائعك وعاداتك، وهذا ما ستكتشفه بعد فوات الوقت وبعد أن تكون سلمته كل سلطاتك».

واستمر الخطاب الذى أضاف فيه السياسى الكبير رئيس الهوتنتوت أن الهيريرو والألمان ليسوا أصدقاء أبدًا، وأن هذه الاتفاقية بينهما تمت لمجرد تحطيمه.

وفى النهاية أعلن ويت بووى أنه لا يمكن أن يتنازل إلى قبول الحماية لنفسه ولشعبه من أحد قط غير ملك السموات الحامى الأعظم.

(هذا الخطاب تداول فى العديد فى كتابات الكتّاب الألمان، ووجدت نسخة منه فى الأرشيفات الألمانية؛ لذلك لا يوجد شك فى مصداقيته).

الوعود المهدرة

إن هذه المقتطفات من الخطاب الطويل لرئيس الهوتنتوت تشرح فقدان الثقة والشكوك الفطرية التى كانت عند الهوتنتوت بالنسبة للألمان، وتوضح السبب الوحيد الذى جعل الهيريرو يتقبلون الحماية من ألمانيا ثم ينقلبون عليها.

كان الهوتنتوت المستقلون محبو الحرية، يرغبون فى البقاء أحرارًا تمامًا، وغير مقيدين من الحكومات الأجنبية. وفى الجانب الآخر كان الهيريرو الفخورون والميالون للسلام ينظرون إلى الهوتنتوت فى الجانب الجنوبى منهم، باعتبارهم تهديدا قائمًا يهدد أمن قطعانهم الضخمة. إن الهيريرو يعيش ويقدس قطعانه، وتقاليده واحتفالياته الدينية وطقوسه الوطنية تحتم عليه أن يمتلك الماشية بأكبر قدر ممكن، فالماشية تعنى بالنسبة له القوة فى هذا العالم والخلاص فى العالم الآخر؛ لذلك كان عليه لكى يحميها أن يقبل الحماية الألمانية له، وقد قيل له: إن إمبراطور ألمانيا ذا الجبروت سيرسل قوات لتدمير الهوتنتوت وإقرار السلام؛ لذلك قبل الهيريرو حماية ألمانيا باتفاقية دون إدراك كامل لما تعنيه بنودها وهو أن يلحقوا بالسلطة الألمانية، وهذا ما اكتشفوه فيما بعد وأشعل الحرب بينهم وبين الألمان، وهى الحرب التى أبيد فيها شعب الهيريرو.

كان هذا الوعد بالحماية مثل كل وعود ألمانيا التى أعطيت للأهالى ولم تلتزم بها، وهى لم تعط هذه الوعود بجدية، بل كانت مجرد مناورة. وعندما أرسل إمبراطور ألمانيا قواته إلى أرض الهيريرو - بعد ذلك بسنوات - كان قد أرسلها لتحقيق أغراض أخرى منها محاربة الهيريرو أنفسهم.

إن هندريك ويت بووى الذى لم يحمل بجدية وعود الألمان لكماهيريرو، وأظهر ما يعتقده، وهو أن من واجبه مواصلة الحرب ضد الهيريرو بروح جديدة وتصميم قوى. وعندما قامت الحرب بين الهوتنتوت والهيريرو (ويقال: إن هذه الحرب شنت بسبب يرجع إلى قتل عدد من الهوتنتوت من مربى الخيول على أيدى الهيريرو ، وإن ويت بووى لم يكن فى حالة عدوان) فإن الهيريرو المتعبين توجهوا بيأس إلى فون فرانسوا من أجل المساعدة العسكرية الألمانية الموعود بها. فماذا كان يمكن لفون فرانسوا أن يفعل وهو ذاته لم يكن لديه قوات كافية تزيد عن الحراسة الشخصية له، ولم يكن هناك أمل مباشر لتقوية هذه الحراسة وتطويرها إلى الأغراض الهجومية، ولم يكن يجرؤ أن يطلب أيا من ذلك من حكومة ألمانيا، فإن التعليمات المحددة التى كانت لديه من برلين، هى أنه عندما يصل الأمر إلى الاقتتال فعليه ألا ينحاز لأحد الجانبين، وأن يبقى فى حالة دفاعية عن نفسه فقط.

والحادث أن فون فرانسوا قد شارف على اليأس من التأنيب والهجوم الذى واجهه من حلفائه الهيريرو؛ فقرر أن يجرى زيارة شخصية لهندريك ويت بووى فى قرية هذا الأخير.

قابل الرئيس المخضرم «هندريك ويت بووى» «فون فرانسوا» بحفاوة ولكن ببرود، وبطريقته المعتادة وباهتمام زائد أمر سكرتيره أن يسجل هذا اللقاء.

وهذه بعض المقتطفات التى أملاها هندريك بووى فى اللقاء الذى تم فى ٩ يونيو ١٨٩٢م:

١ ـ ذكر الكابتن الألمانى المفوض إلى الكابتن ويت بووى ما يلى: لقد استمعت إلى أشياء عنك من رجال بيض ومن قبائل الباستارد، وعرفت أنك دائمًا تعيد أى ملكية إلى البيض أو الباستارد ممن يكون وقع فى يديك ومن يكونون من غير المشتركين فى الحرب.

إن ذلك سرنى للغاية وإنى أوافق على صداقتك وأقدر سلوكك العادل وحكمتك، ومن ذلك أنك لم تؤذ ولا تحاملت على أى شخص لم يشترك فى هذه الحرب، ولكن هناك العديد من الشكاوى تتعلق بالهيريرو وبالنظر إلى تصرفاتهم الحمقاء وغير المشروعة.

إن الحكومة سألتنى عما يمكن عمله، لقد أجبتها بأنى سأبادر بالذهاب إلى هندريك ويت بووى وأتحدث معه؛ لذلك جئت إليك لأتكلم معك. وقد جئت إليك كصديق؛ لأعطيك نصيحة جيدة ، ولأسألك: عما إذا كنت لست مثل الرؤساء الآخرين فى هذه البلاد الذين وضعوا شعوبهم وأنفسهم تحت حماية ألمانيا؟ فى السفينة القادمة سيصل الأوروبيون وشعوبكم يجب أن تكون محمية، وقد وعدت حكومة ألمانيا بحماية كل من يندرج تحت حمايتها.

٢ ـ أجاب الرئيس هندريك ويت بووى: نعم إننى سمعت عن مجيئك وعن تعاضدك. فى البداية هل شعبك أرسل إلىَّ هنا بواسطة إمبراطور ألمانيا؟

٣ ـ فون فرانسوا يجيب: نعم لقد أرسلنا بواسطة الحكومة الألمانية، لقد أرسل د. جورنج وأرسلت أنا الآن لأخلفه ولدىّ صلاحيات رسمية.

٤ ـ ذكر الرئيس هندريك ويت بووى: ثانيا اسمح لى أن أسألك : ما الحماية؟ ومن أى شىء سنكون محميين؟ومن أى مخاطر أو صعوبات أو متاعب يمكن لأحد الرؤساء أن يكون محميًا من الآخر؟

٥ ـ أجاب فون فرانسوا: من البوير ومن الأمم القومية الأخرى التى ترغب فى شق طريقها إلى هذه الحرب، إنهم يرغبون فى أن يأتوا ويحيوا هنا ويشتغلوا ويعملوا ما يشاءون من غير أن يطلبوا إذنًا من رؤساء هذه الأرض، وحتى الآن فى رحلتى هذه قابلت البوير الذين وصلوا فعلاً تحت حماية ألمانيا، وليس لديهم لا القوة ولا الحق أن يدخلوها، وإنك أيها الرئيس يجب أن تفهم أن الرؤساء لن يجردوا من حقوقهم ولا من قوانينهم، وسيكون للرئيس ويت بووى امتيازات مقررة على شعبه مثلما هى الحالة مع الرئيس الهيريرو فى «ريهوبوث – Rehopoth».

٦ ـ أكد الرئيس ويت بووى: هكذا أنا أفهم الموضوع، وبالنسبة لى فإن الأمر يدعو للعجب ، وأنا لا أستطيع أن أفهم أن الرئيس عندما يكون رئيسًا مستقلاً

وحاكمًا على أرضه وشعبه ـ وهكذا يجب أن يكون كل رئيس ـ يمكن أن يدفع عن شعبه كل المخاطر والتهديدات، لا أستطيع أن أفهم أن هذا الرئيس إذا قبل حماية الغير له يمكن أن يكون رئيسًا مستقلاً، إن كل إنسان تحت الحماية سيكون محكومًا من الشخص الذى يحميه. . وأكثر من هذا أن إفريقيا هذه هى أرض الرؤساء الحمر مثل الهوتنتوت، وعندما يتهدد الخطر أى رئيس، وعندما يشعر أنه غير قادر وحده على مواجهة هذا الخطر فيمكن له أن يستدعى أخاه الرئيس الآخر أو إخوته الرؤساء من الشعب الأحمر، ويقول له: تعال أيها الأخ أو تعالوا أيها الإخوة لنقف معًا ونحارب من أجل أرض إفريقيا ونواجه الخطر الذى يتهدد أرضنا؛ ذلك أننا مثل بعضنا البعض فى اللون وفى السلوك وفى الحياة، رغم أننا منقسمون رؤساء عديدين فإن الأرض التى لنا أرض عامة.

٧ـ أجاب فون فرانسوا: نعم إن ما قاله الكابتن الآن هو صحيح وصواب، وأنا نفسى لا يمكن أن أفعل غير ذلك، أنا لا أقصد أن تقف تحت زعيم آخر ولكن الكابتن يتعين أن يكون متفهمًا أنه لم يجبر على الخضوع للحماية، وأن الأمر متروك لمحض إرادته الحرة فى الاختيار والأمر يتعلق بما يقدره هو ويراه.

وفى هذا السياق فإن فون فرانسوا أوضح أن الشعب الذى يكون تحت الحماية الألمانية هو وحده الذى سيسمح له بالبنادق والذخيرة، وأنه من المحزن أن يرى افتقادهم للذخيرة والرصاص.

وذكر أيضًا معلومات تقول: إن حروب ويت بووى مع الهيريرو قد جذبت انتباه جميع الأمم فى العالم، وأن الألمان والإنجليز والفرنسيين والإسبان والإيطاليين كلهم قرروا بالإجماع منع تصدير الذخيرة إلى هذه البلاد.

[هذه الأخبار أزعجت هندريك ويت بووى الذى لاحظ أنه لايستطيع أن يقدر هذا القرار، وإن مناقشة طويلة تلت بالنسبة لعدالة اتخاذ هذه الخطوة].

٨ـ بعد وقت حصل المبعوث الألمانى على فرصة أخرى للحديث، قال: أعتقد أن الرئيس بعد كل ما قيل وحدث، يمكنه أن يصنع السلام مع الهيريرو، وهم إذا حاولوا أن يرتكبوا خطأ مع شعبك فإن الحكومة الألمانية ستمنعهم وستهتم بمنع ذلك.

وفى الإجـــابة على هذا الحـــديث تفـــادى الرئيس هندريك ويت بووى المناقـشة، وعـاد إلى الأسئلة الخاصـة بالأسلحـة والذخيـرة، وقد أصـرَّ على رفض مناقشة السلام.

* * *

أدرك المبعوث الألمانى أن زيارته غير مثمرة، كما اتضح لويت بووى أن الألمان سيساعدون الهيريرو ضد الهوتنتوت.

بعد هذه المقـابلة تأكد الرئيس العـجوز الذى كـان غيـوراً على حـقوق شعبه أن الألمان لن يتركوه، رغم أنه كان حريصًا على استبقاء علاقات مع التجار الألمان الذين كانوا يجيئون ويذهبون، وكانت قطعان ماشيتهم وسلعهم لا يمسها أحد إطلاقًا، كما كان أيضًا يتجاوب مع الاتصالات الألمانية فى المسائل الرسمية. ففكر بحسه السياسى الأصيل أن يتصل بالمندوب البريطانى وأن يتفاهم معه، فكتب إليه فى أغسطس ١٨٩٢م رسالة يقول فيها:

«من هورن كـرانز إلى المندوب البـريطانى فى خليج ولفش. . أجـدنى ملزمًـا ومـضطرًا ومـدفـوعًـا إلى نصـحك عن الوضع والظروف الذى أعـيش فـيهـا الآن، وأقصد الوضع الخاص بالألمان الذين أتوا إلى أراضينا، إنى أسمع وأرى أشياء هى مستحيلة بالنسبة لى وليست طيبة ولا عادلة، ومن ثم فإنى أكتب لك باعتبارك المندوب الإنجليزى بأمل يشجعنى إليه الصداقة القديمة التى قامت بين جدى الراحل والحكومـة الإنجليزية، وهى صـداقة أعتـرف بها هذه الأيام. لقد رأينا وتعلمنا من التجربة أننا نستطيع أن نتفق مع الإنجليز فى العمل والحياة العادية إذا كان هناك تفكير بأن دولة ما تكون مفضلة فى إفريقيا، إن هذا يقال على الإنجليز؛ لأنهم أول من جاء إلى هذه الأرض، وقد صرنا على تعارف بهم فى العمل وفى الصداقة الشخصية وهى صداقة كافية لنا.

إننى لا أطلب أكثر من الصداقة مع أمة بيضاء، وهذا رأيى عن الحكومة الإنجليزية والصداقة القديمة التى تربط جدى بالإنجليز لا زالت باقية. ولكنى الآن أجد رجلاً آخر هو غـريب تمامًا عنى، إن أحكامه وأفعـاله مستحيلة تمامًا بالنسبة لى وغـير محتملة، ومن ثم فإنى أكتب هذا الخطاب إلى سيادتكم على أمل أن تنصحنى

بالحقيقة الكاملة بالنسبة لتساؤلاتى الخاصة بالألمان الذين جاءوا ؛ لأن أعمال الألمان تنتهك أراضينا ، وتهدد حياتى الشخصية . لقد أتوا لتحطيمى بالحرب بغير أن أعرف ما أذنبته .

لقد قيل لى إنهم فى نيتهم إطلاق الرصاص علىّ ، وإنى أسأل سيادتك أن تجيبنى على السبب لعلك تعرف ؛ لأنكم شركاء فى معاهدة ، إن حكومة ألمانيا عقدت لقاء كبيراً لتناقش لمن تلحق هذه الأرض بغرض عقد اتفاقات الحماية مع رؤساء هذه الأرض وأنتم أيها الإنجليز قد أسلمتم هذه الأرض للألمان .

ولكنك قلت أيضًا فى الاجتماع إنه لن يجبر أحد الرؤساء بالقوة ، وقلت أيضًا إن أى رئيس إذا شاء وتفهم هذه الحماية يمكنه أن يقبلها . . كان هذا هو قراركم فى اجتماعكم وقد وافقتهم عليه بالإجماع ، وقد حدث أيضًا أن بعض الرؤساء قبلوا الحماية الألمانية ، وهم اليوم يأسفون جداً على ذلك ويشعرون بالندم ؛ لأنهم لم يروا نتيجة من هذه العوالم التى كلمهم الألمان عنها .

إن الألمان حدّثوا الرؤساء الإفريقيين بأنهم يرغبون فى حمايتهم من الأمم القوية الأخرى التى تنوى المجىء إلى هذه الأرض بسلاحها وتجرد الرؤساء من سلطانهم بالقوة ، كما تجردهم من أراضيهم ومزارعهم ، ومن ثم فقد كانت دعوى الألمان حماية الرؤساء ضد هؤلاء الظالمين الحمقى ، ولكن بقدر ما رأيت وسمعت بدا لى العكس أن الألمانى هو الشخص نفسه الذى أخشاه وهو الموصوف بما وصف به غيره ، وهو الآن يستظل بقوانين حكومته وبقوتها ، ولا يستجيب لأى نداء يتعلق بالحق أو العدل ، ولا ينتظر إذنًا من أى رئيس .

إنه يطبق قوانين فى هذه البلاد طبقًا لآرائه الشخصية ، وهى قوانين مستحيلة وغير محتملة وغير منطقية وغير مقبولة ولا تتضمن أى شعور بالرحمة .

إنه شخصيًا يعاقب شعبنا فى وندهوك وهو يضرب الناس حتى الموت من أجل الديون ، إنه ليس من العدل ولا من الاستقامة أن تضرب الناس حتى الموت من أجل هذا الأمر . لقد مات أربعة فى برج داماس وواحد من رجال الحمر ، كما جلد الناس بطريقة قاسية وبشعة ، ونحن الذين يرانا الألمان حمقى وأغبياء . . لم نعاقب آدميا قط بهذه الطريقة القاسية غير المعقولة ، لقد مد الناس على ظهورهم وجلدوا على

بطونهم وبين أفخاذهم، سواء كانوا ذكوراً أوإناثا، ولك أن تتصور يا صاحب السعادة أن أحداً منهم لم يعش بعد هذا العقاب .

ثانيًا عندما جاء بعض الداماراا إلى مزرعتى غلبهم النوم من كثرة التعب، فأتى أربعة من الرجال البيض تحت قيادة قائد ألمانى وقتلوا الرجال الستة من الداماراا، ومن ثم فإنه قد قتل فعلاً ١١ شخصاً بغير ذنب بواسطة الألمان، وإنى أكتب لك يا صاحب السعادة عما إذا كنت تعرف بهذه الأشياء والأفعال وعن نوايا هؤلاء الألمان؟».

* * *

ومضى الرئيس فى خطابه الذى ملأ ١٤ صفحة من القطع الكبير، وهو أطول من أن يكتب بنصه هنا، مضى يقول: «إن بلادنا قد اشتريناها بدمائنا مرتين من أيام جدى إلى الآن، ومن الواضح وغير المشكوك فيه أن أراضينا هى لنا طبقًا لكل قوانين الحرب المعروفة، ولأنى رئيس مستقل فإنى لا أسلم نفسى ولا أرضى ولا شعبى للحماية الألمانية».

بهذه النبرة والمنطق الواضح الصريح، فإن الرئيس ويت بووى أشار إلى أن جميع حقوق التجارة والامتيازات فى أرضه كان قد أعطاها جده إلى الرجل الإنجليزى، وهو يتساءل بالرغم من ذلك ويقول: «أيها الصديق الإنجليزى القديم هل سلمتنى إلى أيدى الألمان؟».

أرسل ويت بووى الخطاب إلى المندوب البريطانى وسلمه باليد أحد رجاله، وقد تأكد أن الخطاب قد استلم وأرسل إلى حكومة الكاب، ثم انتقل إلى حكومة الإمبراطورية البريطانية فى أكتوبر ١٨٩٢م.

انتظر هندريك ويت بووى رئيس قريته المسماة هورن كرانز نتائج هذا الاتصال، وكانت نظرته واضحة عن السلام مع الهيريرو ومع أى جماعات أخرى، وقد حكم شعبه وسوى المنازعات وأقام الخدمات الدينية وكتب الرسائل، ولكن هذا الهدوء لم يستمر مدة طويلة . فمع بداية ١٨٩٣م زادت الحامية الألمانية إلى ٢٥٠ جنديًا وزودت بمدفعيتين، ورغم أن اتفاقية سلام عقدت بين الهيريرو والهوتنتوت جعلت

التدخل العسكرى الألمانى غير ضرورى، فقد تلقى الكابتن فون فرانسوا من السلطة الألمانية تعليمات لإقامة الهيمنة الألمانية، وترك له أن يحقق ذلك بوسائل الهجوم أو الدفاع، وعليه أن يجعل الأجناس المحلية تشعر بقوته. وقد اعتبر فون فرانسوا أن ويت بووى مناسب لهذا الغرض وأن إذلاله سيؤدى إلى أعظم تأثير فى الآخرين.

عرض الألمان الحماية على ويت بووى مرة أخرى، فصاح هذه المرة فى وجه القائد العسكرى فون فرانسوا: الحماية؟ . . كل شخص تحت الحماية يكون خاضعًا لذلك الذى يحميه؛ وأنا أرفض الخضوع لأحد.

تم الهجوم على حصن ويت بووى وأسر الألمانُ النساءَ والأطفال، وهرب ويت بووى ورجاله المحاربون إلى الجبال المحاطة بالصخور، وطلب ويت بووى نجدة الهيريرو ولكنهم لم يجيروه. وعندما طلب إليه الحاكم الألمانى التفاوض لإقرار السلام أجابه ويت بووى «إننى لم يطلق علىّ النار لذنب جنيته بالقول أو بالعمل بل لمجرد أننى أرفض التسليم، والتسليم هو أمر يتعلق بى وهو حق لى، وإنى لا أفرط فى استقلالى».

فغيّر الألمان عرض التسليم بالهدنة فقبلها ويت بووى؛ آملاً أن يتمكن من جمع فلول رجاله المقاتلين، وبناء الاستحكامات وساد الهدوء عدة أشهر، وبينما كان ويت بووى يتمتع بما أسموه بالهدنة ولا تساوره الشكوك فى استئناف العمليات العسكرية، فوجئ باحتلال القوات الألمانية خطوط دفاعه وقذفت حصنه بالرصاص ودكته، وبعد ثلاثة أسابيع كانت قواته تموت جوعًا وتقتات الجراد.

وحسب كلمات الحاكم الألمانى السابق ليتوين ووصفه المختصر لهذه العملية التى تتسم بالخيانة يقول: « فى ظل المحافظة على أقصى درجات السرية، فإن القوات اقتحمت هورن كرانز مقر ويت بووى فى صباح ١٢ أبريل. لقد كان الرئيس فى الظاهر يعتمد على الإعلان الرسمى للحرب؛ لذلك فقد أخذ على غرة، وكان يشرب قهوة الصباح باطمئنان وسلام، ومع ذلك فقد استطاع أن ينجح فى المحافظة على نفسه وكذلك أمكن المحافظة على أغلب قواته المقاتلة ولم يقع تقريبا فى أيدى الغزاة إلا الزوجات والأطفال».

وكتب الكابتن «شواب» وكان فى المقدمة مع القوات الألمانية تحت قيادة فون

فرانسوا ، كتب يصف القتال قائلاً : «وفجأة فإن مقاتل هوتنتوتى قفز من خلف صخرة وأسرع حتى أدرك العساكر المتقدمين ، وقد أصيب فى صدره وانفجرت من ضلوعه الدماء . وفى كل الجوانب فإن مناظر مرعبة ظهرت لنا ، وخلف الشجر ظهرت جثث لسبعة من رجال ويت بووى ، وفى مكان آخر فإن جسد امرأة من برج دامارا كان يسد الطريق ، وأطفالاً ما بين الثالثة والرابعة من عمرهم مقتولون بجوار جثة أمهم .

إن الصحف الإنجليزية قد أدانتنا وهاجمتنا على أساس أننا فى هورن كرانز قتلنا النساء والأطفال ، وأن جنودنا لم يتركوا طفلاً ولا امرأة ، وقد هاجمونا بشكل غير منصف ؛ لأننا كنا حتى فى أثناء إطلاق النار نستطيع أن نميز بين الرجال والنساء وبالتأكيد لم نقتل امرأة[1] . . لقد وجدت كهوفًا محروقة وبشراً وبقايا حيوانات متناثرة ، وكانت هذه هى الصورة التى رأتها أعيننا . وكانت زوجة الرئيس ويت بووى وابنته التى لم تتجاوز التاسعة عشرة من العمر بين المسجونين ، وقد وقفت الابنة دون أى تعبير عن الخوف وأجابت على أسئلتنا بحرية وبكبرياء وقالت لنا : «لقد سمعت أنكم أتيتم من وراء البحر فى سفينة لكى تحاربوا أبى ، وكان النصر حليفكم اليوم ، ولكن الحظوظ تتغير ، وإذا قبلتم نصيحتى فعودوا إلى بلادكم ؛ لأنه لن يمضى وقت طويل حتى يعود أبى مثل الأسد وينتقم منكم» .

ولكن لم يتحقق حلم الابنة ، وأدرك هندريك ويت بووى وهو الرئيس الدائم لناماكوالاند الكبرى Great Nama Qualand أنه صار رعية ألمانية ، وهو الذى لم يتباطأ فى تقدير الخطوات التى يتعين اتخاذها لمصلحته ومصلحة شعبه ، ولم يكن أمامه إلا أن يبدأ مفاوضات السلام مع الهيريرو . وفى أغسطس ١٨٩٣م وقعت معاهدة السلام وانتهت مرحلة إخضاع ألمانيا للهوتنتوت لتبدأ مرحلة إبادة ألمانيا لأصدقائها الهيريرو .

---

(١) لقد نسى أن يضيف أن الألمان هم من بدءوا فى إطلاق النار فى الأوقات الأولى من الفجر على الأكواخ التى كان ينام فيها الرجال والنساء والأطفال ، وأنهم كانوا يعلمون جيدًا أنه لا بد أنه قد قُتل فى ذلك نساء وأطفال .

ثورة الهيريرو

صار الهوتنتوت الذين كانوا أشد المعارضين للألمان حلفاءً خاضعين لهم، وانقلب الوضع، وبعدما كان الهيريرو حلفاء الألمان صاروا أكثر القوى المعارضة لهم؛ ذلك أنهم كانوا قد قبلوا حماية الألمان باتفاقية من غير إدراك كامل لها، ووجدوا أرضهم ومواشيهم لم تعد ملكًا لهم، فأعلنوا الثورة التى استمرت أكثر من أربع سنوات، وكبدت الألمان خسائر فى الأرواح بلغت خمسة آلاف جندى ومستوطن ألمانى ونفقة تبلغ ١٥ مليون جنيه استرلينى.

كان من أسباب الثورة احتلال الألمان لأراضى القبائل، والوسائل الوحشية التى مارسوا بها سيطرتهم، وحوادث أخرى من التجار البيض وفقدان الصبر وقسوة الحكم الأبيض، كما كان قرار احتلال جنوب غرب إفريقيا يعنى شيئًا واحدًا لألمانيا، وهو أن تقوم القبائل بتسليم الأرض التى كانت ترعى فيها ماشيتها؛ وذلك ليتاح للرجل الأبيض امتلاك الأرض والماشية، وأيضًا الحصول على الماس(١) الذى اكتشف بكميات وفيرة على سطح التربة الرملية فى إقليم لودريتز، وكانت إحدى الصعوبات التى تواجه استغلاله هى الندرة الكبيرة فى الماء وإغارات القبائل.

وما أن حل عام ١٩٠٣م حتى كان الألمان قد استولوا على نصف عدد ماشية الهيريرو؛ وذلك بإجراء الصفقات التجارية التى وصفت فيما بعد بأنها سرقة تتسم بالصفاقة، وفى هذه السنة مات كماهيريرو منشئ وطن الهيريرو، وعين الألمان ابنه صامويل كماهيريرو خليفة له، وكان تفضيل الحكومة له دون اعتبار لمن يراه الهيريرو أحق منه، وأحدث ذلك انقسامًا شديدًا فى القبيلة.

فزعت جماعة الهيريرو لما رأت المعاهدات تفسخ والقسوة التى استخدمت فى إحلال النظام الألمانى الجديد بدلاً من حكم زعماء القبيلة وعرفها القبلى القديم، وكان الحاكم الألمانى يستبد بالضعفاء الذين يخالفون معاهدات الحدود؛ مما أدى إلى مصادرة ماشية الهيريرو التى تجتاز الحدود، فضلاً عن فقدانهم لأراضيهم، ولم تكن القبائل تعرف معنى الملكية الخاصة بالأراضى.

---

(١) بعد القضاء على ثورة القبائل هناك وإخضاعهم تمامًا ١٩٠٨م أسست عدة شركات لاستغلال منطقة الماس، وكانت أول شحنة للماس تصل من هذه المستعمرة إلى ألمانيا فى عام ١٩٠٩م، وبلغ محصول هذه السنة مليون جنيه استرلينى.

ورويداً رويداً استيقظ الهيريرو ليجدوا أن الأرض التي كانوا يتجولون في أنحائها وعيون الماء التي كانوا يستخدمونها صارتا ملكًا للآخرين، وكانت مصادرة السلطات الألمانية لعدد كبير من الماشية قد حول غضب الهيريرو إلى رغبة جامحة في القتال، ولما طلب زعماء الهيريرو في المنطقة الشرقية استرداد بعض أراضيهم رفض الحاكم الألماني طلبهم بقسوة، وأعدم اثنين من زعمائهم لإرهاب الآخرين، يصف الكتاب الأزرق مشهد إعدامهما «بأنهما حُملاَ حَمْلاً من عربة النقل، وبكبرياء وبرأس مرفوعة مشيًا نحو الشجرة التي ربطا فيها، كان الرعب قد جعلهما بين الموت والحياة وكان يجب تغطية عيونهما، ومضت جماعات إطلاق النار إلى أماكنها. . أوامر مقتضبة. . انتبه. . أطلق النار، ودوَّت طلقات البنادق في وقت واحد عبر الجبال المجاورة كأنها الرعد وانتهت حياة المتمردين».

أشعل هذا الحادث الثورة في النفوس، وفي ١٢ يناير ١٩٠٤م بدأت الحرب، كان جميع زعماء الهيريرو في ميدان القتال، حاربت جماعات الهيريرو ببنادق عتيقة وكانت ذخيرتهم قليلة، ومما عاقهم عن العمل في الميدان وجود زوجاتهم وأطفالهم ومواشيهم. واستدعيت للقتال قوة إضافية من القوات الألمانية العسكرية، **وأعلن القائد الألماني ڤون تروثا أنه في إطار الحدود الألمانية فإن كل هيريرو سيضرب بالرصاص، سواء كان معه سلاح أو لم يكن، وسواء كانت لديه ماشية أو لم تكن، وأنه لن يقبض على النساء والأطفال ولكنه سيبعدهم إلى الصحراء حيث يموتون جوعًا وعطشًا أو يرميهم بالرصاص.**

وفي أغسطس كانت بنادق الألمان السريعة الطلقات قد أجهزت على مؤخرة الثورة، واقتحم الهيريرو يائسين خطوط الألمان، وولت الجماعة كلها الأدبار إلى المناطق الجبلية النائية متجهة نحو الشمال، وهي أراض رملية لا ماء فيها، وهرول أنصار صامويل كماهيريرو إلى الصحراء وإلى بتسوانا المَجاورة حيث كان منفاهم.

لقد ضيقت الحملة الشعواء المميتة جميع السبل، وحكم على الهيريرو بالموت، وتبعثروا بلا حول لهم ولا قوة وقد تحطمت أطرافهم، وخارت قواهم وهم يتألمون وصار بعضهم جثثًا هامدة.

انتهت الحملة وكان يمكن للألمان الاتفاق لإقرار السلام، إلا أن الجنرال الألماني

ڤون تروثا لم يكن على استعداد للاتفاق، إلا بعد أن يخوض الحرب حتى النهاية ويجعل من الثائرين عبرة لغيرهم، فقتل بالرصاص زعماء الهيريرو الذين استدعاهم من الميدان لمناقشة شروط السلام. وقال ڤون تروثا : إنه من المستحيل التفاوض حول السلام ما بقى زعماء الهيريرو، وضرب حصار حول المنطقة وسد فى وجوههم طرق الهرب وأصدر أمره بالإبادة.

أثارت الأحداث جميع قبائل جنوب غرب إفريقيا، وأظهروا سخطهم الشديد على الإدارة الألمانية إلى حد أن الرئيس الهوتنتوتى ويت بووى الذى كان قد بلغ فى ذلك الوقت الثمانين من عمره، جمع حوله كل قبائل الجنوب، وأعلن إنكاره للمعاهدة التى كان قد عقدها مع الألمان التى كانت تسرى لمدة عشر سنوات، وقاد رجاله مرة أخرى إلى الحرب.

واستمرت القبائل فى حرب عصابات بروح بائسة لمدة عام، ثم قتل الرئيس ويت بووى وهو يؤدى واجبه، وكان ڤون تروثا قد قرر مكافأة مالية لمن يأسره حيًا أو ميتًا، ولكى يحول أتباعه وقوع جثته فى يد العدو حفروا قبراً له فى ميدان القتال على وجه السرعة ودفنوه، ثم غطوا القبر بالحجارة.

ولما مات ويت بووى خلفه ابنه الذى قبلَ الاستسلام، ولكن رفض ذلك عدد من رؤساء الهوتنتوت بزعامة مورنجا، وواصلوا الصراع فى موقع متاخم لحدود محمية بتسوانا البريطانية، وعندما أحيط بهم هرب مورنجا إلى بتسوانا واختبأ فيها، وكانت حكومة الكاب اعتبرت هذا الزعيم لاجئًا سياسيًا، ورفضت تسليمه للألمان ومنحته حق الإقامة، ولكن مورنجا ترك المكان فى بداية أغسطس ١٩٠٧م مضللاً حراس الحدود، ودخل الأراضى وشن عدة هجمات ولما أحيط به عاد إلى المحمية البريطانية، ولكن سلطات الكاب نظمت قوة للقبض عليه وتابعته إلى الصحراء بلا ماء، وعندما بوغت مورنجا مع عشرة من أتباعه، حدث اشتباك عنيف بينهم قتل فيه مورنجا وخمسة من رجاله. وبمقتل مورنجا زالت عقبة خطيرة أمام تحقيق السيطرة فى المحمية. واستمر القتال عامين آخرين من بعده، ثم اضطرت القبائل رويداً رويداً إلى التسليم وانتهت الحرب الفعلية فى بداية عام ١٩٠٩ م، واقتيد الهيريرو والهوتنتوت بعد الهزيمة جنبًا إلى جنب داخل السجون ومعسكرات العمل.

* * *

قضت الحرب على المقاومة القبلية، وقضت كذلك على الأيدى العاملة فى المستعمرة الألمانية، واستعان الحاكم الألمانى بالمبشرين؛ كى يشجعوا أولئك الهيريرو الذين كانوا لا يزالون يهيمون فى أرجاء الأرض على الالتجاء إلى المعسكرات. وكانت ممتلكات الهيريرو قد اعتبرت أملاكًا حكومية، وحرم عليهم الاحتفاظ بالماشية، وخرج الأحياء الذين كانوا يموتون جوعًا من الصحراء، كما خرجت الجماعات التى كانت مختبئة، واضطرت النساء السجينات إلى العمل فى مد السكك الحديدية، وقد اعتقل منهن الآلاف حيث كن يعشن فى حظائر ضرب حولها السياج، وكانت النساء يُجمعن فى فرق تتكون كل منها من ثمان يُربطن معًا بحبل ويقمن بجر عربات تسير على قضبان.

كلفت الحرب بضعة آلاف من ملايين الماركات وعدة آلاف من الجند الألمان، وإذا كانت الدعائم الثلاث للثروة فى المحمية هى التعدين والزراعة والعمل الذى يؤديه الأهالى، فقد دمرت الزراعة تمامًا وقُضى على ثلثى العنصر الأخير عنصر العمل، فقد هبط عدد الهيريرو من ثمانين ألفًا من أبناء تلك القبائل الغنية بماشيتها إلى ١٥ ألفًا من الآدميين الهاربين الذين يقضى عليهم الجوع.

وكان «هندريك ويت بووى» و«چاكوب مورنجا» آخرا المحاربين القبليين، اللذان كانت لهما سمات الأبطال، واللذان امتطيا صهوة الجياد فى عصر الحرب الآلية، قد تصديا للمعارك من أجل توفير الرعى، فغلبتهما قوة أوروبا المسلحة، لقد أدار المبشرون والتجار رءوس الإفريقيين ونهبهم التجار الذين لم يكونوا يروجون لسلعهم فحسب، ولكنهم روجوا لما يترتب على هذه التجارة من فوائد للحضارة المسيحية، ومما يدعو للأسى أن الإفريقيين الذين تفرقوا لاختلاف سلالاتهم وتاريخهم ولغاتهم وعاداتهم، لم يدركوا المصير المشترك الذى يريده العدو للإجهاز عليهم، وذلك قبل أن يعرفوا القومية الإفريقية التى تنادى بوحدتهم. ومع ذلك فإن عظمة ويت بووى قد جعلته نوعًا من هذه القومية.

كيف استولى الألمان على الأرض والماشية؟

إن السيطرة الحكومية الألمانية الفعلية على البلاد قد حدثت فى عام ١٨٩٤م

عندما تولى الميجور «تيودور ليتوين-Leutwein» الحكم بدلاً من فون فرانسوا، وعين الحاكم الأول على جنوب غرب إفريقيا الألمانية. هذا الميجور هو الذى مارس سياسة سرقة الأرض ومن عليها من بشر وماشية. وفى عام ١٩١١م أصدرت السلطة الألمانية فى جنوب غرب إفريقيا بعد قمع ثورة الأهالى إحصاء رسميًا، وبمقارنة هذا الإحصاء بالبيانات السابقة عند بدء الثورة وما قبلها، نجد أن هذا الشعب قد أبيد تمامًا ماديًا ومعنويًا.

قدر المفاوض البريطانى پالجريف فى تقريره المعد ١٨٧٧م أن تعداد الأهالى فى عام ١٨٧٦م كما يلى[١]:

١ ـ قبائل الأوفامبو تبلغ ٩٨ ألفًا.

٢ ـ الهيريرو ٥٨ ألفًا، قبائل برج دامار ١٢١ , ٣٠، الهوتنتوت المقيمون معهم ١,٥٠٠، الباستارد ١,٥٠٠، البوشمان ٣,٠٠٠.

٣ ـ ناماكوالاند الكبرى ومختلف قبائل الهوتنتوت ١٦,٨٥٠.

يكون الإجمالى العام لكل الأجناس ٢٣٥,٨٥٠.

ويقدر الحاكم الألمانى ليتوين عدد الأهالى وقت وصوله ١٨٩٤م، أن الأوفامبو ١٠٠ ألف، والهيريرو ٨٠ ألفًا، والهوتنتوت ٢٠ ألفًا، الباستارد ٤ آلاف، البرج دامارا ٤٠ ألفًا. المجموع الكلى ٢٤٤ ألفًا.

وفى كتاب آخر منشور فى ١٩٠٤م فإن الكابتن «شواب» من الجيش الألمانى سبقت الإشارة إليه عندما أراد أن يصحح التقرير الخاص بأهالى برج دامارا والبوشمن ذكر تقديرًا مختلفًا أتى بالأرقام التالية المتعلقة بالقبائل الأخرى، وذلك فى أول يناير ١٩٠٣م: الأوفامبو ١٠٠ ألف إلى ١٥٠ ألفًا، والهيريرو ٨٠ ألفًا، والهوتنتوت ٢٠ ألفًا، والباستارد ٤ آلاف.

(١) يلاحظ أن تعداد السكان المقدر هنا وفى أماكن أخرى من الكتاب لم يكن يتم بمناهج علمية دقيقة إنما كان يجرى بالتقريب ويحتمل الزيادة والنقصان كما يحتمل الاختلاف باختلاف الكتّاب واختلاف الأزمنة، وهو وإن كانت أرقامه تقريبية إلا أن دلالته التاريخية والسياسية صحيحة خصوصًا أن الأرقام متقاربة وأن المعنى المستخلص منها معنى واحد.

كما يشاهد بالنسبة للهيريرو والهوتنتوت، فإن هذه المصادر المستقلة تمامًا عن بعضها، وهي تتعلق بسنوات ١٨٧٦م، ١٨٩٤م، ١٩٠٣م على التوالي تعطي ذات الأرقام والتقديرات. إن المنطق والشواهد يدلان على أن السكان من الهيريرو والهوتنتوت كانوا في ١٩٠٤م حوالي ٨٠ ألفًا من الهيريرو وحوالي ٢٥ ألفًا من الهوتنتوت.

وفي عام ١٩١١م بعد عودة الهدوء وقمع المتمردين جميعًا، فإن حكومة ألمانيا بجنوب غرب إفريقيا قد أجرت تعدادًا، وبمقارنة الأرقام تظهر أن الهيريرو الذين قدروا عام ١٩٠٤م بـ ٨٠ ألفًا قد أثبت التعداد الرسمي في ١٩١١م أن عددهم صار ١٥ ألفًا بنقص قدره ٦٤ ألفًا و ٨٧٠ فردًا.

والهوتنتوت الذين قدروا عام ١٩٠٤م بـ ٢٠ ألفًا، أظهر الإحصاء الرسمي ١٩١١م أنهم ٩ آلاف و٧٨١ فقط بنقص قدره ١٠ آلاف و٢١٩ فردًا.

والبرج دامارا الذين قدروا في ١٩٠٤م بـ ٣٠ ألفًا، أظهر الإحصاء والتعداد الرسمي ١٩١١م أنهم ١٢ ألفًا و٨٣١ فردًا، بنقص قدره ١٧ ألفًا و١٦٩ فردًا.

والمجموع الكلي للقبائل الأربع قدر ١٩٠٤م بـ ١٣٠ ألفًا وأثبت تعدادهم في الإحصاء الرسمي ١٩١١م أنهم ٣٧ ألفًا و٧٤٢ فردًا بنقص قدره ٩٢ ألفًا و٢٥٨ فردًا. وبكلمات أخرى فإن ٨٠٪ من الهيريرو كان قد اختفى، وأكثر من نصف الهوتنتوت والبرج شاركوهم ذات المصير.

وفي نفس وقت الإلحاق بألمانيا كان الهيريرو يشغلون جنوب غرب إفريقيا، وكان مجال نفوذهم يمتد من «سواكو بموند - Swakopmund» في الغرب حتى حدود صحراء كالاهاري في الشرق ومن جبال «أوتجو - Outgo» في الشمال حتى وندهوك وجوبابس في الجنوب. ومن المؤكد أن الهيريرو باستثناء الفترة التي كانوا فيها خاضعين جزئيًا ومؤقتًا للهوتنتوت ١٨٣٠م - ١٨٦٤م، فقد كانوا سادة أنفسهم في هذه المنطقة. وإن أبناء هؤلاء كانوا يحبون الماشية وينظرون إلى تربية المواشي والرعي وجمع قطعان الماشية باعتبار مصيرهم واحدًا؛ لذلك كانت الكارثة التي لاقاها شعب الهيريرو من التجار الألمان والحكومة الألمانية ذات تأثير مدمر على عقل هذا الشعب.

إن الهيريرو شأنهم شأن كل الأهالى لم يكن لديهم تصور عن الطبيعة الشخصية للحكومة كما هى فى أوروبا، كانوا ينظرون إلى الشخص من رؤسائهم باعتباره أصل النشأة للحكومة وهو مثل الملك لا يخطئ وهو غير قابل لأنْ يُخلع ولا أن يُحاكم أمام أى مجلس وشخصه مقدس طوال حياته وبعد مماته، وعندما تزهق روحه تنضم إلى أرواح أسلافه الكبار وقبره يكون مكانًا مقدسًا(1).

إن الرئيس يطبق القوانين والعادات الخاصة بقبيلته ويحفظ الطقوس والشعائر القديمة، وما يدفعه فى ذلك ويحثه هو الخوف من أرواح السلف وسلطة الروح المقدسة التى صنعت العالم وخلقت مكانه.

ولم تنتهك عادات الناس فى هذا الشأن وتنتهك مشاعرهم إلا بعد أن أقام الألمان والسياسة الألمانية صمويل كماهيريرو وجعلوه أداة لتنفيذ سياستهم.

كان الهيريرو يعيشون فى نظام شبيه بالاشتراكى يسمى «إندا-Enda»، كان يجعل من المستحيل ترك الفقراء من الهيريرو بغير مواد الغذاء ووسائل الإعاشة، وإذا لم يكن الشخص يحوز قدرًا من الملكية، بسبب الأمراض أو سوء الحظ، كان يلجأ إلى الإندا الخاص به ليحصل على مال يقترضه.

ويشير پالجريف إلى واحد من الهيريرو تحت رئاسة «كمبازمبى» أحد رؤساء القبيلة كان يحوز ١٠٠ ألف رأس من الماشية، وعندما توفى كمبازمبى نفسه ١٩٠٣م قيل إنه كان يحوز ما يزيد عن ٢٥ ألفًا من رءوس الماشية، ويفترض أنه من ضمنها ما يخص الإندا التى تكون تحت رعايته.

وعندما ألحقت ألمانيا البلاد بها ١٨٩٠م كان لدى شعب الهيريرو ما يزيد عن ١٥٠ ألف رأس من الماشية، والكارثة التى حدثت فى ١٨٩٧م دمرت تقريبًا ما يزيد عن نصف هذا العدد أو ما يبلغ نحو ٩٠ ألف رأس.

وفى سنة ١٩٠٣م كانت قيمة ما صدر من الماشية من كل البلاد هى ٢٣ مليونًا و٣٣٧ ألفًا و ٦٨٢ مارك ألمانى تساوى أكثر من مليون جنيه استرلينى.

وفى سنة ١٩٠٥م كان من بقى حيًا من الهيريرو قد انحدر إلى مستوى المعدمين ولم يكن يملك شيئًا.

---

(1) إن الألمان قبل تمرد الهيريرو انتهكوا قداسة المكان المقدس الذى يدفن فيه الرؤساء الكبار جاموها وكماهيريرو فى أوكاهنجا وحولوه إلى مزرعة للخضروات رغم كل الاعتراضات التى أبديت.

وفى سنة ١٩٠٧م أصدرت حكومة ألمانيا الإمبراطورية قراراً بمنع امتلاك الأهالى فى جنوب غرب إفريقيا ماشية كثيرة ومنع حيازتهم لها.

* * *

إن قصة التجار الألمان وكيف سرقوا الهيريرو وماشيتهم لمساعدة حكومتهم هى من أكثر القصص سواداً وإظلاماً فى التاريخ الألمانى فى جنوب غرب إفريقيا. وإن السرقة بالجملة وبدون حياء لماشية الهيريرو بواسطة الألمان كانت أحد الأسباب الرئيسية لقيام انتفاضة الهيريرو ١٩٠٤م. وقد كانت هناك أسباب أخرى ولكن كلها كانت ترجع إلى القمع الذى يمارسه الألمان ومساوئ حكمهم، وأحد هذه الأمور أنهم دسوا صمويل كماهيريرو باعتباره الرئيس الدائم وفرضوه على الهيريرو بعد وفاة الرئيس كماهيريرو ١٨٩٠م؛ وأدى ذلك إلى انشقاق الهيريرو إلى قسمين واستغلال أحد القسمين ضد الآخر، وهى سياسة فرّق تسد.

إن الوريث الشرعى لكماهيريرو كان المفروض أن يكون نائب الرئيس على الهيريرو الشرقية «نيكودينس-NikoDenus» الذى كان الابن الأكبر لشقيق كماهيريرو، واعترف به رئيساً للاوروز. ولم يكن لكماهيريرو أولاد من زوجته الرئيسية وكان صمويل ابنا من زوجة غير شرعية فلم يكن وريثاً لأبيه وكان فقيراً، وكان فقره من المؤهلات من وجهة النظر الألمانية.

وعندما أنشئت وظيفة الرئيس الدائم كان من المنطقى أن تستخدم لصالح الألمان، وأتت هذه الفرصة ١٨٩٤م عندما صار ليتوين حاكماً.

وكما ذكر من قبل أنشأ الألمان نقابة للأراضى وقد جاء المهاجرون ليستقروا فى الأرض، وكان الأهالى يتمسكون بملكيتهم للأرض ولم يقبلوا أن يعطوها لغيرهم، ولكن النقابة تحت هيمنة الشركة الاستعمارية الألمانية ادعت ملكيتها ٥٠ ألف كيلو متر مربع شرق وندهوك وتمتد حتى جوبابس وموشاناس، وتم هذا العمل بناءً على توصية د. كارل دوف الذى كان يشرف على المنطقة، ولكن القوات الألمانية المحتلة للمنطقة لم تكن قوية إلى الحد الذى تستطيع به أن تحمى هذه الأراضى، وأجل الادّعاء فترة وكان ذلك عام ١٨٩٢م.

وجدت الإدارة الألمانية أن أقصر طريقة عملية وأمينة للحصول على الأرض هى

شراؤها من الرؤساء، ولكن لم تجد هذه الفكرة قبولاً من الألمان المهاجرين. وقد ذكر فون فرانسوا فى أبريل ١٨٩٣ م أن وكلاء النقابة تصرفوا بتهور وأطلقوا الوعود التى لا يستطيعون تحقيقها، وطلب من برلين أن تسيطر على هذه المسألة وتعالجها، ولكن د. كاير مدير المستعمرات فى برلين رفض هذا الطلب، وذكر أن على النقابة أن تستمر فى عملها.

استمر المهاجرون فى الوصول وأخذ المزارع والأراضى، وفى ١٨٩٤م قرر ليتوين حل المشكلة حلاً حاسمًا فذهب إلى أوكاهنجا فى ديسمبر ١٨٩٤م، ووقع اتفاقًا مع الرئيس صمويل كماهيريرو تحددت به المنطقة بالحدود الجنوبية لأراضى الهيريرو.

ووعد الرئيس صمويل كماهيريرو براتب سنوى قدره ألفى مارك ألمانى (١٠٠ جنيه استرلينى) يدفع كل ستة أشهر على أساس أن خط الحدود الجنوبى قد تحدد وأن الهيريرو سيحترمونه وأن ماشيتهم ستخلى هذه الأراضى التى صارت تابعة للحكومة الألمانية. وهذه الحدود تمتد أكثر من ٤٠٠ ميل، ولم يكن صمويل كماهيريرو معترفًا به من الرؤساء الآخرين. وكانت الحدود الجنوبية للمنطقة التابعة له أوكاهنجا أقل من سدس خط الحدود، وبهذا الاتفاق وجد رؤساء الهيريرو الآخرين (ذكريا وجتجو ونيكوديمس وكهيمينا) أنهم قد جردوا من حقوقهم وأملاكهم التى آلت إليهم من أسلافهم عبر الأجيال الماضية.

ومع تحديد خط الحدود هذا فقد كان من أسهل الأشياء بالنسبة للألمان أن ينتهكوها وأن يمنعوا الغير من انتهاكها. وإن خط الحدود بغير سياج لم يكن يعنى شيئًا بالنسبة للهيريرو الذين يرعون ماشيتهم بجواره.

ومع نهاية ١٨٩٥م كان فى مقدور ليتوين الحاكم الألمانى أن يتخذ حركته التالية، أبرم اتفاقًا (كان خاصًا وسريًا ولم يوجد فى سجلات وندهوك) مع صمويل كماهيريرو يمكّن الحكومة الألمانية من السيطرة على كل قطيع من قطعان ماشية الهيريرو يوجد عابرًا لهذه الحدود.

لم يكن ثمة مسألة تتعلق بتحذير الملاك أو إعادة الماشية لهم، فقد كان المستوطنون والنقابة فى حاجة ماسة إلى الماشية وإلى أعمال التجارة فيها. وقد ذكر ليتوين: «أن القطعان المصادرة ستباع وتقتسم بين حكومة ألمانيا والرئيس صمويل كماهيريرو.

وفى حين أن مصادرة الماشية بهذه الطريقة تؤدى إلى الحرب فإننا بالوسائل المشار إليها بالاتفاقية أمكن أن نحصل على وضع شرعى» .

وبمعنى آخر فهو يقصد أنه من ذلك الوقت فإن أى رئيس من الهيريرو يحاول أن يحمى قطيعه من المصادرة لن يكون مستندًا على وضع شرعى، ومن ثَمَّ يمكن أن يُقتل باعتباره متمردًا، وهذا بالضبط ماحدث للرؤساء نيكوديمس وكهيمنا .

نازع الرؤساء المحليون صمويل كماهيريرو فى حقه فى تحديد خط الحدود، وكانوا على صواب من الناحية القانونية . وتجاهل الألمان اعتراضات هؤلاء وصادروا الماشية التى وجدوها عند هذه الحدود، وخوفًا من أن يؤدى هذا إلى اضطرابات سياسية فقد كان الألمان حريصين لا على الحصول على قطعان الماشية فقط، ولكن على السيطرة على أراضى هؤلاء القوم فقرروا تجريد الأهالى من أسلحتهم .

رفض الرؤساء أن يلقوا بأسلحتهم فشن الألمان حملة عليهم وأسروهم وحوكموا محاكمة عسكرية وأعدموا بإطلاق الرصاص عليهم باعتبارهم متمردين، واستولوا على أعداد ضخمة من الماشية والأغنام التى كانت مملوكة لهم ولشعبهم وصادرتها الحكومة الألمانية عقابًا لهؤلاء المتمردين .

أخذ الأهالى المرعوبون عائلاتهم وقطعانهم وساقوها شمالاً بعيدًا بقدر الإمكان عن الحدود الجنوبية أو عما سمّى بالحدود الجنوبية . وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة المعقولة والممكنة التى كانوا يقصدون بها المحافظة على ملكيتهم .

أربكت هذه الحركة الإدارة الألمانية ويصف روربخ هذا الأمر بقوله : « لقد كانت الضرورة الرئيسية لتأسيس الوجود الاستيطانى الجديد هى مد المستوطنين بالماشية، وكانت كل مزرعة جديدة تؤسس تتطلب أن تمدها بالماشية فضلاً عن أشياء أخرى، وكان ذلك يعنى بالنسبة للمزارع الألمانى الوافد حديثًا أن عليه فى بدء عمله كمزارع أن يدخل فى تجارة مع الهيريرو ليحصل على الأبقار التى يحتاجها .

وفضلاً عن تربية الماشية فإن مستقبل المزارع كان يتوقف على حصوله على ثيران الجر و النقل، وكان الهيريرو هم المنتجين الرئيسيين لهذه الثيران؛ لذلك فعندما انتقل الهيريرو بعيدًا عن الأرض المصادرة وجد الألمان عجزًا فى الحصول عليها ، وأن

عليهم أن يذهبوا إليهم ويتاجروا معهم لشراء الثيران، وكانت تقدر بأثمان بخسة ويضطر الهيريرو لقبولها فلم تكن هناك محاكم يلجأون إليها ولا توجد شرطة تحميهم».

ويفهم الآن أنه مع حلول ١٩٠٣م فإن أكثر من نصف الماشية التى كانت موجودة فى أراضى الهيريرو صارت فى أيدى الألمان.

وحتى بعد ١٩٠٣م عندما أنشئت المحاكم الألمانية لم يكن الأهالى مسموحًا لهم بأن يؤدوا اليمين الذى يثبت حقًا ما. ويمكن التذكير هنا بأنه فى المحاكم فإن دليل الإثبات الذى يقدمه الرجل الأبيض يرجح أقوال سبعة من الأشخاص الملونين. وهكذا فقد كان باستطاعة الرجل الأبيض أن يحصل على الماشية من غير أن تساعده الحكومة ماليًا من الأرض المأخوذة من الأهالى، كما أجبر الأهالى على الدخول فى خدمة الرجل الأبيض وصاروا يعملون فى خدمة قطعان الماشية التى كانت من قبل ملكًا لهم.

لماذا أباد الألمان الهيريرو؟

كتب د. كارل دوف الألمانى يقول: «فى حين أن الهيريرو الفرد لا ينظر إليه كشخص شجاع جدًا، فإنه يتعين ألا ينظر إليه أيضًا باعتباره غير مؤذ، على العكس فإن الخطر الرئيسى منهم يأتى من عددهم، وأن عددهم هذا سيبقى مهددًا لنا ولأمتنا على الدوام فعددهم هو التهديد الحقيقى الذى يواجهنا؛ لذلك فإن الشفقة بالأهالى هى فى ذاتها قسوة تجاه البيض». وقد صارت هذه الكلمة القاعدة التى تحكم المستوطن الأبيض والجندى الأبيض والتاجر والشرطى، وكانت هى أيضًا تمثل السياسة المستقرة والمقبولة والمتفق عليها من الحكومة.

وعلى هذا فإن المستوطن الألمانى الذى يساعد فى تقليل عدد الهيريرو ينظر إليه باعتباره يقدم خدمة عامة. ولا يوجد شك فى أنه خلال الفترة من ١٨٩٠م - ١٩٠٤م أبيدت أعداد كبيرة جدًا من الهيريرو بطريقة أو بأخرى، أو ماتت بفعل الجلد بالسياط شديدة القسوة وسوء المعاملة.

ورغم ذلك فإن هذا القتل قد جرى التعامل معه بخفة، فإما أن يتغاضى عن هذا

الفعل أو بأسوأ الظروف يقدم النصيحة للقاتل بأن من مصلحته أن يترك المكان ويذهب لمنطقة أخرى حفاظًا على سلامته من الثأر.

وفى حالات أربع فقط خلال الفترة ١٨٩٠م-١٩٠٤م قدم القاتل الألمانى للمحاكمة ولم يسمع عما تم فى الإجراءات، وأحيانا ما يكون السعى من جانب السلطات الألمانية إلى مواجهة الهجوم عليها بالسماح للقاتل بأن يعد تعويضًا يتمثل فى عشرات قليلة من الماعز إلى أقارب المقتول. وعندما أعفى ليتوين من الخدمة الحكومية فإن إحدى التهم التى وضعت ضده أنه ممن سببوا انتفاضة ١٩٠٤م؛ بسبب تراخيه مع الأهالى!!

ويلاحظ أن القتلة من الأهالى دائمًا ما كان يحكم عليهم بالإعدام، فى حين أنه فى القضايا الأربع التى قدمت للمحاكمة كانت أقسى عقوبة حكم بها على الرجل الأبيض هى السجن ثلاث سنوات، وفضلاً عن ذلك فإن هؤلاء المجرمين البيض لم ينفذ أحدهم مدة العقوبة كاملة، وهذا يؤكد قول ليتوين: إن قيمة الرجل الأبيض وحياته أكبر كثيرًا من قيمة رجل من الأهالى.

إن موت المواطن من الأهالى نتيجة لقسوة المعاملة لم ينظر إليه أبدًا من المحاكم الألمانية باعتباره قتلاً، وكما يقول ليتوين: «إن الأهالى لم يفهموا أبدًا أن هناك فارقًا مهمًا بين القتل وبين الضرب الذى يفضى إلى الموت، والأهالى يعتبرونهما شيئًا واحدًا». وكان الأهالى الذين يهاجمون رجالاً بيضًا دائمًا ما يرسلون إلى السجن وتوضع السلاسل والأغلال فى أيديهم وأرجلهم، فى حين كان الجلد من جانب سادتهم أمرًا مسموحًا به وغير مقيد.

بدأت ثورة الهيريرو على أثر قتل جنود ألمان لأحد رؤساء القبيلة، وسرعان ما امتدت نيران الغضب إلى كل مكان، وما أن حل يناير ١٩٠٤م حتى كانت قبيلة الهيريرو جميعها بقيادة صمويل كماهيريرو نفسه ثائرة، ثم انضم إليهم أغلبية أجناس الهوتنتوت فى الجنوب.

عندما علم الحاكم ليتوين أن صمويل كماهيريرو الحاكم الدائم، الذى عينه الألمان قد انضم إلى شعبه اندهش كيف يصبح صمويل ضد الألمان، وكتب إليه يسأله عن أسباب هذه الخطوة الغريبة، وتلقى من صمويل الإجابة الآتية المؤرخة فى ٦ مارس ١٩٠٤م.

«إلى السفير الكبير للقيصر الحاكم ليتوين . . لقد استلمت رسالتك وإن ما كتبته لى قد فهمته تمامًا، وإنى أجيبك بما يلى : أنا لم أبدأ الحرب هذا العام لقد بدأها الشعب الأبيض، وأنت تعلم كم من الهيريرو قتله البيض ، وخاصة التجار سواء قتلوهم بالبنادق أو قتلوا فى السجون، وإننى دائمًا عندما كنت أقدم هذه الدعاوى إلى وندهوك لم يكن يقدر هذا الدم بأكثر من قطيع صغير من الماشية يتراوح بين ١٥و ٥٠ رأسًا، وإن التجار الألمان قد زادوا هذه الصعوبات عندما كانوا يسرقوننا فيأخذون مقابل قرض الجنيه الاسترلينى الواحد رأسين من الماشية . إن هذه الأشياء هى سبب الحرب، إن الملازم (ن) قد عاملنى معاملة سيئة، وكان يبحث عن سبب لقتلى ،وقد أخفى جنودًا فى الصناديق وبعثها لى فى الحامية ،وذلك بغية قتلى وأنا لم أذهب إلى الحامية وقد عرفت بنواياه، وعلى هذا فإن الملازم (ن) أرسل جنودًا ومعهم بنادقهم ورائى لقتلى، ولهذه الأسباب فقد غضبت وقلت يجب أن أقتل الرجال البيض الذين قالوا إننى لا بد أن أقتل، إن هذه العبارة وهى يجب أن أقتل سمعتها من رجل أبيض اسمه (×) وأنا الرئيس صمويل كماهيريرو».

قرر صمويل كماهيريرو البائس ببندقيته القديمة وبعدة طلقات محدودة نحو ست رصاصات أن يثور دفاعًا عن حريته ضد جبروت الإمبراطورية الألمانية، ورغم يأسه وقلقه والمستقبل المرعب الذى ينتظره أصدر القرارات وأعطى الأوامر؛ لكى يضمن ويؤمن سلامة النساء والأطفال الألمان المنتمين إلى من يضطهدونه ويعذبونه . هل يستطيع أحد أن يقول إن هذه المخلوقات الفقيرة ذات السلوك الحميد التى حملت النير الألمانى لأكثر من ١٤ سنة لم يكن لديها مبرر لاتخاذ هذه الخطوة خطوة الثورة؟

وهل يوجد إنسان فى العالم المتمدين يستطيع أن يؤكد أن ألمانيا كان لديها ما يبرر لها السماح لڤون تروثا وجنوده بأن يقوموا بالذبح بغير شفقة وقتل ٦٥ ألفًا أو أكثر من هذا الشعب سيئ الحظ، وأن يأخذوا كل ما لديه من ماشية وأبقار وأغنام وغيرها؟

لقد كان منظرًا مؤلمًا للغاية صورة الهيريرو ومعهم نساؤهم وأطفالهم وماشيتهم

مجهزين بسلاح فقير جداً، وتكوينات تنظيمية حربية ضعيفة جداً يواجهون جنود الألمان المدججين بأسلحة متطورة ؛ فماذا كان يستطيعون أن يفعلوا؟ .

في أغسطس ١٩٠٤م هزمت القوات الألمانية الهيريرو وكبدتهم خسائر باهظة وأسرت آلافًا وأودعتهم السجون، وجمع صمويل كماهيريرو وعدد من رؤساء القبائل ماشيتهم، واتجهوا إلى صحراء كالاهاري ينشدون الحماية البريطانية، بينما أخذ الجزء الأكبر من أمة الهيريرو ما بقي لديه من ماشية وحاجيات وانسحبوا إلى جبال ووتربرج وإلى الشمال من جوبابس، ومع ذلك بدا للألمان أن ليتوين متراخ أكثر مما يجوز فعزلوه وأحلوا محله الجنرال ڤون تروثا، وكان هذا القائد الجديدَ معروفًا في برلين بقسوته التي لا تعرف الرحمة في المعاملة مع الأهالي، وكان مجربًا من قبل في ثورة البوكسر في الصين، كما كان في ذلك الوقت قد انتهى على التوِّ من قمع الانتفاضة العربية في شرق إفريقيا الألمانية بأن أغرق هذه البلاد في دماء الآلاف والآلاف من السكان رجالاً ونساءً وأطفالاً، وكان قد انتهى للتو من هذه المذبحة عندما أمره الإمبراطور ولهلم الثاني بالذهاب إلى جنوب غرب إفريقيا الألمانية للتعامل مع ثورة الأهالي، ولم يكن ڤون تروثا يبالي بالوسائل التي يحقق بها أهدافه سواء بالخيانة أو غيرها، وقيل للهيريرو وقتها بأنه يمكن الوصول للسلام إذا ضمنوا عودة قادتهم وتوقيع المعاهدة المطلوبة للألمان. وفي الوقت نفسه نشر ڤون تروثا قواته على هيئة سياج (كردون) ؛ استعداداً للمذبحة، وبعد أن أتم خططه أصدر أمر الإبادة الرهيب، وطبقًا لنصوصه: «لا يلقى رجل ولا امرأة ولا طفل ولا رضيع أي رحمة، اقتل كل واحد منهم ولا تقبض على أسير، إنني أريد أن أتأكد أنه لم يحدث بعد ذلك قط ثورة من الهيريرو».

صدر هذا الأمر ضد أناس مهزومين مستعدين للاستسلام بدون شروط، وليست لديهم ذخيرة ولا أية وسائل يخوضون بها حربًا.

وقد ذكر ڤون تروثا في تقرير بعث به إلى برلين وهو وارد في كتاب روربخ:

«إن الوصول إلى اتفاق مع الهيريرو مستحيل بمراعاة أن كل رؤسائهم قد هربوا ولم يعد هناك من يمكن أن تتعامل معه الحكومة الألمانية.. وأن قبول الاستسلام الطوعي هو وسيلة تمكن من إعادة بناء التنظيمات القبلية القديمة، ولكن ذلك سيكون خطأً سياسيًا كبيراً ؛ لأنه يؤدي من بعد إلى عودة إراقة الدماء».

كان من الواضح أن ڤون تروثا قد قرر بألا يسمح لأى هيريرو أن يستسلم حتى لو كان كل رؤساء الهيريرو قد هربوا، وأنه قرر بدم بارد أن يذبح هذه القبيلة التى لم يعد لها تنظيم ولا قادة ولا تستطيع أن تؤذى أحدًا؛ وذلك ليضمن ألا يحدث من الهيريرو متاعب فى المستقبل.

وفى وصف للمذبحة ورد فى كتاب «رحلة إلى جنوب غرب إفريقيا» أحداث انتفاضة الهيريرو كما ذكرها مستوطن أبيض «لقد كانت الأرض أرضهم، وقد وجدنا لنجعلهم عمالاً زراعيين بغير أرض؛ ولذلك قاموا بالثورة، إنه صراع من أجل الاستقلال. إن الأمر يظهر بالطريقة الآتية كانت هناك بعثات للتبشير هنا أتت باسم الأخوة والإيمان بالله والمحبة والأمل، وكان هناك جنود ومزارعون وتجار يريدون أن يأخذوا الماشية من الأهالى ويأخذوا أرضهم بالتدريج ويجعلوا الأهالى عبيدًا بغير حقوق شرعية، ولا يمكن أن يلتقى النشاط التبشيرى مع نشاط هؤلاء، إنه مشروع أحمق وسخيف. إما أن يكون لك حق أن تستعمر وأن تجرد الآخرين من حقوقهم وأن تسرقهم وتجعلهم عبيدًا أو أن تبشرهم بالمسيحية التى تعلن التوجه إلى المحبة والأخوة».

وإذا كان هذا قول أحد الألمان المستوطنين فإن ما يلى هو أقوال الهيريرو عن معاملتهم خلال الثورة، قال أحدهم اسمة مانيويل تمبو وهو هيريرو كان يعمل مترجمًا لدى الألمان، قال فى إحدى المحاكم بلغته المحلية تحت القسم: «لقد أرسلت إلى أوكاهنجا تابعًا لأحد قواد الجنرال ڤون تروثا، وكنت أرعى خيوله وبعض الأعمال الأخرى، ولقد تعقبنا الهيريرو فى تقهقرهم من أوكاهنجا إلى ووتربرج ومن هناك إلى حدود صحراء كالاهارى.. وعند ترك أوكاهنجا أصدر ڤون تروثا أمرًا لقواته ألا يؤخذ سجين، وأن الكل يجب أن يقتل بصرف النظر عن السن والجنس، وقال: يجب أن نبيدهم حتى لا تضجرنا الثورات فى المستقبل.. ونتيجة لهذا الأمر فإن الجنود أطلقوا النار على كل الأهالى الذين نصادفهم بصرف النظر عن من هم وبعضهم كانوا أناسًا سالمين لم يكونوا اشتركوا فى الانتفاضة، وآخرون كانوا نساء أو رجالاً طاعنين فى السن لم يكونوا خرجوا من بيوتهم قط حتى هؤلاء أطلق عليهم الرصاص (وبهذه الطريقة فإن آلافًا من البرج دامارا المسالمين غير المؤذيين قد لاقوا مصير الهيريرو).. وكثيرًا ما رأيت ذلك يرتكب. ومرة فى المسيرة

قرب هاماكارى بعد ووتربرج وصلنا إلى بعض الآبار، وكان الوقت شتاء والجو باردًا جدًا وصادفنا امرأتين كبيرتين فى السن من نساء الهيريرو اشعلتا نارًا صغيرة ليتدفآ بها، وكان ڤون تروثا ورجاله موجودين، وقفز أحد الجنود الألمان وأطلق النار على المرأتين وهما جالستين، وبعدها ذهبنا إلى المعسكر وهناك أتت امرأة من الهيريرو تقترب منى وقيل لى أن أسحب المرأة إلى الچنرال فون ليرى ما إذا كان لديها معلومات عن الأعداء، فأخذتها إلى ڤون تروثا كانت امرأة شابه وبدت متعبة وجائعة، وسألها ڤون تروثا عدة أسئلة، ولكن لم يكن لديها رغبة فى إعطاء المعلومات؛ فأمر ڤون تروثا أن تؤخذ ويبقر بطنها، أخذت المرأة بعيدًا وأتى أحد الجنود والسنكى فى يده وقدمه لى فقلت: إنى لا أقدر أن أقوم بشىء كهذا لماذا لا يسمح لهذه المرأة أن تعيش، فضحك الجندى وقال: إذا لم تفعل ذلك فأريك كيف يصنع الجندى الألمانى وأخذ المرأة وألقاها على الأرض وبقر بطنها وألقى السنكى بعيدًا والدم يسيل منه ، وقال: أرأيت فقد فعلتها، وكان هناك ضباط وجنود واقفون يشاهدون المنظر ولم يتدخل أحد منهم لإنقاذ المرأة، لم تدفن جثتها وصارت مثل جثث الآخرين متروكة تنهشها الحيوانات المفترسة.

وفى عودتنا من الرحلة وقفنا عند«هاماكارى»، وبالقرب من أحد الأكواخ رأينا امرأة عجوزًا من الهيريرو كانت بين ٥٠ و ٦٠ من عمرها تحفر فى الأرض تبحث عن الأبصال التى تنبت وحدها، وكان ڤون تروثا وقواده موجودين قال لها: إنى سأقتلك، فنظرت إليه ببساطة وقالت: وأنا أشكرك. وفى اليوم التالى تحركنا وقابلنا امرأة أخرى فى الثلاثين من عمرها كانت مشغولة هى الأخرى بالبحث فى حفر الأرض عن الأبصال والجذور ولم تلحظنا، فقام أحد الجنود بالاقتراب منها وأطلق الرصاص على ظهرها.

كنت شاهد عيان على كل ذلك وقد رأيت أجساد مئات من الرجال والنساء والأطفال فتيان وكبار فى السن ملقاة فى الطريق ونحن نمر عليهم، كلهم قتلوا بواسطة القوات المتقدمة.

«كنت لمدة سنتين مع القوات الألمانية وكنت دائمًا مع الچنرال ڤون تروثا، ولم ألحظ أبدًا أن شخصًا أسر»، هذا ما قاله چان كلود من أومارورو تحت القسم: «كنت فى أومارورو فى ١٩٠٤م، وكنت تحت قيادة الألمان أرشدهم كدليل على الطريق فى

إقليم ووتربرج وكنت أعرف المنطقة جيداً، كنت فى الفيلق الرابع تحت قيادة هوبتمان ريتشارد وكان قائد القوات هو الچنرال ڤون تروثا .

كنت موجوداً فى هاماكارى بالقرب من ووتربرج عندما هزم الهيريرو فى المعركة وبعد المعركة فإن كل الرجال والنساء والأطفال من كان أصيب ومن لم يكن أصيب، الكل وقع فى أيدى الألمان وقتل بغير رحمة .

كان الألمان يتبعون الآخرين وكل من كانوا يقابلونه يطلقون عليه الرصاص أو يبقرونه وكانت الغالبية العظمى من رجال الهيريرو غير مسلحين، لم يكونوا يقاتلون كان مجرد أن يتخذوا طريقهم ليذهبوا بعيداً مع ماشيتهم . وعلى مسافة من هاماكارى وقفنا فى معسكر عند عين للماء (بئر)، وهناك وجد الجنود الألمان طفلاً رضيعًا من الهيريرو لا يجاوز تسعة أشهر ، وكان الطفل يصرخ وهو يحمله الجندى وأتى به إلى المعسكر، وتجمع الجنود حوله وأخذوا يقذفون الطفل بينهم من جندى إلى آخر ويحملونه كما لو كان كرة، وكان الطفل يصرخ من قلبه صرخات مدوية .

وبعد وقت أخذ منهم التعب من هذا اللعب ، وقال أحد الجنود : إنى سأصطاد هذا الطفل وقذف به فى الهواء ثم تلقاه بسنك البندقية الذى اخترق جسده . لقد مات الطفل فى دقائق معدودة، وتلقى الجنود الألمان الحدث بموجة من الصراخ والضحك . لقد أمرضنى هذا الحادث وأشعرنى بالاشمئزاز، ورغم أنى كنت أعلم أن لديهم أوامر بقتل كل شخص ، ولكنى ظننت أن تكون لديهم شفقة بطفل رضيع وقررت ألا أستمر معهم ؛ لأن هذه الأشياء المرعبة أزعجتنى جدًا فادعيت المرض، ولما كان قائدى مريضًا هو الآخر أمرت بأن أعود معه لأدله على الطريق ، وبعد عودتى إلى بيتى رفضت أن أذهب مرة أخرى مع هؤلاء الجنود» .

* * *

خاتمة

فى مقدمة الكتاب « الأزرق» فإن چورچس المدير الإنجليزى فى وندهوك أضاف إلى المكتوب فى يناير ١٩١٨م هذا التعليق الذى لخص فيه بإيجاز دقيق هدف الاحتلال الألمانى لجنوب غرب إفريقيا «لنشر كل المعلومات التى أمكن الحصول عليها سأجعل هذا الكتاب مؤلفًا ضخمًا جدًا . إن الهدف من هذا التقرير هو أن يستحضر الملامح الرئيسية فى شكل سهل وقابل للاستيعاب، وما ورد بهذا التقرير

كاف فيما أعتقد لكى لا تبقى شكوك عن الوضع المرعب الذى اتبعته الإدارة الاستعمارية الألمانية، سواء عملت تحت أوامر حكومة برلين أو تحت علمها أو بالنسبة للأهالى؛ إذ عاشوا تحت ظروف قاسية جدّا وسلب منهم كل شىء. . وسيظهر أن الأهالى خلال ١٧ سنة الأولى التى تلت إلحاق البلاد بألمانيا عاشوا بغير قانون، وإن الحماية التى كفلها القانون لم تكن من أجل الأهالى، وإنما كانت من أجل تأمين العمل اللازم لصيانة الماشية ولاستخراج الماس والنحاس بقدر الإمكان».

* * *

وأخيرًا. . بعد أن قضت ألمانيا على الثورات المعارضة لحكمها، لم تتح لأى فرد من أبناء القبائل جميعها الحصول على أرض أو ماشية دون موافقة الجهات الرسمية، وأصبحت توجه تهمة التشرد لكل شخص من الأهالى ليست له وسيلة معروفة للكسب، وعاشت المستعمرة فى خوف متصل خشية قيام ثورة أخرى، واستفحلت قسوة الأوروبيين فى معاملتهم للأهالى إلى حد يثير الفزع، وصب البيض جنون غضبهم الوحشى على الأهالى، واتخذوا من جلودهم البيضاء شهادة تعفيهم من نيل العقاب لارتكاب أبشع الجرائم.

لم تشب ثورات جديدة، فالحروب التى شنتها ألمانيا على قبائل الهيريرو والهوتنتوت كانت هى آخر حرب من نوعها فى إقليم جنوب غرب إفريقيا، وكانت أيضًا خاتمة المعارك التى انتصرت فيها ألمانيا فى ذلك القرن.

ومع نهاية الحرب العالمية الأولى بهزيمة الألمان أعطيت لحكومة جنوب إفريقيا العنصرية حق إدارة الإقليم فى ظل انتداب عصبة الأمم بمقتضى اتفاقية الانتداب المؤقت، ولكن حكومة جنوب إفريقيا رفضت التخلى عن سيطرتها على الإقليم بعد الحرب العالمية الثانية ورفضت تسليمه إلى مجلس الوصاية التابع للأمم المتحدة الذى صار يشرف على أقاليم الانتداب، بل قامت الحكومة العنصرية بمحاولة إدماج الإقليم فى أراضيها.

أصبحت قضية جنوب غرب إفريقيا من أشهر القضايا أمام المنظمة الدولية تمثل عجز الأمم المتحدة عن تنفيذ قراراتها وقدرة حكومة جنوب إفريقيا على تحديها،

وحولت القضية إلى محكمة العدل الدولية حيث قررت عدم شرعية ضم حكومة جنوب إفريقيا للإقليم. وفي عام ١٩٦٦م قررت الجمعية العامة إلغاء انتداب الإقليم وطالبت حكومة جنوب إفريقيا بالانسحاب فوراً منه على أن يديره مجلس الأمم المتحدة الخاص بناميبيا. رفضت الحكومة العنصرية التسليم بذلك، وفي عام ١٩٧١م عادت الأمم المتحدة فطلبت أن تدير الإقليم بنفسها فرفضت حكومة جنوب إفريقيا ذلك مرة أخرى.

بعد أن اتضح للوطنيين أنه لا فائدة ترجى من الإجراءات الدولية تبنت الحركة الوطنية بزعامة منظمة «سوابو-Swapo» (حزب منظمة شعوب جنوب غرب إفريقيا) الكفاح المسلح ضد حكومة جنوب إفريقيا، التي كانت سياستها العنصرية لا تقل في بطشها عن الحكم الألماني، وظلت الحركة الوطنية تواصل الكفاح الدامي حتى حصلت ناميبيا على استقلالها عام ١٩٩٠م، وقام نظامها السياسي منذ البداية على أساس التعددية الحزبية، ويتم اختيار رئيسها في انتخابات عامة تجرى كل خمس سنوات، وأجرى آخرها عام ١٩٩٩م.

ومن أهم أحزابها منظمة سوابو Swapo كبرى حركات التحرر الوطني قبل الاستقلال، ومؤتمر الديموقراطيينCOD ، والجبهة الديموقراطية المتحدة UDF.

والآن ألا يستحق شعب جنوب غرب إفريقيا التعويض عما لاقاه من إبادة وأذى بدني ونفسي واقتصادي، إن هذا الشعب يجب أن يحتل الرقم الأول في قائمة من يستحق التعويض.

* * *

الفصل الثانى
فاتورة العبودية

حان وقت السداد

هل من العدل أن يُعوض قلة من البشر اضطهدوا عقداً من الزمان، ولا يُعوض ملايين اضطهدوا عبر أربعة قرون؟ وهل اليهود الذين عملوا فى معسكرات الاعتقال أيام النازية فترة لا تتعدى عشر سنوات نالوا من التعذيب والإبادة ما لاقاه عبيد إفريقيا فى أوروبا والأمريكات على مدى أربعمائة عام؟ . . هذا هو السؤال الكبير الموجّه إلى ضمير العالم، وهو سؤال بدأ يثور بشكل جدى لدى العديد من موجهى الرأى العام فى البلاد الإفريقية، ويجدون من يجادلهم فيه وينكر عليهم حقهم من الدارسين والباحثين الغربيين، كما يجدون قلة تقف بجانبهم من أصحاب المواقف النبيلة.

إن الغربيين لا يرفضون فكرة تعويض الأفارقة عن حقبة العبودية فحسب بل يسخرون منها، ويقولون حتى لو شاءوا فأين هم أحفاد هؤلاء العبيد؟ ولمن تؤدى التعويضات؟ وكم تساوى حياة الإنسان الإفريقى؟ الإجابة ببساطة: مثلما يُدفع لليهودى يُدفع للإفريقى، وبهذا القياس تقدر التعويضات بتريليون استرلينى. أما من يأخذ التعويض فلتكن للمناطق التى سُرق منها العبيد، وتُدفع لهذه الدول الفقيرة كحقوق يستردونها لا ديون يُذلون من أجلها. إن هذا ما يجب أن يفعله الغرب المتحضر مع تلك الأمم التى سرقوها لا أن يكون الرد مثلما قال «چون ميچور» رئيس الحكومة البريطانية السابق: «إنه مستعد أن يدفع التعويضات بشرط أن يثبت أحفاد الرقيق الأفارقة أنهم لا يزالون يعانون من الرق!!».

ولكن رغم ذلك فهناك أصوات شريفة تناصر الحق الإفريقى مثل النائب العمالى البريطانى «بيرنى جرانت» عضو البرلمان عن مقاطعة توتنهام بشمال لندن، وهو

عضو منظمة «حركة إصلاح إفريقيا»، ويرأس شعبة المملكة المتحدة لحركة التعويضات الإفريقية، وهو شديد التحمس لها ويدين اللامبالاة التى تبدو من قادة إفريقيا فى هذه المسألة، ويقول: «إننى لا أنتظرهم، إننى سأتولى القيام بما يجب فعله، فإن المسألة المعروضة أكثر أهمية، إنه أمر يجب أن نفعله من أجل أحفاد الشعب الإفريقى، وليس بالضرورة من أجل الشعب الإفريقى الآن».

صوت شريف آخر يناصر الحق الإفريقى يأتى من المحامى البريطانى اللورد «أنتونى جيفورد» الذى أعد بحثًا قيمًا عن الأساس القانونى لمطلب تعويض العبيد الإفريقيين، رد فيه على تساؤلات رئيس الحكومة البريطانية السابق وأمثاله الذين ينكرون حق الأفارقة فى المطالبة بالتعويضات، حدد القضية وحرر المسألة فى من الذين لهم حق المطالبة بالتعويضات؟ومن المدعى عليهم الذين ترفع الدعوى ضدهم؟وما الخسائر والأضرار التى يُطالب بالتعويض عنها؟وفى أى محكمة يقدم الادّعاء؟

وهو يقول: «نحن الآن نسبح فى بحار غير معروفة؛ لأن الدعاوى بالتعويض بهذا الحجم الهائل لم تقدم قط من قبل، إن مئات الملايين من الناس فى قارات مختلفة فى العالم لهم مصلحة فى هذا الادّعاء، وإن خسائرهم يبدو أنها من المستحيل تغطيتها، وإن بعض العقول تخلص من مثل هذه المشاكل التطبيقية إلى أن الادّعاء غير واقعى.

وأنا لا أقتنع بأى رأى انهزامى من هذه الآراء وعندما تكون الافتراضات الثلاثة الأولى مقبولة وصحيحة، وأن الحق فى التعويض يبدو قائمًا على أسبابه فى إطار القانون الدولى، فإن الوسائل والطرق لتحقيق العدالة ستوجد وستتفتق عن نفسها. إن صعوبات المجال والاختصاص والإجراءات لا ينبغى أن تشكل عقبات فى وجه العدالة، وإن عدم رغبة العالم الأبيض فى تقدير هذه الدعوة ليس سببًا لتنحيتها، بل هو دافع للفت الانتباه إليها ولجذب التأييد حولها». وسنعرض بحث اللورد جيفورد فيما بعد.

* * *

فى يونيو عام ١٩٩٩م وجه المؤتمر اليهودى الدولى نداءً لمن لا يزالون أحياءً من

اليهود وأقربائهم ممن نجوا من مذابح النازية؛ ليقيموا دعاوى ضد الحكومة السويسرية وبنوك سويسرا لمن كانت لديهم أرصدة نهبها النازى، أو ممن أجبروا على أعمال السخرة فى الشركات السويسرية أو لدى أى مالك سويسرى، وقدرت هذه التعويضات ١,٢٥ مليار دولار.

وجاء هذا النداء إثر ادّعاء تقدمت به عجوز يهودية تبلغ ٨٥ عامًا هى مسز «جرتا سلبربرج» تعيش فى بريطانيا. وادعت هذه السيدة أن لوحة للرسام «ڤان جوخ» قيمتها ٣,٣ مليون استرلينى كان يمتلكها حماها «ماكس سلبربرج» وهو من أثرياء رجال الصناعة، اضطر لبيع اللوحة مع ١٤٣ قطعة فنية من مجموعة كان يقتنيها، باع ذلك ليدعم أسرته بعد أن طرده النازى من عمله (يلاحظ أنه باع اللوحة والمقتنيات بمحض إرادته ولم تغتصب منه ولا صودرت)، ومسز سلبربرج هى آخر أقرباء ماكس سلبربرج الأحياء.

وشنت صحيفة «التايمز» البريطانية حملة صحفية تؤيد الأرملة العجوز، فكتبت عدة افتتاحيات تقول نعم لقضية سلبربرج، إن القرار يجب أن يكون نعم وإن البحث عن تلك الثروات وتعويض الضحايا عن الجرائم التى ارتكبت فى حقهم، يجب أن يشكل ضغطا أدبيًا على أوروبا والولايات المتحدة.

وكأثر مباشر لهذه الحملة الصحفية أنه بعد ثمانية عشر يومًا من توجيه النداء أعلنت فى شهر يوليو ست عشرة من كبريات الشركات الألمانية (ومنها سيمنس وكرولار والبنك الألمانى) أنها غطت المطالبات الإسرائيلية، ووعدت هذه الشركات بتكوين رصيد آخر يقدربـ ١,٧ مليار دولار لأداء التعويضات عن ألف شخص عملوا فى معسكرات الاعتقال ولدى مؤسسات لم يعد لها وجود الآن.

والسؤال: إذا كان ضمير العالم الغربى يعترف بحقوق بقايا يهود النازية ويعاملهم بهذه الشفافية، فلماذا يتجاهل حقوق عشرين مليون إفريقى على الأقل اختطفوا على مدى أربعة قرون، وقُذف بهم فى بلدان أوروبا والأمريكتين ليعمروها؟ لماذا تطالب إسرائيل بالتعويض ولا تستطيع إفريقيا أن تفعل ذلك؟

إن هذا السؤال يكتسب مغزى أكبر عندما يكتشف حقيقة أن بعضًا من تجار الرقيق والممولين لتجارة الرقيق فى إفريقيا كانوا يهودًا، هذا ما كشف عنه المؤرخ

هيوتوماس فى مؤلفه الضخم «تاريخ تجارة الرقيق عبر الأطلنطى»، ونُشر فى نوفمبر ١٩٧٧ م فى ٩٢٥ صفحة، وفيه أبرز ارتباط الصلة اليهودية بهذه التجارة قائلاً: «إن الحقيقة المجهولة التى يراد لها أن تتجاهل هى أن كثيراً من تجار الرقيق فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فى لشبونة (البرتغال) كان يمولهم يهود واليهود المتحولون ممن يسمون «المسيحيين الجدد» الذين تحولوا بسبب ضغوط محاكم التفتيش.

والواقع أن هناك حقائق كثيرة مثيرة عن العبودية لا يُراد كشفها حتى لا تتحطم صورة عدد من الشخصيات والأبطال الأوروبيين، الذين تلوثت أيديهم بدماء الأفارقة، فمن غير المريح كشفهم وفضح هذه الرموز القومية، على سبيل المثال كيف تستطيع بريطانيا أن تستبقى وتبرر الاحترام لفيلسوفها «چون لوك» الذى كان يمتلك أسهمًا فى الشركة الإفريقية الملكية، التى كانت علامتها المسجلة عبدًا مدموغًا بالحديد الساخن، وكانت تقوم بعمليات الكى على صدور الإفريقيين وأكتافهم فى السبعينيات من القرن السابع عشر.

وأيضًا «چورچ دوننج »الذى سُمّى باسمه شارع «دوننج ستريت» الكائن به مقر الحكومة البريطانية، فقد كان والده «إيمانويل دوننج» يتعامل مع تجارة الرقيق، وبعدها هاجر إلى ماساشوستس بالولايات المتحدة الأمريكية ، كتب يقول عن استثماراته: «أنا لا أعرف كيف كان يمكن أن نعيش بغير أن نأتى بعدد كاف من العبيد يقومون بكل أعمالنا»، كذلك كتب ابنه إلى ابن عمه«چون»حاكم كنكتكت يقول: «إذا ذهبت إلى بربادوس ستجد جزيرة مزدهرة، وأعتقد أنهم أتوا هذا العام بعدد لا يقل عن ألف زنجى ،وبقدر ما يشترون بقدر ما يكون أقدر على المزيد من الشراء؛ ذلك أنه بعد عام سيكسبون أكثر مما أنفقوه».

ويلخص الرحالة «وليام بيكى» الوضع فى مذكراته عام ١٨٠٥م عن أيام تجارة الرقيق «أنه لا يوجد قبطان يحمل العبيد، إلا وهو مذنب أو قاتل بشكل مباشر أو غير مباشر؛ لأنه دائمًا يحدث عدد من الوفيات مع كل شحنة».

ولكن هذا الكلام الذى يُدين ويُشين الأوروبيين لا يمكن بالطبع أن يتقبلوه بسهولة، وأفضل وسيلة لإبعاد هذه التهم هو قلب الأمور وإلقاء المسئولية على الأفارقة أنفسهم، فهيوتوماس عندما كشف عن دور اليهود واعترف بأن بعض

العبيد سرقهم الأوروبيون، وبعضهم كانوا ضحايا غارات عسكرية قام بها البرتغاليون لخطف العبيد، كما حدث فى أنجولا، فإنه يوقع المسئولية على الإفريقيين، فيقول: إن أغلب العبيد الذين حملوا من إفريقيا بين عامى ١٤٤٠م، و١٨٧٠م إنما جلبوا بأيد أفريقية، وإنهم هم من باعوا ذويهم وجيرانهم الأقارب أو الأباعد، وأنه لو لم يبع الإفريقيون أبناءهم لما استطاع الأوروبيون ممارسة هذه التجارة.

والحقيقة أن الأفارقة لم يكونوا غافلين عما يحدثه الأوروبيون بشعوبهم، ولكنهم كانوا مجبرين، وقصة ملك الكونغو «ألفونس الأول» خير شاهد، هذا الملك الإفريقى تحول إلى المسيحية وتعلم اللغة البرتغالية قراءة وكتابة، بعث إلى صديقه ملك البرتغال الملك «چوا الثالث» يشكو إليه تجريد الكونغو من السكان بواسطة تجارة العبيد البرتغالية كتب يقول له: «**إن التجار يخطفون كل يوم شعبنا من الأطفال وأبناء النبلاء وحتى أناس من عائلتنا، إن الفساد والنذالة والخسة تنتشر، نحن نحتاج فى هذه المملكة فقط القساوسة ومدرسى المدارس ولا نحتاج لتجارة العبيد أو نقلهم**». فرد عليه ملك البرتغال الأوروبى المتحضر يقول: «**إنك تقول إنك لا تريد تجارة العبيد فى مملكتك؛ لأن هذه التجارة تجرد بلدك من سكانه، وعلى العكس من ذلك فإن البرتغاليين قالوا لى إلى أى مدى الكونغو واسعة ومكتظة بالسكان!!**».

وعلى كل الأحوال فإذا كانت قلة تعاونت مع تجار الرقيق البيض، فتظل المسئولية معلقة بالتجارة والتجار المشترين، ومن كانوا يخطفون الشباب الإفريقى ويسوقونه إلى أمريكا.

ويعترف بذلك ويسجله المؤرخ الفرنسى «هنرى والون» عندما يقول: «**إن عبودية الأوروبيين للأوروبيين التى استمرت حتى العصور الوسطى فى أوروبا، قد توقفت وأدينت فى القرن الثانى عشر، وبعد ذلك أى فى ١٤٤٠م نرى الأوروبيين أنفسهم يذهبون إلى إفريقيا ليشتروا العبيد، ثم تمضى الأيام ويقولون نحن لسنا مسئولين، شأنهم فى ذلك شأن من يشترى بضاعة مسروقة ويقول للمحكمة أنا لست مذنبًا لأنى دفعت الثمن**».

* * *

تظل تجارة الرقيق عبر الأطلنطى إحدى أضخم الهجرات فى التاريخ، واقتناص الرقيق يعد من أكبر المغامرات التجارية التى شنت خلال حقبة ما قبل الاستعمار.. فمنذ بداية اتصال الأوروپيين بالساحل الغربى لإفريقيا فى القرن الخامس عشر أخذوا يشترون العبيد، وفى القرن السادس عشر استخدم البرتغاليون أعداداً قليلة من الرقيق للعمل فى مزارع السكر فى الجزر القريبة من ساحل إفريقيا الغربى، كما تم تصدير أعداد أخرى إلى أمريكا الجنوبية؛ لاستخراج الفضة التى اكتشفت هناك فى العقد الثالث من القرن السادس عشر. غير أن الطلب على الرقيق لم يكن على نطاق واسع، ولم يبدأ التوسع السريع فى التجارة عبر الأطلنطى إلا فى منتصف القرن السابع عشر؛ نتيجة لنشأة مزارع السكر فى جزر الهند الغربية، وكان للعبيد الأفارقة الأفضلية؛ لأنهم إلى جانب رخص ثمنهم وسهولة الحصول عليهم كان معدل بقائهم أعلى فى جزر الهند؛ نتيجة لحصانتهم ضد الأمراض مثل الحمى الصفراء.

وكانت البرتغال الدولة الأجنبية الرئيسية ذات الصلة بإفريقيا الغربية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ثم أصبح للوجود الهولندى أهميته فى القرن السابع عشر.. أما انجلترا وفرنسا فأصبحتا لهما الهيمنة فى القرن الثامن عشر.

وتقدر صادرات الرقيق التى قامت بها الدول الكبرى الثلاث من إفريقيا الغربية من سنة ١٧٠١ م إلى سنة ١٨١٠م كالآتى: انجلترا ٢٠٠٩٧٠٠، فرنسا ٦١٣١٠٠، البرتغال ٦١١٠٠٠، نقلت بريطانيا وحدها قرابة ثلثى العدد الكلى للرقيق فقامت الدول الثلاث بشحنهم من إفريقيا الغربية عبر المحيط الأطلسى، ونقلت السفن الفرنسية حوالى خمس المجموع.

وتتراوح الأرقام التى يوردها معظم الباحثين بشأن أعداد الرقيق الذين تم تصديرهم من إفريقيا الغربية إلى الأمريكتين من خمسة عشر إلى عشرين مليونًا من الرقيق الذين استوردتهم أمريكا، ومن ثمانية عشر إلى أربعة وعشرين مليونًا تم شحنهم من إفريقيا. والفرق تفسره الخسائر فى الطريق، هذا عدا الوفيات الناجمة عن حملات اقتناص الرقيق داخل إفريقيا.

وإن ٥٥٪ من مجموع الرقيق الذين شحنوا من إفريقيا عبر المحيط الأطلسى

جاءوا من إفريقيا الغربية من الأماكن الواقعة جنوب الكاميرون، وعلى وجه الخصوص من الكونغو وأنجولا، وكانت المنطقة الواقعة بين السنغال وساحل العاج غير مهمة نسبيًا فى تجارة الرقيق.

أما المنطقة الأساسية للتصدير فكانت شريطًا قصيرًا من الساحل تمتد من ساحل الذهب (غانا) شرقًا إلى الكاميرون، حيث صُدر منها ٨٢٪ من مجموع الرقيق الذى تم شحنهم من إفريقيا الغربية.

من المؤسف أن قصة العبودية فى إفريقيا لم تسجل إلا من جانب الغازى وحده ومن خلال عيون وكتابات الرجل الأبيض، أما من الجانب الإفريقى فهى تتداول شفاهة ولا يوجد بها سجل مكتوب.. يقول «آدم هوتشيلد» فى كتابه الذى صدر عن تاريخ الكونغو «شبح الملك ليوبولد»: ... إن كل هذا النهر العريض من الكلمات كتبه أوروبيون وأمريكيون، وهذا يوضح من أى وجهة النظر سجل التاريخ، أما الأصوات الإفريقية فهناك صمت مطبق. لقد تعاون الأمريكيون مع الأوروبيين على إخفاء الحقائق، ولكن سجل الغزاة الأوروبيين للعالم كله موجود بشكل كاف، فهناك إجماع بين المؤرخين أن البرتغاليين بدءوا تجارة الرق عبر الأطلنطى، وأنهم استخدموا الخطف كوسيلة للحصول على العبيد الأوائل.

ويذكر «هوتشيلد» نقلاً عما كتبه «جومز دى زورار» كاتب الحوليات البرتغالى الذى كان ملحقًا ببلاط ملك البرتغال هنرى الملاح: أن البرتغاليين استخدموا أولاً الحرب على السود عام ١٤٤٤م لاقتناص العبيد الأول... كان البرتغاليون يصيحون سان چيمس سان چورج ويهجمون على الأفارقة يقتلونهم ويختطفون ما يستطيعون، وكنت تشاهد الأمهات يبحثن عن أطفالهن والأزواج عن زوجاتهم، والكل يفر بقدر ما يستطيع من جهة، وبعضهم كان يلقى بنفسه فى الماء والبعض يهرب ويختفى فى الأكواخ والبعض فى الأدغال.

كان الغزاة البرتغاليون يأتون فى مراكب شراعية إلى خليج أرجوين (موريتانيا حاليًا) مسلحين، وينزلون إلى الساحل فى الليل ويهاجمون قرى الصيادين، ومع الوقت قرر الإفريقيون أن يحاربوا دفاعًا عن أنفسهم، وكانوا يكبدون البرتغاليين خسائر جمة، ومع زيادة خسائر البرتغاليين فإن هنرى الملاح وهو الأول من ملوك أوروبا الذين استفادوا من العبودية، أمر رجاله أن يغيروا من تكتيكاتهم، وبدلاً من

السيطرة على الإفريقيين بالقوة لجأوا إلى أسلوب الشراء . . ويقال: إن قبطانًا يسمى «جوامزناندس» هو الذى استحدث هذا التغيير امتثالاً لأوامر الملك هنرى، وقد أقام عامًا على شاطئ الخليج جمع المعلومات عن الأهالى المحليين، واستخدم الغش والرشوة لكسب ثقة بعض الأهالى لإقناعهم بخيانة ذويهم وبيعهم.

على أية حال فإن الأوروپيين كانوا سيستخدمون بنادقهم لإخضاع الأفارقة، كما فعلوا سنوات الاستعمار، وهذا ما حدث بالفعل عندما رفض شعب الأشانتى فى غانا الخضوع لحكم الانجليز، فخاضت بريطانيا سلسلة من الحروب لإخضاعهم امتدت من سنة ١٨٧٣م إلى ١٩٠٠م حتى خضع الأشانتى، لا بسبب أنهم يريدون الحكم البريطانى، ولكن بسبب تفوق أدوات الحرب البريطانية.

وتأكيدًا لذلك فإن «تريزا سنجلتون» وهى عالمة إفريقية أمريكية من علماء الحفريات أجرت أبحاثًا فى موقع يسمى «المينا» فى غانا، وهو المكان الذى دار فيه القتال بين الأشانتى والبريطانيين . . ذكرت أنه فى عام ١٨٧٣م ثار الأشانتى تجاه الساحل لمواجهة الغزاة البريطانيين، وحتى يوقف البريطانيون سكان منطقة المينا من الأشانتى وحلفائهم الفانتى، قذفوا بالقنابل أسوار القلعة التى كانوا يحتمون بها ودمروها، وبقيت هذه المنطقة مدمرة لم يُعدْ بناؤها حتى ذهبت إليها بعثات الحفريات عام ١٩٨٥م.

إن الحقيقة التى يجب ألا تغيب هى أن كل ما كان يطلبه الأوروپيون فى أى مكان فى العالم كانوا يحصلون عليه سواء بالسرقة أو الغش، فإن لم ينجحوا بأى من هاتين الوسلتين فبالقوة .

فإذا نظرنا إلى الولايات المتحدة وكندا والبرازيل فضلاً عن الكاريبى واستراليا ونيوزيلندا وكذلك جنوب إفريقيا وزيمبابوى، فإن الأوروپيين سيطروا على الأرض وأزاحوا الأهالى، وأحيانًا كانوا يسممون منابع الحياة أو يعطونهم هدايا مسمومة كما فعلوا فى أمريكا، وكان الأهالى المحظوظون الذين لم يقتلوا يُجمعون فى معسكرات معزولة.

لذلك يمكن القول: إنه عندما لم يكن يجد الأوروپيون من يتعاون معهم فى استجلاب العبيد، كانوا يلجأون إلى الإبادة للأهالى الإفريقيين والامتلاك الكامل

لأراضيهم. كما حدث فى الأمريكتين واستراليا ونيوزيلندا وغير ذلك، وكما حاول الألمان أن يفعلوا فى ناميبيا، حيث أزاحوا تقريبا ٧٠٪ من شعب الهيريرو بين عامى ١٨٨٧ ، و١٩٠٧ م، أو كما فعل الملك ليوبولد الثانى ملك بلچيكا فى الكونغو، حيث قُتل عدد يتراوح بين ثلاثة ملايين وخمسة ملايين فى الكونغو بين عامى ١٨٩٠ ، و١٩١٠ م.

واليوم لا الألمان ولا البلچيك يفكرون أن يقدموا أية تعويضات عن قتلهم هؤلاء الأفارقة فى ناميبيا أو الكونغو، فى حين نجد ألمانيا سعيدة جدّا وتفخر بأنها تعوض اليهود.

* * *

الأساس القانونى لمطلب التعويضات
بحث اللورد أنتونى چيفورد

فى أبريل ١٩٩٣م قدم المحامى البريطانى اللورد «أنتونى چيفورد» الذى يقيم فى چاميكا مع زوجته المواطنة هناك، دراسة عن الأساس القانونى لمطلب تعويض العبيد الإفريقيين فى المؤتمر الأول لبحث موضوع التعويضات الذى انعقد فى أبوجا بنيچيريا.

واللورد چيفورد يعد طليعة المؤيدين البيض لقضية تعويض الإفريقيين، وبسبب مثل هذه المسائل الحساسة التى يعالجها فهو غير مرضى عنه بين شعبه، ونادراً ما يذكر اسمه أو يشار إليه فى وسائل الإعلام، التى تطنطن لأى شخص حتى ولو كان نكرة يكتب ضد الجنس الأسود الذى نهض يطالب بحقوقه على استحياء. يقول اللورد چيفورد عن نفسه: أنا من رجال القانون الذين يكافحون من أجل حقوق الإنسان والعدالة فى أجزاء كثيرة من العالم، وكشف المظالم التى تسببها الشرور العنصرية، وعلى وجه الخصوص فإننى أقف متضامنًا مع الشعب الأسود فى بريطانيا فى صراعه الحالى والمستمر من أجل حقوق متساوية، كما وقفت من قبل مع حركات تحرير إفريقيا فى أنجولا وغينيا بيساو وموزمبيق وجنوب إفريقيا، وأنا الآن أحيا وأنشط فى المجال القانونى فى چاميكا، إننى أعتقد أن قضية التعويضات لإفريقيا وللإفريقيين فى مهجرهم تضرب بجذورها فى أساس العدالة، التى يجب أن تهيمن على كل صراع وكل حملة يقودها الشعب الإفريقى لكى يسترد كرامته الإنسانية.

إن المظالم التى تمارس ضد الشعب الإفريقى، والاضطرابات التى تحدث فى

بريطانيا أو الولايات المتحدة بواسطة الهجمات العنصرية ونظم التمييز العنصرى، كل ذلك هو النتائج المستمرة للتدمير الذى بدأ من ٤٠٠ سنة بكارثة النظام العبودى.

وبالنسبة لى كرجل من رجال القانون أرى أنه من الجوهرى أن نضع مطلب التعويض فى إطار القانون والعدالة، وإذا كان هذا مجرد صيحة لضمير العالم الأبيض فإنها تستحق شيئًا من الوعى، وفى حين يوجد عدد من الحركات والأفراد المهتمين بموضوع التضامن فى عالم البيض، فإن مراكز القوى الاقتصادية والسياسية قد شهدت فقدانًا للضمير قاسيًا جدًا، عندما يتعلق الأمر بالسود أو الشعوب الإفريقية.

ومن تجربتى فإن التقدم يحدث عندما تكون القوى الحاكمة فى العالم الأبيض مجبرة على الاعتراف بأن حقوق غير البيض من الشعوب تعتمد على العدالة، وعندئذ فإن أشكال التعويض القانونى التى لم تكن موجودة من قبل تصير قائمة، فمثلاً كان من الأمور الطبيعية العادية من ٢٥ سنة فى بريطانيا، وكان أمرًا قانونيًا تمامًا أن أى مالك أرض أو رب عمل يمكن أن يضع لافتة تقول «وظائف خالية المولدون يمتنعون»، ولكن اليوم فإن أى رب عمل يرتكب هذا التمييز على أساس عنصرى يمكن جرجرته إلى المحكمة لأداء التعويض، إن التمييز العنصرى على أساس العرق يمكن أن يطالب بالتعويض عنه أمام المحاكم. وعلى المستوى العالمى فقد كانت التفرقة العنصرية يُنظر إليها على أنها من الأمور الداخلية مهما كانت مؤسفة، ولكن بعد مضى السنين صارت التفرقة العنصرية معترفًا بأنها جريمة ضد البشرية وأنها تهدم السلام، ومن ثم يمكن فرض المقاطعة الدولية بسببها.

إن هذا لا يعنى أن هذه الإنجازات قد أتت بالعدالة بشكل تلقائى فإن هذا لم يحدث لا فى بريطانيا ولا فى جنوب إفريقيا، ولكن هذه الأمثلة تظهر أن مطلب العدالة والشرعية هو عنصر جوهرى فى الصراع من أجل الهدف العادل، وبهذا فإن مطلب التعويضات يرتكز على ثلاثة افتراضات:

* أن الاختطاف الجماعى والاسترقاق الجماعى للإفريقيين هو أكثر مشروعات الجرائم شرًا فى سجل التاريخ البشرى.

* لم يدفع تعويض قط من مرتكبى هذا الأمر إلى أى ممن قاسوا منه.

* أن كل نتائج الجريمة بقيت شاملة سواء فى ثروة الخلفاء والأحفاد ، أو فى شكل الإفقار لإفريقيا والخلفاء الإفريقيين وحفدتهم ، ومن ثم فإن قضية التعويض تتأكد بغير أى شك معقول .

هناك من يقول : إن هذا الكلام هو صحيح من الناحية النظرية ، ولكن لا توجد آلية عملية لوضع هذا المطلب وفرضه ، كما لا توجد الإرادة لدى العالم الأبيض للاعتراف به ، وأنا أجيب على هذا القول بالمأثورة اللاتينية : «حيثما وجد المرض يجب أن يوجد العلاج» .

إن الظلم بغير علاج أمر بغيض بطبيعته ، وعندما يوجد هذا المطلب ويؤسس على مبادئ معترف بها من الجماعة الدولية ، فإن العلاج والآليات سيوجدان . وكذلك فإن اهتمام رجال القانون والقضاة على المستوى العالمى بهذا الأمر ، هو ضرورى وسيحرك كل إمكانيات الإبداع والخيال لديهم .

إن القانون الدولى لم يكن أبدًا قانونًا جامدًا ، وإن هياكل جديدة كثيرا ما تظهر لتؤثر فى إمكانية تحقيق المبادئ ، وإن محكمة مجرمى الحرب فى نورمبرج كانت مثلاً لتفكير قانونى جديد أتت بمعيار العدالة ؛ بسبب الكوارث التى فعلها النازى ، كما أن المحكمة الدولية للعدالة أسست لتسوية المنازعات الدولية بالقانون أكثر مما تحل بالحرب ، وهذا تنظيم لم يكن معروفًا منذ بداية هذا القرن .

إن هذه الورقة هى محاولة لوضع مفهوم وتصور قانونى لصياغة أسلوب للتعامل مع مطلب التعويضات ، وهذا يمكن ذكره فى سبعة أسس رئيسية :

١ - إن استرقاق الإفريقيين كان جريمة ضد الإنسانية

إن ميثاق محكمة نورمبرج عرّف الجرائم التى ترتكب ضد الإنسانية بهذا النص «القتل والتمييز والاسترقاق والنفى وغير ذلك من الأفعال غير الإنسانية التى ترتكب فى حق المدنيين . . سواء كان فى ذلك انتهاك للقانون المحلى للبلد الذى تمارس فيه أو لم يكن» .

وقد خوّل الميثاق للمحكمة القضاء فى الجرائم التى ترتكب ضد السلم «بالتخطيط أو الإعداد أو التهديد أو خوض حروب العدوان» ، وكذلك جرائم الحرب «بانتهاك القوانين والأعراف الخاصة بالحرب بما فى ذلك القتل وسوء المعاملة

والترحيل لأعمال السخرة أو لأى غرض آخر، وذلك بالنسبة للمدنيين القاطنين بالإقليم المحتل أو الشاغلين لهذا الإقليم».

إن رجال القانون الدولى يعتبرون أن ميثاق نورمبرج لم ينشئ قانونًا جديداً، ولكنه أعلن وأكد مفاهيم تتعلق بالإجرام الدولى كانت معترفًا بها عبر القرون السابقة، وكما يذكر الدكتور أوكونيل: «أن المحكمة وجدت أن الوقائع التى تنتهك الضمير الإنسانى وتوجد ضد الجماعات المدنية هى جرائم فى القانون الدولى».

فى ١٩٤٨م أعدت الأمم المتحدة اتفاقًا بشأن منع جرائم القتل الجماعى والعقاب عليها، وقد صدّق عليه من جانب أغلب الدول فى العالم، وبعد ذلك اتخذ هذا الاتفاق صيغة تشريعية جديدة تعبر عن المفهوم القديم فى القانون الدولى. إن التمهيد الذى جاء فى مقدمة الاتفاق اعترف بأن القتل الجماعى هو جريمة ضد القانون الدولى، وكذلك فى كل مراحل التاريخ فإن القتل الجماعى قد كبّد الإنسانية خسائر باهظة، ويعتبر القتل الجماعى هو: «كل من الأفعال الآتية التى ترتكب بقصد الإهلاك الكلى أو الجزئى لجماعة دينية أو عرقية أو إثنية مثل قتل أعضاء فى مجموعة، ومثل التسبب فى الإيذاء الحاد الجسمانى أو المعنوى لأعضاء فى مجموعة، ومثل التصميم على فرض ظروف للحياة تؤدى إلى الهلاك العضوى الكلى أو الجزئى».

إن المؤرخين والخبراء يكتشفون بغير صعوبة كيف أن غزو الأراضى الإفريقية والاصطياد الجماعى للإفريقيين، والفظائع التى ارتكبت، والشحن الحيوانى للبشر الإفريقيين إلى الأراضى الأمريكية، والتمييز ضد الإفريقيين المرحلين فى اللغة والثقافة، كل ذلك يشكل انتهاكًا لهذه القوانين الدولية. إن القول بأن هذه الجرائم كانت مشروعة طبقًا للقانون الدولى، وأنها جرى تقبلها هناك من غير الأوروبيين، هو قول غير مفيد.

إن الأوروبيين لم يشكلوا ولا يشكلون إلى الآن كل الجنس البشرى، وإن الضمير الإنسانى دائمًا يعبر عن امتعاضه لهذه الكوارث والفظائع التى مارسها الأوروبيون على الأفارقة على مدى أربعمائة سنة. وفى الحقيقة يمكن القول: إن أكبر جريمة ضد البشرية هى أن تنكر الوضع الإنسانى لقسم كبير من الآدميين.

٢ - إن القانون الدولى يعترف بأن هؤلاء الذين يرتكبون الجرائم ضد الإنسانية يجب أن يؤدوا التعويض عن هذا الأمر، يلزمهم تعويض هذه الأضرار

إن الحق فى التعويض معترف به فى القانون الدولى، وقد عرّفته المحكمة الدائمة للعدالة الدولية (التكوين السابق لمحكمة العدل الدولية) بهذه العبارات: «إن المبدأ الجوهرى المتضمن فى المفهوم الواقعى للعمل غير المشروع - المبدأ الخليق بأن يتأسس بواسطة الممارسة الدولية وخاصة قرارات المحاكم الدولية - هو أن التعويض يجب أن يقدر بما يمكن أن يزيل تمامًا جميع النتائج التى ترتبت على العمل غير المشروع، ويعيد إلى الوجود الحالة أو الوضع الذى كان موجودًا قبل أن يرتكب الفعل غير المشروع، وذلك بقدر ما يمكن».

«إن الوفاء أو الرد يجب أن يكون عينيًا فإذا لم يمكن ذلك جاز دفع مبالغ تتناسب مع قيمة الوفاء العينى تمامًا، وهو تعويض عن الهلاك الحاصل والخسائر التى تحققت، والتى لا يمكن إعادتها من جديد عينًا فيؤدى التعويض بدلاً منها. هذه هى الأسس أو المبادئ التى تفيد فى تحديد مبلغ التعويض المستحق عن الفعل المعارض للقانون الدولى».

إن أغلب الحالات القانونية فى التعويض هى المتعلقة بالتعويض عن الخسائر مثل هلاك الملكية والمنازل والسفن، ولكن المبدأ يبقى قائمًا فى حالة الأفعال غير المشروعة على نطاق واسع والتى تؤثر على الشعوب بعامة، ومن ثم يكون هناك مجال فى التعويض عن هذه الأفعال مثلما حدث فى الحالات الآتية:

* فى ١٩٥٢م توصلت ألمانيا لاتفاقية مع إسرائيل لدفع ألمانيا ٢٢٢ مليون دولار، وذلك نتيجة لدعوى رفعتها إسرائيل عن نفقات إعادة توطين ٥٠٠ ألف يهودى هربوا من البلاد التى سيطرت عليها النازية، وبعد ذلك فى ١٩٩٠ م دفعت النمسا ٢٥ مليون دولار لمن بقوا أحياء من المحرقة اليهودية، وإن عددًا من الاتفاقيات قد أبرمت فى ظل قانون التعويضات الأجنبية البريطانى عن الخسائر والملكيات التى نزعت أو أفسدت فى كل من بلغاريا وبولندا والمجر ومصر ورومانيا.

* وقد أدت اليابان تعويضات نقدية لكوريا الجنوبية لما ارتكبته من أفعال خلال الغزو والاحتلال اليابانى لكوريا.

* وأخيراً فإن مجلس الأمن فى الأمم المتحدة قد أصدر قراراً طالب فيه العراق بأن تؤدى تعويضات لغزوها الكويت.

فالأمر فى ذلك واضح فى أن مفهوم التعويض قد تأكد وثبت واتبعته دول عديدة بالنسبة لمن أصابهم ضرر من مواطنيها، أو بالنسبة للدول التى مورس معها الفعل الخاطئ.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الإنسان يستطيع أن يوجد بنداً آخر للتعويض له مصداقية واضحة، وذلك عندما تتقبل الدولة مسئولية الوفاء لا لدول أخرى فقط، ولكن لمجموعات من الشعوب تقيم فى حدودها الإقليمية وتكون حقوقهم قد انتهكت.

وفى ١٩٨٨م فإن الكونجرس فى الولايات المتحدة قد أصدر قانونًا خاصًا بالحريات المدنية لأداء تعويضات لليابانيين الأمريكيين، بالنسبة لما فقدوه عندما اعتقلتهم الحكومة الأمريكية بأعداد كبيرة فى فترة الحرب التى جرت بين أمريكا واليابان، وكان المجموع هو ١,٢ مليار دولار بواقع ٢٠ ألف دولار لكل شخص. وإن القانون أوضح المبدأ الخاص بالتعويض بعبارات فصيحة، يمكن أن تطبق على الدعاوى التى ترفعها الشعوب الإفريقية.

وأغراض هذا القانون هى:

- الاعتذار لهؤلاء.
- تعويض الأفراد من ذوى الأصول اليابانية عن اعتقالهم.

وقد اتخذت خطوات أخرى فى الاعتراف بالحق فى التعويض للأهالى الأصليين الذين اغتصبت أراضيهم واحتلت، سواء فى الولايات المتحدة أو كندا أو استراليا. وإن كلاً من هذه البلاد قد وضع تسوية لموضوع الأرض ودفع مبالغ للأهالى الأصليين. إن هذه لا تعتبر كافية لتعويض الكوارث التى ارتكبت ضد هؤلاء الأهالى الأصليين، ولكنها تعتبر خطوة تشكل نوعًا من الاعتراف بأن الأجيال الحاضرة من السكان الأصليين لهم الحق فى المطالبة بالتعويض عن الجرائم التى ارتكبت ضد أسلافهم.

٣- إنه لا يوجد عائق شرعى يمنع من يعانون من آثار الجرائم التى ارتكبت ضد

الإنسانية للمطالبة بالتعويضات حتى ولو كانت هذه الجرائم قد ارتكبت ضد أسلافهم

إن مسألة ما إذا كان للأخلاف المباشرين لضحايا الجريمة الحق فى التعويضات، تعتمد على طبيعة الادّعاء الذى يمكن التقدم به. إن تعويضات الولايات المتحدة لليابانيين الأمريكيين كانت تنصب على تعويضهم عما قاسوه هم أنفسهم فى المعتقلات.

وإن ما أدته النمسا كان لمن بقوا أحياء فى معسكرات الاعتقال، وكذلك لما وقع عليهم من أضرار عضوية وعصبية فى معسكرات الاعتقال. وعندما كان يموت أحد المدعين بطلب التعويض قبل الحكم له كانت دعواه تموت معه؛ لأن الألم والمعاناة يختص بهما وحده.

ولكن هناك حالات عديدة كانت نتائج الجرائم المرتكبة تمتد إلى الأخلاف. فعندما تنتزع الملكية فإن المعاناة من الفقد هنا لا تتعلق بالمالك وحده الذى نزعت ملكيته، ولكنها تمتد إلى ورثته وذريته من بعده؛ لأنها كانت ستؤول إليهم.

فى مثل هذه الحالات فإن القانون الدولى يضع علاجًا لها، حتى ولو كان المدعى لم يولد بعد عند غصب الملكية.

وعلى سبيل المثال فإن الأمر الذى صدر طبقًا لقانون التعويضات الأجنبية البريطانى فى ١٩٥٠م، يوضح أن لجنة التعويضات الأجنبية تقبل أية دعوة متعلقة بأية ملكية فى مصر تكون قد صودرت أو استولى عليها من حكومة عبد الناصر إذا كان المطالب بها هو المالك أو إذا كان خلفًا لهذا المالك، وهذا يوضح بصراحة أن الأطفال والأحفاد للمالك الأصلى يستفيدون من الدعوى.

وأخيرًا بعد توحيد ألمانيا فإن الدعاوى التى أثيرت من أبناء وبنات ملاك الأراضى التى كانت صادرتها ألمانيا الديموقراطية عادت من جديد، ولم ينكر أحد حق أبنائهم فى ادّعائهم، رغم أنهم كانوا أطفالاً عند المصادرة وبعضهم كان لم يولد بعد عندما صودرت أملاكهم. كما أن الادّعاءات التى قُدمت والدعاوى التى رُفعت لم ترفع فقط من أخلاف الملاك، ولكنها رُفعت أيضًا من الدولة الوطنية التى كانت تتحمل عبء آثار هذه الجريمة.

وكما أشير من قبل فإن إسرائيل نجحت فى دعواها عن التعويضات من ألمانيا الغربية وعن نفقات توطين اللاجئين اليهود، رغم أن إسرائيل لم تكن قد وجدت كدولة بعد فى الوقت الذى ارتكب فيه النظام النازى جرائمه ضد اليهود.

ومما له دلالة أيضًا أن ألمانيا الغربية التى استشعرت الالتزام بقبول هذه الدعوى، هى أيضًا كانت دولة مختلفة عن دولة الرايخ الألمانى المسئولة عن هذه الكوارث، مختلفة من ناحية الإقليم ومن الناحية السياسية.

ومن ناحية المبدأ فإن الوقت الذى مر منذ انتهاء العبودية لا يشكل عائقًا أمام دعاوى الشعوب الإفريقية، باعتبار أنه يمكن إثبات أن النتائج والآثار التى ترتبت عن جريمة العبودية لا تزال مستمرة ولا تزال تعلن عن نفسها، وعن الأضرار التى لحقت بالإفريقيين، سواء من يعيشون منهم فى إفريقيا أو من يعيشون فى الشتات، وفى هذه النقطة فإن شواهد الخبرة التاريخية واضحة وجلية.

وفى القارة الإفريقية فإن حضارات مزدهرة قد دُمرت، ونظم حكم وحكومات قد سُحقت، وملايين من المواطنين قد أجلوا بالقوة، وترتب على ذلك مباشرة إفقار وتخلف يؤثر إلى الآن على إفريقيا وكل قاطن فى إفريقيا السوداء.

وبالنسبة للأمريكات فإن نظام العبودية قد أنتج الفقر والتجرد من الملكية والأرض والتخلف، كما أنتج السحق الثقافى واللغوى وفقدان الهوية، وترسيخ الشعور بالنقص لدى الشعب الأسود وترسيخ تفوق الجنس الأبيض، وكل ذلك مستمر إلى اليوم ويؤثر فى الشعب الأسود ووسائله فى العيش وكفاءته وآماله، وهم يعيشون فى الكاريبى وفى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأوروبا.

فى حين أنه لا توجد حدود زمنية فى القانون الدولى فإن التأخير غير المعقول يصلح سببًا لرفض الدعوى، وأن الدولة التى لها ادّعاء صحيح وتكون فشلت فى أن تتقدم به لمدة طويلة يمكن القول بأنها أسقطت حقها فى المطالبة بالتعويضات. وعلى أية حال فلا يوجد اعتراض على أى من هذه الملاحظات يمكن أن يقوم ضد دعاوى إفريقيا والإفريقيين فى الشتات.

ففى حالة إفريقيا ومنطقة الكاريبى فإن مرحلة العبودية وتجارة العبيد قد تلتها مرحلة الاستعمار، ويمكن القول بأن الاستعمار ذاته هو جريمة من جرائم القانون

الدولى؛ لأنه نوع من الابتزاز المفروض بالقوة على حقوق الشعوب المستعمرة فى ممارسة السيادة، وقد كان الاستعمار على الأقل جريمة ضد السلم، وفى أكثر الأقاليم المستعمرة كان جريمة ضد الإنسانية.

وبالنسبة للولايات المتحدة فإن العبيد السابقين كانوا خاضعين لنظام من الإقصاء والتطور المنفصل، والاضطهاد العرقى، وإنكار الحقوق المدنية، والحصر فى المناطق المعزولة، ولم يخرجوا من هذا الوضع إلا فى السنين الأخيرة بضغوط حركة الحقوق المدنية للإنسان.

إن النقطة المهمة هى أن الشعب الإفريقى إلى وقت قريب جداً لم يكن له صوت مستقل، ولا كان له أى وضع مشخص له فى الجماعة الدولية، وكيف كان يمكن للشعب فى غانا مثلاً أو جاميكا أن يطالب بحقه فى التعويضات عندما كانت دولهم تعتبر ممتلكات لما وراء البحار مملوكة لهذا البلد نفسه الذى اختطف أسلافهم واستعبدهم؟!

وكذلك فإن الأمريكيين الإفريقيين عندما صارعوا من أجل حقهم بأن يعترف بهم بوصفهم مواطنين، هل كان يمكنهم أن يتقدموا بدعواهم حتى إذا كان هناك منبر عالمى يمكن التقدم فيه بهذه الدعاوى؟

وحتى بعد استقلال الأمم الإفريقية من الاستعمار فإن الارتباطات ونظام الاستعمار الجديد قد فتّا من قوة الحكومات الإفريقية فى أن تتحدث بأى نبرة مستقلة ضد غزاتهم السابقين، لقد استغرق هذا الأمر نحو ثلاثين أو أربعين سنة منذ الحصول على الاستقلال الشكلى لكى يرتفع الصوت المطالب بالتعويضات.

وفى الحقيقة فإنه الآن وليس قبل الآن هو الوقت الصحيح للتقدم بالدعوى؛ إذ صار القادة الإفريقيون قادرين على الكلام بثقة جديدة بالنفس، ويعملون على تشكيل هياكل ديموقراطية جديدة.

٤ - إن الدعوى يجب أن تقدم عن كل الإفريقيين سواء كانوا فى إفريقيا أو فى الشتات الذين عانوا من نتائج الجريمة وتقدم من وكالة تمثل جهازاً ممثلاً لهم فعلاً

وبقدر ما يتعامل الإنسان مع الأسس القانونية لدعوى التعويضات فإن الفصول الأربعة الأخيرة تتناول المسائل التى يرتبط بها التحليل القانونى أيّا كان وجه الصعوبة فى الإجابة عليها:

أولاً: مَن الذين يكونون المدعين أو المطالبين بالتعويضات؟

ثانيًا: مَن المدعى عليهم التى ترفع الدعوى ضدهم؟

ثالثًا: ما الخسائر والأضرار اللتان يطالب بالتعويض عنهما؟

رابعًا: فى أى محكمة يقدم الادّعاء؟

من المطالبون بالتعويضات؟ إن الإجابة هى أنهم كل الإفريقيين سواء فى القارة الإفريقية أو فى الشتات الذين عانوا من نتائج جريمة الخطف الجماعى والاسترقاق، كل هؤلاء لهم مصلحة فى الدعوى. إن كل الإفريقيين حول العالم قد تأثروا بطريقة أو بأخرى بجريمة العبودية، حتى هؤلاء الذين نجحوا فى الأعمال الاقتصادية أو فى الأعمال المهنية قد واجهوا تحاملاً عرقيًا ضدهم على أقل الفروض، فى حين أنه قد تكون هناك بعض العائلات أثرت عن طريق التعاون مع ملاك العبيد فإن ذلك يتعين ألا يهدم الحقيقة المطلقة، وهى أن اغتصاب إفريقيا قد أفقر الإفريقيين جميعًا سواء من أخذوا أو تركوا.

أما من الذين يشرعون فى إقامة الدعوى لصالح كل هؤلاء؟ إن هذه المسألة تتجاوز الحكومات الوطنية، ولكن هذه الحكومات هى المسئولة عن تحقيق البرامج الاجتماعية، وهى المسئولة أيضًا عن أداء الديون الأجنبية المحملة بها أوطانهم، ومن ثم فالحكومات الوطنية هى التى مفروض عليها أن تضطلع بهذه المسئولية.

وعلى أية حال فإن أفارقة أمريكا وأفارقة بريطانيا وأفارقة فرنسا وغيرهم ممن يشكلون أقليات فى أية دولة استقروا فيها، ليس لأى من حكوماتهم أن تتكلم باسمهم. إن المطلوب أن يشكل تمثيلاً أو جهازًا مؤتمنًا يتحدد نطاقه وتشكيله وآليات عمله عندما تتطور فكرة وحركة المطالبة بالتعويضات.

إن الدعوى يجب أن تقدم ضد حكومات البلاد التى شرعت ومارست تجارة العبيد الإفريقيين واغتنمت منها وشكلت مؤسسة العبودية والنظام العبودى.

٥ ـ من المسئول عن أداء التعويضات؟

هنا فإن الأكثر معقولية هو التركيز على حكومات الدول التى شجعت تجارة الرقيق وأيدتها، وشرعت مؤسسة العبودية وتربحت نتيجة لهذا الأمر، وهذا يقودنا إلى السؤال التالى: هل من الممكن أن نوحد بينها وبين الشركات الفردية التى يثبت

أنها حققت أرباحًا طائلة من العبودية؟ إن هناك ملاك مزارع شاسعة فى چاميكا، وأسر فى انجلترا ذات ألقاب معروفة وورثتهم من الأحياء يمتلكون ثروات ترجع إلى العبودية، فهل يمكن أن تكون هذه الشركات والأسر هدفًا لتوجية مطلب التعويضات إلى أفرادها؟

إن هذا المدخل سيخلق من المشاكل أكثر مما يحل منها، إن أبحاثًا واسعة ستكون مطلوبة للتوحيد بين الشركات والعائلات، وهى تحديد المبالغ المطلوبة من كل من خلفائهم، وتقدير ما الذى يمكن أن يطلب من كل من حملة الأسهم الحاليين وأعضاء الأسر. إن هذه العملية ستكون بالحتم عملية تحكمية بشكل أو بآخر، وهى لا تخلو من احتمالات الظلم، وستكون مرفوضة من حيث المطالبين بها أفرادًا كانوا أو حكومات.

حالة واحدة نستطيع أن نستثنيها هى حالة ما إذا كان من الممكن إثبات أن عملاً من الأعمال الفنية يكون قد استولى عليه استيلاءً غير مشروع فى ظروف ممارسة الغزو لإفريقيا أو ممارسة النهب بها.

فى هذه الحالة وحدها فإن مفاهيم القانون الدولى المتعلقة بالاسترداد العينى ستطبق، وإن عملية التعويض يجب أن تتضمن رد الكنوز إلى البلد التى أخذت منها، وإلى الشعوب التى سُرقت منها أو إلى الشعوب التى تمثل ماضيها.

وفى الحقيقة فإن هذه الحالات من الاسترداد العينى فإن المالك الفرد سيفقد العمل الفنى، ولكنه يمكن أن يطلب تعويضًا عنه يماثل قيمته وذلك من حكومته؛ وذلك بسبب أن الاسترداد سيكون بالتعاون مع الحكومة الأوروپية المعنية أو مع غيرها من الحكومات المعنية. وإن المبدأ العادى هو أن التعويض يجب أن يؤدى عندما تنتزع الملكية الفردية بقرار تصدره الحكومة.

إن الأسباب الخاصة بلماذا تكون الحكومات هى المدعى عليه فى دعوى التعويض، ترجع فى رأيى إلى أن الحكومات لديها وجه سيطرة على الثروة الوطنية من خلال سلطتها فى فرض الضرائب وحفظ الأرصدة، والحكومات هى التى يجب إقناعها فى النهاية بأن التعويضات يتعين أن تؤدى بما تفرضه العدالة، والحكومات هى التى تستطيع أن تحدد ما إذا كان عبء الدَّيْن الإفريقى قد وضع وأدى أم لا، والحكومات هى التى تستطيع أن تبرم اتفاقيات دولية وإعمالها من خلال القنوات القانونية.

إن المؤرخين هم من سيقترح أيّا من الدول قد تربّحت أكثر من غيرها من العبودية ومن تجارة العبيد. إن أهم الدول البحرية الأوروبية والمستعمرين يمكن أن يتوحدوا، وكذلك الولايات المتحدة التى نمت واغتنمت جدّا من العمل العبودى ومن استغلال الأفارقة الأمريكيين.

٦ ـ مبلغ التعويض فى الدعاوى يقدره خبراء فى كل وجه من وجوه الحياة وبالنسبة لكل إقليم عن الضرر الذى تأثر به والناجم عن النظام العبودى

إن المبلغ الذى يمكن أن يطالب به يحتمل أن يكون مما يختلف عليه فى داخل حركة المطالبة بالتعويض، إن كل بلد تأثر بالعبودية يجب أن تدرس حالتها، ويمكن أن تدرس حالة كل شعب من الشعوب القاطنة فى كل دولة، وإن اعتبارات مختلفة ستطبق على شعوب القارة الإفريقية الشعوب التى تنتمى اليوم إلى دول مستقلة وكانت العبودية تفاقمت فيها، والشعوب التى تشكل الآن أقليات فى أوروبا وأمريكا الشمالية.

وإن التدمير الذى حصل يجب أن يصنف ويبحث فى مجالاته المختلفة، وهناك تدمير اقتصادى وتدمير ثقافى وتدمير اجتماعى وتدمير نفسانى سيكولوچى.

وإن وضع أرقام نقدية ومالية بالنسبة لكل من عناصر الدعوى سيثير مسائل عديدة ليس من المستطاع الإجابة عنها الآن، فكيف يمكنك أن تقدر قيمة ما فقده كل شعب أفريقى بالنسبة لكل شاب اختطف ورحل من ٢٠٠ سنة مضت؟

وما المبلغ الرقمى الذى يوضع عن أى تدمير نفسانى أحدثه نظام عنصرى عميق الجذور؟ وهل يمكن إثبات أن نظام العبودية دمر حضارات إفريقية كانت مزدهرة وعميقة؟ إن كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن نقيس قيمتها؟

وما مستوى الاسترداد العينى الذى يمكن تطبيقه بالنسبة للشعوب الإفريقية فى الشتات؟

وثمة مدخل آخر يمكن تبنيه على التوازى وهو قياس حجم الذى اغتنمت به كل من الأمم الأوروبية المختلفة بواسطة مؤسسة العبودية.

فى تقرير لجنة التقصى عن العنصرية فى ليفربول التى كنت أرأسها ١٩٨٩م نقلت عن المؤرخ «رمزى موير» الذى كتب ١٩٠٧م يصف تجارة الرقيق «. . . بلا

شك قد كانت تجارة العبيد التى ظهرت فى ليڤرپول هى ما جعلت ليڤرپول واحدة من أغنى المراكز التجارية وأكثرها رخاءً فى العالم».

وثمة شهادة أخرى يمكن إظهارها تتعلق بمدن بريستول ولندن وبوردوه وموانى أخرى، ومن الطبيعى أن الثروة التى تولدت فى هذه الموانى قد انتشرت فى أنحاء البلاد.

ولكن هنا أيضًا وحتى إن كانت الصورة العامة واضحة فإن التقدير التفصيلى ليس سهلاً، هل من الممكن تقدير حجم الأرباح التى تحققت فى موانى أوروپا؟ وإن كان ذلك فكيف يمكن ترجمة هذا الحجم إلى مبالغ نقدية اليوم أى بقيمتها الحاضرة؟وهل تكون المسألة أسهل فى حالة أمريكا الشمالية والكاريبى بالنسبة لأرباح ملاك المزارع الواسعة؟

من حسن الحظ فإن هناك من ينشدون الحقيقة، ويجادلون أن يجدوا إجابات عن كل هذه الأسئلة عن طريق البحث المتيقن، وإن أية أرقام توضع بالنسبة للعناصر المختلفة لدعوى التعويضات ستكون هى أكثر ما يمكن تقديره على أساس البحث التاريخى المتيقن. وأيّا كانت عملية البحث وقيمتها بالنسبة لتقدير الأرقام فإنها ستكون مسألة تعليمية يمكن بها أن ندرك فظائع الماضى ونتبينها.

وكلما استطعنا الكشف عن تفاصيل نظام العبودية ونتائجه، كلما ازداد الفهم والتفاهم بين الشعب الإفريقى بالنسبة لعدالة المطالبة بالتعويضات.

٧ ـ الدعوى إذا لم تسو بالاتفاق فإنها ستتحدد فى النهاية بواسطة محكمة دولية تنظمها كل الأطراف المعنية

لا توجد الآن محكمة معدة لسماع دعوى التعويضات الخاصة بإفريقيا والإفريقيين فى الشتات. إن محكمة العدل الدولية معدة لسماع الدعاوى التى تقيمها إحدى الدول ضد دولة أخرى عن انتهاكات القانون الدولى، ولكن هذه الدعوى هى أضخم بكثير عن أى دعوى بين دولتين. إنها تحتاج إلى آليات جديدة تتناسب مع المسائل الفردية التى تكلمت عنها. وإن فقدان وجود هذه المحكمة الآن لايؤثر على طلب التعويض، وفى الأمثلة التى سقناها من قبل فإن مشروعية الدعوى معترف بها ومشمولة بالاتفاق قبل أن تظهر محكمة تنظر فى هذه المظالم.

وكجزء من هذا الاتفاق فإن الآليات الخاصة بالتعامل فى الدعاوى الفردية تظهر الآن، وطبيعة المحكمة ستظهر من خلال المفاوضات والاتفاقات، فمثلاً الاتفاق الذى وقع بين إيران والولايات المتحدة لدفع التعويضات قد شكلت لجنة من تسعة أعضاء منهم ثلاثة من القضاة الأمريكيين وثلاثة من القضاة الإيرانيين وثلاثة من دول ليست متورطة فى النزاع، وهى تجتمع فى ثلاث غرف من ثلاثة قضاة وتنظر فى نحو ٤ آلاف ادّعاء.

وفى هذه المرحلة فإن الأوضاع لم تنضج بعد لتصور تشكيل أية لجنة أو محكمة يمكن أن تنظر فى تعويضات الإفريقيين.

إن الاعتراف الدولى بعدالة هذه المطالبات هو شرط مسبق لإقامة الآليات الخاصة لتحقيق هذه العدالة.

هذه هى إذن المهمة الكبرى التى يتعين على القانونيين فى البلاد المختلفة أن يقوموا بها، وهم يشكلون قسمًا واحدًا من القوى التى يجب أن تقوم بهذا الصنيع، ويجب أن يشارك آخرون مؤرخون ورجال آثار وفنانون وكتّاب وساسة وعلماء اجتماع وعلماء نفس، وخلف هؤلاء كل الناس ذوى النوايا الحسنة من كل الأجناس الذين يعرفون أن جريمة العبودية كانت شرّاً مستطيراً يتعين التعويض عنها.

* * *

مؤتمر ديربان لمناهضة العنصرية

فى ديربان وهو واحد من أهم المعاقل القديمة للعنصرية البيضاء انعقد المؤتمر العالمى الثالث لمناهضة العنصرية والتمييز العنصرى فى الفترة ما بين ٣١ أغسطس إلى أول سبتمبر ٢٠٠١ م، وقد سبقه مؤتمران للعنصرية عقدتهما الأمم المتحدة فى عامى ١٩٧٨م، و١٩٨٣م (١).

وديربان هو الميناء الرئيسى لإقليم ناتال الذى يقع داخل مملكة الزولو فى جنوب إفريقيا، وفيه تختلط الأجناس العرقية السوداء والبيضاء والملونون، خصوصًا من الهنود الذين جلبهم الاستعمار البريطانى للعمل كرقيق. حضر المؤتمر ١٦٢ دولة وبلغ عدد الحضور ١٧ ألف مندوب و٧٥٠ صحفيًا.

كان المؤتمر مؤتمرًا للمضطهدين، ولم يكن مأمولاً من الدول الكبرى أن تذهب راضية لتضع نفسها فى قفص الاتهام بهذه السهولة، حاولت عرقلته فرفضت فى البداية أن تدفع الحصة التى عليها فى نفقات المؤتمر، وتركت حكومة جنوب إفريقيا تؤدى الفاتورة كلها وهى تبلغ عشرة ملايين جنيه استرلينى.

ولكن تجفيف المؤتمر من الناحية المالية لم يحلْ دون حدوثه، وعلى مدى ثمانية أشهر كان الأمريكيون والإنجليز يبذلون جهدهم لتطويق انعقاده، فلما أدركوا أن

---

(١) المؤتمر الأول عقد فى أبوجا بنيجيريا عام ١٩٩٣م، وفيه بحث المحامون ورجال التاريخ الوسائل العملية للحصول على التعويضات عن العبودية والاستعمار، وقد شكلت منظمة الوحدة الإفريقية لجنة فرعية للقيام بحملة على المستوى الدولى خاصة على مستوى الأمم المتحدة. وعقد المؤتمر الثانى عام ١٩٩٩م فى أكرا فى غانا، وقد أصدر إعلانًا طالب فيه بدفع مبلغ ضخم للتعويض عن استعباد الأفارقة واستعمار قارتهم، وكانت المطالبة موجهة لكل الدول والتنظيمات فى أوروبا الغربية والأمريكتين التى شاركت واستفادت من تجارة العبيد ومن الاستعمار، وطالب إعلان أكرا بأن تؤخذ من حصيلة التعويض المطلوب قيمة الديون الخارجية لإفريقيا.

تهديدهم بمقاطعته قد فشل أوفدوا وفوداً عنهم على أقل مستويات التمثيل لمجرد أن تذهب وتراقب ما يحدث.

كانت القضية الرئيسية فى المؤتمر هى قضية الرق والاستعباد ومسئولية الدول الغربية الاستعمارية عنها وحتمية الاعتراف بذنبها، ومن ثم دفع تعويضات مادية وتقديم اعتذارات معنوية عما اقترفته. كان مطلب الدول الإفريقية من الدول الغربية الاعتذار عن تجارة الرق وحقبة من العبودية والاستعمار استمرت قروناً (١).

القضية الثانية كانت القضية الفلسطينية، وقد تقدمت ١٣٠٠ منظمة أهلية غير حكومية بمشروع قرار باعتبار إسرائيل دولة عنصرية تقوم على الاضطهاد العرقى فى معاملتها للفلسطينيين، ووصف ممارسات إسرائيل ضد الفلسطينيين بأنها عنصرية فى شكل جديد، واتهام إسرائيل بارتكاب جرائم ضد الإنسانية والإبادة العرقية.

وبالإضافة إلى هاتين القضيتين ضم جدول أعمال المؤتمر عدة قضايا أخرى، منها الغجر فى أوروبا ،والسكان الأصليون واللاجئون والمهاجرون، والفقر والأوبئة التى تهدد النمو ،علاوة على الأشكال الجديدة للعنصرية التى منها الاستغلال الاقتصادى والتهميش والاستعلاء الثقافى والعنف.

* * *

دارت المعركة على أرض ديربان حيث ألقى الأمريكيون والأوروبيون بكل أثقالهم؛ ليروضوا ممثلى الشعوب المقهورة من إفريقيين وعرب وآسيويين ولاتينيين من أمريكا الجنوبية، الذين استيقظوا بعد أربعة قرون من الاستعباد والقهر والاستغلال ليقولوا لممثلى المستعمر القديم: لقد جاء وقت الحساب وعليكم أن تدفعوا ثمن القهر التاريخى الذى مارستموه على البشرية؛ لتفقروها وتفتتوها وتزرعوا فيها التخلف الرهيب وتحققوا بهم التقدم الذى ترفلون فيه الآن.

أراد المجنى عليهم من شعوب العالم أن يخرجوا من هذه المعركة أولاً باعتراف صريح من قاهريهم بمسئوليتهم عن عصور القهر والاستعباد والاستغلال وممارسة

(١) اختطف خلال هذه الحقبة ملايين الأفارقة من بلدانهم، وشحنوا إلى أمريكا الشمالية ومنطقة الكاريبى للعمل كعبيد فى مزارع السكر والقطن والطباق التى يمتلكها التجار الأوروبيون. هناك من الأفارقة الذين اختطفوا وألقوا فى البحر عندما مرضوا؛ بسبب الجوع والظروف غير الصحية التى كانت تحيط بهم فى هذه الشحنات، كما قتل البعض أثناء عمليات التمرد ضد قناصتهم، وآخرون فضلوا إلقاء أنفسهم من السفن على استمرارهم فى رحلة العبودية.

تجارة الرق، التى سرقت مائة مليون إفريقى ونقلتهم إلى العالم الجديد الأمريكات؛ ليزرعوا ويصنعوا ويخدموا السادة البيض، وليحاربوا أيضا باسم غزاتهم ويرفعوا علمهم عنوة[1].

وحين جاء وقت الحساب بدأت محاولات الأخذ والرد فى قاعات المؤتمر، شعر المستعمرون العنصريون القدامى والجدد بالورطة التاريخية على أرض الجريمة وأمام الضحايا وأحفادهم، وفوجئوا بهذه الهبّة، فآثروا إفشال المؤتمر عن طريق الانسحاب، فانسحب الوفدان الأمريكى والإسرائيلى تاركين وراءهما الاتحاد الأوروبى يواصل الابتزاز والتهديد بالانسحاب أو الانصياع الكامل لرأيه، كذلك فعل خمس من كبار الجمعيات غير الحكومية الأوروبية لحقوق الإنسان تحت ضغط حكوماتهم.

كان الإفريقيون يرون أن الاعتذار وحده لا يكفى السود عن الجرائم التى ارتكبتها المجتمعات الغربية فى حقهم، ولا بد من دفع تعويضات مادية لهم نظير إسهاماتهم الكبيرة فى ازدهار أمريكا وأوروبا الاقتصادى، وليس أصعب على الإفريقيين الأمريكيين من تذكر سنوات العبودية الطويلة التى تجرعوا فيها كافة صنوف العذاب والحرمان على أيدى المجتمع الأمريكى الأبيض الذى سلبهم آدميتهم واستعبدهم فى الحقول والمزارع والمناجم والوظائف الدنيا دون مقابل.

لم يحضر المؤتمر رئيس لأية دولة أوروبية، ولكن الزعيم الكوبى «فيديل كاسترو»

---

(١) لقد لعبت الصدفة وحدها دورًا لصالح أحفاد هؤلاء العبيد الذين استوطنوا أمريكا، عندما عثرت الباحثة الأمريكية السوداء «ديورا فارمر بالمان» على وثيقة مهمة فى أرشيف نيويورك أثناء إجرائها بحثًا فى علم الإنسان، تفيد الوثيقة بأن أصحاب المزارع الكبيرة كانوا يؤمنون على العبيد الذين يعملون لديهم؛ مما يعنى أن لهؤلاء العبيد حقوقًا ضائعة فى ذمة الحكومة الأمريكية نظير ٢٥٠ عامًا من العبودية.
وقد وجدت «ديورا»هذه المعلومات القيمة فى كتاب وثائقى بالأرشيف يحوى بيانات أصحاب المزارع والحقول الذين كانوا يسخرون الأفارقة العبيد للعمل فى أراضيهم دون أجر، وحققوا من ورائهم مكاسب أنعشت المجتمع الأمريكى، وكانت البدايات الحقيقية التى ارتكز عليها الاقتصاد الأمريكى القوى الذى قام على أكتاف هؤلاء العبيد.
وقد جاء ظهور هذه الوثيقة ليحسم جدلاً كبيرًا استمر سنوات حول قضايا التمييز العنصرى فى المجتمع الأمريكى، ومدى أحقية سلالة العبيد هناك فى الحصول على تعويضات الآباء والأجداد عن زمن العبودية.

كان موجوداً ، وكذلك عدد من قادة الدول الإفريقية ، وكالعادة نالت كلمة الرئيس كاسترو التصفيق الحاد ، عندما ذكر أن أسوأ شيء فى العبودية والاستعمار هو الجانب النفسانى ، إنه يتعلق بشعب سُرقت لغته وعقيدته وأمهاته وآباؤه وأطفاله وذاكرته حول من هو وما هويته ، وأن ملاك العبيد السابقين أرادوا أن يطمسوا هذا الأمر وينكروه ويطرحوا الماضى بعيداً ، ولكن إفريقيا والمشتتون منها يصرون اليوم على المطالبة بحقوقهم . . «إنك لا تستطيع أن تعيش الحاضر وتمضى إلى المستقبل بغير أن تنظر إلى الماضى» . وقدم تحليلاً عميقًا عن أثر العنصرية التى كانت أكثر حادث مأساوى فى تاريخ العالم ، حيث أمسك اللصوص والنهابون بأدوات الاضطهاد والتعذيب ، وراقبوا الأطفال وهم يتضورون جوعًا ثم يموتون . . كان يتكلم من قلبه ، وأدان الولايات المتحدة وأوروبا على أنهما تريدان الاستمرار فى نهب إفريقيا ، وتحاولان تقسيم القارة وبقاءها منهكة فى صراعات لا تنتهى .

وتحدث الزعيم الإفريقى «نلسون مانديلا» فوصف العنصرية بأنها مرض عضال يتطلب التكافل لعلاجه ، أما «مارى روبنسون» مفوضية الأمم المتحدة لشئون حقوق الإنسان فقد حاولت فى كلمتها التخفيف من التحامل على المستعمرين السابقين ، كذلك فعل «كوفى عنان » سكرتير عام الأمم المتحدة الذى قال : «إن هدفنا فى هذا القرن يجب أن يكون محو الكراهية والتحامل اللذين كانا موجودين فى القرون السابقة» .

لم يكن موقف مفوضية أو سكرتير عام الأمم المتحدة مفاجئًا ، ولكن الغريب والمفاجئ جاء من الرئيس الأوغندى «يورى موسيفينى» الذى ميّع المسائل بكلام متفلسف بعيد عن الحقيقة ، رفض قصة العبودية كاملة واعتبرها لغواً - لأنها حسب قوله - أصل البشر جميعهم من إفريقيا ، وكل إنسان أتى من إفريقيا ، البعض تركوها وذهبوا إلى أماكن أخرى وفقدوا لونهم الأسود ، فلما عادوا تصوروا أنهم صاروا متميزين وأن جنسهم أرقى .

* * *

كان المؤتمر مواجهة بين الغنى والفقير ، بين المضطهد والمضطهَد ، بين الجانى والضحية ؛ لذلك لم ينجح فى التقدم خطوة فيما يتعلق بقضاياه الأساسية : الاعتذار

والتعويض عن الرق، وسقط فى ديبلوماسية التهديد والضغط والانسحاب وقمع الآراء، وهى الديبلوماسية التى حجبت أى نقاش موضوعى للقضايا محل الخلاف، وأججت بدلاً منها مشاعر العداء والرفض ،وقسمت المؤتمر إلى شمال وجنوب، ورفض وصف ممارسات إسرائيل ضد الفلسطينيين بأنها عنصرية فى شكل جديد ،أو اتهام إسرائيل بارتكاب جرائم ضد الإنسانية والإبادة العرقية، ورفض تقديم التعويض لضحايا الرق والعبودية، ورفض حتى فكرة الاعتراف بالذنب أو الاعتذار عنها فلم يتحمس لها سوى ألمانيا وإيطاليا أقل دول أوروبا تورطًا فى جريمة الرق طوال القرون الأربعة، أما الدول ذات السجل المأساوى والانتهاكات الفادحة ،وعلى رأسها بريطانيا وأمريكا والبرتغال وهولندا وإسپانيا فقد أعلنت صراحة أنها لن تعتذر ولن تقدم تعويضات، واقترحت فقط الإعراب عن الأسف ،وتقديم مساعدات تنموية لمساعدة دول إفريقيا الفقيرة تعينها على تجاوز آثار الحقبة المظلمة من تاريخ الإنسانية.

وهكذا نجح الغرب فى أن يحول جريمة العبودية ضد الإنسانية التى كانت تثيرها إفريقيا والمشتتون منها إلى اعتبارها مجرد حادث مأساوى، وكل ما حصلت عليه الدول الإفريقية هو وعد من الغرب بدعم خطة النهوض بالقارة، من خلال مساعدات وقروض ميسرة ،وزيادة حجم الاستثمارات الغربية فى القارة خاصة دولها الواقعة جنوب الصحراء، وأصر الغرب على أن ذلك هو الشكل الوحيد الذى يمكن من خلاله تعويض دول القارة (جنوب الصحراء) عن سنوات الرق والاستعباد؛ وذلك تفاديًا للتعويضات المباشرة التى إذا ما تمت الموافقة عليها ستفتح الطريق أمام مئات الملايين من أحفاد الأفارقة للحصول على بلايين الدولارات.

كان واضحًا أن الشمال جاء متآمرًا لإفشال المؤتمر، وأدركت جنوب إفريقيا الدولة المضيفة أنها بحاجة إلى معجزة حتى تستطيع قيادة المؤتمر والوصول به إلى النجاح، فحولت مطلب التعويضات من أموال ترد من ملاك العبيد السابقين إلى المطالبة بمشاركة الغرب ومساهمته فى تمويل خطة اقتصادية جديدة للإفريقيين ، واقترح الرئيس «مبيكى» رئيس جنوب إفريقيا خططًا فى هذا الشأن على غرار مشروع مارشال، وقد تعرضت جنوب إفريقيا لنقد لاذع لتحويل المطلب من تعويضات إلى مساعدات، أخذًا فى الاعتبار أن وعود الغرب بالمساعدات مجرد

وعـود فى الهـواء، ولكن يبـدو أن جنوب إفـريقيـا اتخـذت هـذا الشـأن بدافع من مصلحتها الشخصية، خشية أن تطالب هى بدفع تعويضات عن ضحايا الاضطهاد العنصرى لشعب ناميبيا عندما كانت تحتل أرضه.

جاء كلام جنوب إفريقيا كالموسيقى فى آذان الاتحاد الأوروبى الذى بقى مندوبوه فى الساحة ينظرون بسعادة إلى الوقيعة والخلاف بين أحفاد العبيد، حتى إن وزير خارجية بلچيكا «لويس ميشيل» الذى كان يمثل الوحدة الأوروبية والذى وصف نفسه بأنه مفاوض صعب، علق ساخراً «يبدو أن المال هو كل شىء، إنه فوق الجرائم ضد الإنسانية».

وعلى أية حال فقد بدأ المؤتمر بصعوبة ولم ينته إلى إعلان أو وثيقة ، ولم يصدر عنه سوى بيان ختامى أقر بأن العبودية جريمة ضد البشرية (دون الاعتراف بها)، وبأن العبودية والاستعمار من المظالم التاريخية ، التى ساهمت بشكل لا يمكن إنكاره فى انتشار الفقر والتخلف والتهميش والعزلة الاجتماعية والتفاوت الاقتصادى وحالة عدم الاستقرار وانعدام الأمن فى الدول النامية، وأن المؤتمر يقر بضرورة وضع برامج للتنمية الاجتماعية والاقتصادية لهذه المجتمعات والشتات فى إطار مشاركة تقوم على مبدأ التضامن والاحترام المتبادل. وبشأن مطلب الاعتذار فقد حرص البيان على تجنب تقديم اعتذارات مكتفيًا بقول: إننا ندعو الأسرة الدولية وأعضاءها إلى احترام ذكرى ضحايا هذه المآسى «الرق والاستعمار».

وهكذا انتهى المؤتمر كما بدأ دون أى اعتراف بتقديم اعتذار أو تعويضات أو حتى مجرد وعود. وهذا يذكرنا بما حدث فى الماضى عندما ألغيت العبودية فى أمريكا، فإن الرئيس «لنكولن» دفع تعويضات لملاك العبيد ١٨٨٥م، ولم يدفع شيئًا للعبيد أنفسهم.

الفصل الثالث

شخصيات عظيمة

«ياه أشنتيوا» المرأة الفولاذية
وأسطورة الكرسى الذهبى

جمهورية غانا الحالية التى تقع على الساحل الجنوبى لغرب إفريقيا، كان اسمها أيام الاستعمار «ساحل الذهب». وقبل الاستعمار كانت تسمى مملكة الأشانتى، وقد لعبت دوراً رائعًا فى حماية المنطقة من الطلائع الأولى من المستعمرين ببطولة شهدت لها كتاباتهم، ونسجوا حولها الأساطير والحكايات، ونسبوا قوتها إلى قوة السحر التى تتميز بها المجتمعات الإفريقية(١).

فقد كان من الغريب عليهم أن تقاوم هذه القبائل البدائية بنادقهم وأسلحتهم، ولما عجز المستعمر عن القضاء عليها لجأ إلى الأسلوب الذى تؤمن به وحاربها بنفس السلاح.

كانت قوة ونفوذ مملكة الأشانتى (ساحل الذهب) تستمد من عقيدة «الكرسى الذهبى»، هذه الأسطورة التى تناقلها الأبناء عن الآباء، والتى ترجع إلى نهاية القرن الرابع عشر بداية تكوين المملكة. فقد كانت قبيلة الأشانتى على صراع دائم مع قبيلة الفانتى أقوى قبائل غرب إفريقيا، وفى ذات يوم بينما كان زعماء الأشانتى مجتمعين لبحث الهزيمة التى لحقت بهم بعد أن أسر الفانتى عدداً كبيراً منهم، ارتفع وسط الجميع صوت الساحر «أنوتشى» وقال مخاطبًا الملك: «لاتبتئس أيها

---

(١) جمهورية غانا الحالية هى غير غانا القديمة التى ترد فى كتب التاريخ والتى كانت تشمل أجزاء كبيرة من غرب إفريقيا فى المناطق العشبية جنوب الصحراء الكبرى.
كانت مملكة الأشانتى أو ساحل الذهب تقع فى الأطراف الجنوبية لغانا القديمة التى امتد نفوذها إليها وإن لم تقع مملكة الأشانتى تحت سيطرتها.
وقد قصدت الإشارة للتمييز بين الاثنتين حتى لا يقع لبس بسبب الاسم بينهما.

الزعيم إن النصر سيكون حليفك، وسوف تكون مملكتك عظيمة يشيد بها الناس، لقد أخبرتني الآلهة بذلك، ولكن مقابل شرط واحد هو أن تحتفظ بالكرسى الذهبى الذى ستمنحه لك الآلهة، وطالما كان الكرسى فى مأمن فلن يصيب مملكة الأشانتى سوء، ولكن حذار أن يلمس الكرسى الأرض فإن قوة الأشانتى تتمثل فيه». وفى وسط الصمت الرهيب الذى عم الجمع تلبد الجو وأضاءت السماء بالبرق القوى الغريب، ثم هطلت أمطار غزيرة على غير العادة حتى كاد الجمع أن يتفرق، فصرخ فيهم الساحر: «لا تتحركوا.. إذا تحركتم فلن ينزل الكرسى المقدس». واستمر الحال عدة ساعات، وأخيراً بدأت السماء تفيق من غضبتها، وبدت القرية وكأنها قد خلت وطهرت من خطاياها، ثم سُمع صوت قوى، وشقت السماء ونزل منها كرسى مطلى كله بالذهب واستقر فى حجر الملك. وبرفق حمل الكرسى أربعة من الرجال وساروا به حتى «بيت الأجداد» حيث وضعوه فوق جلد نمر.

وبدأت الانتصارات تتوالى على جيش الأشانتى حتى قضى تماما على مقاومة الفانتى، وبسط الأشانتى نفوذهم على كل المنطقة وكوّنوا مملكة غانا ساحل الذهب. وقدّس الأشانتى الكرسى وفرضوا حوله رقابة قوية، وأقاموا له الأعياد، وأصبح من تقاليدهم أن يُصنع لكل ملك عند مماته كرسى يوضع بجوار الكرسى المقدس؛ حتى تنتقل قوة الملك الراحل إلى الملك الجديد.

وعندما جاءت الطلائع الأولى من المستعمرين - وأقامت مراكزها الصغيرة على الساحل بمساعدة قبائل الفانتى - التى انضمت إليهم رغبة فى القضاء على عدوتها القديمة - قاومها الأشانتى ببطولة خارقة، وترددت على أسماعهم أسطورة «الكرسى الذهبى»، ولكنهم سخروا منها فكيف تقف خرافة كهذه أمام قوة سلاحهم، ولكن استمر النضال والصمود بصورة أذهلتهم، حتى تأكدوا أن إيمان الأشانتى بعقيدتهم أقوى من أى سلاح، فبدءوا يبحثون عن الكرسى سر قوة الأشانتى، ولكن كان من المستحيل عليهم معرفة مكانه فقد نقله الأشانتى إلى مكان مجهول.

وفى ذات يوم وقع الخائن «كونج» أسيراً فى أيديهم، وكان «كونج» أحد القواد المقربين لملك الأشانتى، ثم غضب عليه فتضايق وحقد. وعرف الإنجليز مأساته

فمنوه بأمانى كثيرة وأغروه بأنهم سيتوجونه على عرش المملكة، وقدموا له صندوقًا من النبيذ ثمن إفشاء سر مكان الكرسى، وكان هذا أغلى ثمن يمكن أن يحصل عليه الإفريقى من الرجل الأبيض.

دلّ «كونج» الإنجليز على مكان الكرسى، ولكن لما كان من العسير الوصول إليه أشعلوا النار فى القرية كلها حتى حُرق الكرسى ومن فيها من الأهالى وأصاب الأشانتى الذعر، وعرفت قصة الخائن «كونج» الذى تنكر له الإنجليز وتركوه يواجه مصيره وحده.

وفى الساحة الكبرى اجتمع شعب الأشانتى الحزين وشهد التاريخ الإفريقى الحديث أروع محاكمة لأكبر خائن، وحكم على «كونج» بالموت، فقيدوا لسانه فى سلسلة، وأخذوا يضربونه بزجاجات النبيذ التى أخذها ثمن خيانته حتى تحطمت رأسه.

لم تدم مقاومة الأشانتى بعد ذلك؛ إذ فقد الشعب مقاومته، واستطاع الإنجليز القضاء على مملكته بسهولة، وبسقوط مملكة الأشانتى سقط آخر حصن فى غرب إفريقيا فى يد الاستعمار.

الأشانتى

كان ظهور الأشانتى فى بداية القرن الخامس عشر الميلادى؛ حيث استقرت مجموعة من قبائل الآكان فى مناطق الغابات الاستوائية بغرب إفريقيا، واستقر مقامهم فى مناطق الغابات الواسعة فى شكل جماعات أو ولايات منفصلة لا يربطها أى ربط أو اتحاد، عدا العلاقات الروحية التى توجد لدى القبائل المنتمية إلى أصل واحد.

وكان عدد هذه الولايات يربو على اثنتى عشرة ولاية، ولم تكن كلها على قدر متساو من القوة، بل ظهرت ولاية واحدة هى الأشانتى التى اعتبرت أقوى هذه الولايات، وأصبحت «كومساى - Kumsai» عاصمة الأشانتى عاصمة روحية لجميع قبائل الآكان.

وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تعرضت ولايات قبائل الآكان لغزوات مستمرة من القبائل الأخرى المعادية التى تعيش فى المناطق المجاورة، وكانت قبائل الآكان بطبيعتها مسالمة، ولكن أثر هذه الغزوات دفع الآكان إلى التطلع إلى أمل الاتحاد؛ لتتمكن من مواجهة الأعداء وصد هجماتهم.

وفى أواخر القرن السابع عشر تحقق هذا الأمل على يد «أوزاى توتو–Osei Tutu» ملك كومساى الذى نجح فى جمع رؤساء قبائل الآكان فى مجلس واحد، ودعاهم إلى ضرورة الاتحاد فى أمة واحدة وتحت حكومة مركزية واحدة.

وتقول الحكايات المتوارثة: إنه فى نفس اللحظة التى كان «أوزاى توتو» يخطب فيها فى مجلس شيوخ القبائل والولايات ليقنعهم بميزة أن يتوحدوا فى دولة واحدة هبط من السماء كرسى عرش مصنوع من الذهب الخالص، وكانت هذه دلالة سماوية على قيام مملكة جديدة هى مملكة الأشانتى وعلى رأسها الملك «أوزاى توتو».

ولم تمض سنوات قليلة حتى أصبحت مملكة الأشانتى أقوى مملكة فى مناطق الغابات الاستوائية بغرب إفريقيا، وتمثلت قوتها فى كميات الذهب التى تمتلكها، والتى تخبئها وتخفيها داخل أماكن سرية مجهولة فى عمق الغابات.

وبدأت مملكة الأشانتى فى غزو الأراضى المجاورة وراء حدودها الغربية، وعندما ازدادت قوة الأشانتى قام جيش الأشانتى بغزو القبائل التى تعيش فى المناطق الساحلية، وارتكب ضدهم مذابح جماعية وحشية، واستحق بذلك الوصف الذى تطلقه عليه الحكايات المتوارثة باعتباره أكثر جيوش غرب إفريقيا شجاعة وتوحشًا.

وخلال القرن التاسع عشر ناضلت الأشانتى بقوة ضد المستعمرين الإنجليز، وسببت لهم متاعب باستمرار مقاومتهم لسنوات طويلة.

بدأت حرب الأشانتى مع البريطانيين فى عام ١٨٤٤م عندما قطع الأشانتى رأس الحاكم البريطانى سير «شارلز مكارثى» بعد هزيمة قواته، وقال الأشانتى وقتها: إن الرجل الأبيض أتى بمدافعه إلى الأدغال فوجد الأدغال أقوى من المدافع.

وفى عام ١٩٠٠م بعد ست وخمسين سنة قامت الحرب من جديد بين الأشانتى

والبريطانيين، وكانت هذه المرة بقيادة شخصية نسائية عظيمة هى «ياه أشنتيوا» التى قادت جيشًا من الرجال حاربت به المستعمر، وبهزيمتها انهارت مملكة الأشانتى وأصبحت أراضيهم محمية بريطانية ضمن مستعمرة غانا، وظلت غانا تحت سيطرة الاستعمار البريطانى حتى عام ١٩٥٤م عندما حصلت على الحكم الذاتى، ثم استقلت فى ٦ مارس ١٩٥٧م ودخلت فى إطار الكومنويلث البريطانى، وتولى رئاستها الزعيم الإفريقى العظيم «كوامى نكروما» الذى صار اسمه رمزًا للفكاك من التبعية والإلحاق اللذين عانت منهما الشعوب الإفريقية لعدة قرون.

ياه أشنتيوا

هناك عدد من النساء العظيمات فى غانا وفى التاريخ الإفريقى، ولكن «ياه أشنتيوا» تقف أعلاهن جميعًا، فمواقفها المجيدة وهى امرأة قادت جيش الأشانتى ضد العدو القديم كان فعالاً وذا تأثير كبير على شعب غانا، إلى حد أن آباء الأشانتى حتى اليوم يسمون بناتهم على اسمها، ومنهم الرئيس الغانى السابق «جيرى رولنجز» فقد سمى ابنته باسمها رغم أنه ليس من الأشانتى.

فى بداية الألفية الثالثة أجرت إذاعة B.B.C الإفريقية (الإذاعة البريطانية الموجهة لإفريقيا) اقتراعًا على الشخصية الإفريقية للقرن العشرين، وطلبت من مستمعيها الإفريقيين أن يصوتوا على: من بطل القرن العشرين؟، وجاءت النتيجة أن «ياه» أشنتيوا هى المرأة الوحيدة التى ذكرت بين ثلاثين شخصية أفريقية. . كان «كوامى نكروما» هو البطل رقم واحد ورجل إفريقيا عن القرن العشرين، وبعده ٢٨ بطلاً كلهم من الرجال، وجاءت «ياه أشنتيوا » رقم ٣٠ فى القائمة، وهى المرأة الوحيدة بين هؤلاء الرجال، ومن ثم فهى تعد البطلة رقم واحد من النساء فى تاريخ إفريقيا فى القرن العشرين.

واسم «ياه» طبقًا لتقويم غانا هو اسم امرأة ولدت يوم الخميس، و«أشنتيوا» هو اسم مؤنث مملكة الأشانتى. و«ياه أشنتيوا» فى سنواتها الأولى لم تكن معروفة وقائع حياتها، ولكن المؤرخين ذكروا أنها كانت فى بداية الستينيات من عمرها فى عام ١٩٠٠م عندما حاول البريطانيون إهانة أمة الأشانتى. كانت «ياه أشنتيوا» ملكة

على «إيجيزوا» وهى قرية صغيرة على بعد ١١ ميلاً شرقى كومساى العاصمة، وصارت اليوم ضاحية من ضواحى كومساى بفضل نمو المدينة فى السنوات العشر الأخيرة.

قبل إعلان «ياه أشنتيوا» الحرب على البريطانيين عام ١٩٠٠م مر الأشانتى بمرحلة من القلاقل السياسية، ففى عام ١٨٩٦م اعتقل البريطانيون ملك الأشانتى «برمبه» الأول ونفوه إلى جزر سيشل مع ثلاثين من الرؤساء البارزين والكبار ومنهم أمه وأبوه وأخوه.

وشهدت السنوات الأربع ما بين ١٨٩٦ م إلى ١٩٠٠م محاولات الأشانتى اليائسة لتغيير السياسة البريطانية نحوهم، وفشلت محاولاتهم لإعادة الملك «برمبه» وأعضاء الأسرة المالكة الآخرين.

وفى عام ١٩٠٠ م حاول الحاكم البريطانى سير «فردريك هدسون» أن يستولى على الكرسى الذهبى، وهو أحد الأشياء المهمة التى توحد الأشانتى كلهم، وحتى اليوم فإن الكرسى الذهبى لا يزال الأشانتيون ينظرون إليه باعتباره تجسيداً لروح أمة الأشانتى وجسدها، وإن محاولة الحاكم العام للاستيلاء على هذا الكرسى اعتبرت إهانة كبيرة للأشانتى لا يمكن تحملها.

إن الأدب الشعبى (الفولكلور) يقول: إن الكرسى الذهبى قد جُلب من الفضاء الخارجى بواسطة رجل دين هو «أكومفو أنوكيو» فى بداية عهد ملك الأشانتى «أوزاى توتو الأول». ويندر أن يرى الكرسى بواسطة الجماهير، وهو من أكثر محتويات ملكية الأشانتى قداسة، ويعتقد أنه يحمل الروح والجوهر لأمة الأشانتى. ولكن كما يحدث دائمًا فإن أحد الأفراد تطوع ودل البريطانيين على مكان اختباء الكرسى الذهبى، فأرسل سير «فردريك» على الفور رجاله للاستيلاء عليه، فلما فشلوا ذهب بنفسه إلى كومساى، وهناك وجد رجال الأشانتى مجتمعين، فقال لهم بصلف: إن ملكهم لن يفرج عنه وسيظل فى منفاه إلى الأبد، ولكى يضيف إلى ذلك إيذاءً وإهانة لهم طالبهم بأن يدفعوا ثمانية آلاف بريدوان (حوالى ٦٦ ألف جنيه استرلينى)، باعتبارها فائدة على الضرائب المفروضة على الأشانتى. ويذكر أحد المؤرخين أن الحاكم البريطانى خاطب الأشانتى بما يلى: ماذا

يجب أن أفعل برجال امتنعوا أن يعطوا الملكة ڤكتوريا الكرسى الذى ترغب فيه، أين هو الكرسى الذهبى، ولماذا لا أجلس عليه فى هذه اللحظة وأنا أمثل القوة المستديمة، لماذا لا تنتهزون فرصة مجيئى إلى كومساى لكى تأتوا بالعرش الذهبى لكى أجلس عليه، يجب أن تتأكدوا على كل حال أنه رغم أن الحكومة البريطانية لم تستلم الكرسى الذهبى من أيديكم، فإنها ستبقى حاكمة عليكم بنفس الحزم والقوة كما لو كنتم أعطيتموه لها.

كان الأشانتى فى أشد حالات السخط، ولكن شلهم الخوف من تحدى البريطانيين؛ بسبب ما حدث قديمًا، ففى إحدى الحروب التى جرت بين عامى ١٨٧٣م و١٨٧٤م ذكرت جريدة التايمز فى افتتاحيتها أن الحاكم البريطانى استطاع أن يقبض على مجموعة كبيرة من المتوحشين الدهماء (تقصد الأشانتى) فلن يجد أحسن من أن يعاملهم بالرصاص، وبعد ٢٦ عامًا فإن الحاكم سير فردريك هدسون فعل نفس الشىء.

كانت «ياه أشنتيوا» تجلس هناك تتلفت يمينًا ويسارًا إلى زعماء الأشانتى والرجال المجتمعين، وعندما لم تجد أحدًا يتحرك أو مستعدًا للتحرك ضد البريطانيين قامت من كرسيها، وقالت مخاطبة لهم: «كيف يمكن لشعب شجاع ومعتز بنفسه مثل الأشانتى أن يجلس هكذا ويتفرج، فى حين أن الرجل الأبيض قبض ونفى ملكهم ورؤساءهم وأهانهم بطلب الكرسى الذهبى. إن الكرسى الذهبى لا يعنى للرجل الأبيض أكثر من أنه نقود، وأنا لن أدفع عملة واحدة للحاكم، وإذا كنتم أنتم رؤساء الأشانتى تتصرفون كجبناء ولا تحاربون فاخلعوا ثياب الأسود التى تلبسونها. . أيها الرجال من وطننا الأم، نحن نقابل مواجهة حادة؛ بسبب المطلب المهين الذى وجهه هذا الحاكم من أجل الكرسى الذهبى، ويجب أن نذكر أنه لم يمض وقت طويل منذ أن غزا الرجل الأبيض بلادنا، وأعلن أن مملكتنا قد صارت تحت الحماية البريطانية. وعلينا ألا ننسى أن هذا الرجل الأبيض نفسه هو الذى سيطر على كومساى؛ حيث كان مقر الحكم بعد أن نهب كنوزها التى تركها الآباء ولم تكن تقدر بمال.

إن ملكنا «برمبه» نفسه قد اعتقل ونُفى إلى بلاد أجنبية ومعه الملكة «نانايا أكينا» وكذلك رؤساؤنا وقوادنا دون اعتراض، واليوم فإن الحاكم جاء ليطلب الكرسى الذهبى وهو روح الأشانتى.

يا أيها المواطنون، هل نقبل هذه الإهانة من هؤلاء المحتالين، انهضوا وقاوموا الرجل الأبيض الذى هدفه الوحيد فى بلادنا هو أن يسرق وأن يدمر، ومن الخير لنا أن نموت مدافعين عن بلادنا خير من أن نعيش عبيداً.

إنى أرى أن بعضًا منكم يخشى الذهاب بعيداً للقتال من أجل الملك، وفى أيام الشجاعة القديمة فإن الرؤساء كانوا لا يرضون أن يُؤخذ ملكهم بعيداً دون أن يطلقوا رصاصة واحدة، ولم يكن يجرؤ رجل أبيض على الحديث عن الأشانتى فى الأيام القديمة بالطريقة التى يتكلم بها الآن، فهل فقدَ الأشانتى اليوم شجاعتهم.

أنا لا أعتقد ذلك إذا لم تستطيعوا يا رجال الأشانتى أن تتقدموا إلى الأمام فستكونون مثل النساء، نحن يجب أن نقاتل الرجل الأبيض، ويجب أن نقاتل حتى يسقط آخر رجل من رجالنا، أنا «ياه أشنتيوا» مستعدة ومؤهلة نفسى لقيادتكم للحرب».

بهذا الخطاب أعلنت «ياه أشنتيوا» الحرب ضد البريطانيين، وقادت شخصيًا جيش الأشانتى إلى المعركة، وكانت هذه هى الحرب الأخيرة بين الأشانتى والبريطانيين، بدأت فى مارس ١٩٠٠م وانتهت فى مايو ١٩٠١ م، وعرفت فيما بعد باسم «حرب ياه أشنتيوا».

ورغم عدم معرفتها بالتدريب العسكرى فإن جيش «ياه أشنتيوا» استطاع أن يحقق فى البداية عدداً من الانتصارات الملحوظة، فمثلاً حاصر قلعة كومساى التى كانت القوات البريطانية قد سيطرت عليها؛ مما تسبب فى المجاعة والأمراض بها، وأثبت هذا التكتيك فاعليته؛ بحيث إن البريطانيين تركوا الحامية بعد أن تكبدوا خسائر جمة.

ولكن بنادق البريطانيين الكبيرة كبتت، وكعقاب لـ «ياه أشنتيوا» فقد وضعت فى سفينة أبحرت بها إلى جزر سيشل لتلقى هناك الملك «برمبه» الأول وسائر رؤساء الأشانتى، وماتت بعد ذلك هناك بعد عشرين سنة فى أكتوبر ١٩٢١ م قبيل أن يسمح لـ «برمبه» بالعودة إلى بلاده وإلى شعبه فى كومساى.

صدر قرار نفى «ياه أشنتيوا» من المكتب الاستعمارى فى لندن فى ١٧ مايو ١٩٠١م، أرسلت بموجبه «ياه أشنتيوا» مع ١٤ عضواً من مجلس الحرب الذى كان

يعمل معها إلى المنفى، ونص القرار «لقد تقرر أن ينفى إلى جزيرة سيشل ١٥ رئيسًا من الأشانتى ممن أرفقت أسماؤهم وألقابهم، وسينقلون بباخرة تترك ساحل الذهب فى ٢٥ مايو ١٩٠١م، وأرجو أن يعاملوا معاملة المسجونين السياسيين الذين أرسلوا من سيراليون فى الصيف الماضى، وكل نفقات هذا الأمر تتحملها حكومة ساحل الذهب.

هذا الإجراء المهين استفز حتى الحاكم البريطانى الذى خلف سير فردريك هدسون، وهو الحاكم «ناثان» الذى انتقد سلوك سلفه فى برقية أرسلها إلى وزارة المستعمرات البريطانية فى لندن، وقال: «إن انتفاضة ياه أشنتيوا ترجع إلى سخط الرؤساء وقادة شعب الأشانتى ضد الحكم البريطانى، وهذا السخط سخط طبيعى لقد أخذنا منهم كل ما يهتمون به ووضعناهم فى شروط لا يرضون عنها».

وثمة ضابط بريطانى آخر هو الكابتن «دونالد ستيوارد» ذكر رأيًا سلبيًا أيضًا فى سير هدسون، وقال: إن هدسون كان يمكنه أن يتفادى حمّام الدم ما دام أن الأهمية السيكولوچية للكرسى الذهبى كانت مفهومة لدى الضباط المحيطين به.

وفى الحقيقة فإن «ياه أشنتيوا» كشفت عن الهدف الأساسى لتصرف هدسون بأنه كان يرغب فى الكرسى لنفسه ليجلس عليه ضد كل تقاليد الأشانتى.

والبعض قال: إن هدسون كان يريد أن يستحوذ عليه لنفسه لا أن يرسله إلى الملكة «ڤكتوريا» كما ادّعى؛ لأن الملكة «ڤكتوريا» ماتت ١٩٠١م وهى سنة انتهاء الحرب.

إن «ياه أشنتيوا» كانت امرأة عظيمة، ولكنها لم تكن المرأة الوحيدة فى تاريخ غانا أو تاريخ إفريقيا فى القرن التاسع عشر، وعلى عكس حسابات الغرب بالنسبة للمرأة الإفريقية فإن المؤرخ البريطانى «ايفور ويلكس» الحجة فى تاريخ الأشانتى يقول: نحن يجب أن نتكلم عن نسوة الأشانتى؛ لأن النساء كن يسدن فى تقرير السياسات وتوجيهها، إن الطريق إلى كومساى مثلاً قد بنى بأوامر سيدة هى «أكياوا أيكون» وهى ملكة من الأشانتى، وقد وصفت بأنها واحدة من أحسن الديبلوماسيات الإفريقيات والمفاوضات فى القرن التاسع عشر.

ومرة أخرى عندما بدأت مملكة الأشانتى تنهار فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر فإن الملكة «اشنتيما نانا ياه أكيا» استردتها.

ولكن «ياه أشنتيوا» وانتفاضتها تبقى أمرًا خارقًا للعادة، وبعض المؤرخين ينسبون ذلك إلى عنصر الشجاعة فى أسرتها، فأحد أجدادها قاتل وكسب بحيرة بوسنتيوى وهى البحيرة الطبيعية الوحيدة فى غانا لصالح الأشانتى.

واليوم فإن «ياه أشنتيوا» تتداول سيرتها فى شعر البطولة والأغانى، وتسمى باسمها المدارس والسيدات الإفريقيات والأمريكيات. وفى عام ١٩٨٦م صدرت عملة غانا الوطنية تحمل صورة «ياه أشنتيوا». وفى يونيو ٢٠٠٠ م نقلت رفاتها إلى بلدها وأعيد دفنها فى موكب جليل. بدأت الاحتفالات بنقل رفاتها بواسطة ملك الأشانتى الجديد أوتومو أوزاى توتو الثانى، كجزء من احتفالات يوم التحرير فى غانا الذى يوافق ٢٦ يونيو، وهو اليوم الذى تعتبره غانا يوم إلغاء العبودية من المستعمرات البريطانية، وكان هذا العام شهد احتفالاً خاصًا؛ لأنه يوافق مرور مائة سنة على انتفاضة «ياه أشنتيوا» ضد البريطانيين، وقد استمرت الاحتفالات ستة أشهر، ولا يوجد شرف يستحق أن يعطى أكثر من أن يستمر الاحتفال بها طوال هذه المدة.

* * *

شاكا مكبث الزولو

مسرحية «الإمباثا» المأخوذة عن مسرحية «مكبث» لشكسپير تعد من أروع الأعمال الفنية الإفريقية، فقد استطاع «ولكوم أمسومى» وهو كاتب ومخرج مسرحى ذو شعبية كبيرة فى جنوب إفريقيا أن يحور بمهارة وفن مسرحية شكسپير، التى مضى على كتابتها أكثر من ٤٠٠ سنة، إلى مسرحية تجرى فى أرض الزولو فى القرن التاسع عشر، ومع التزامه بالنص الإنجليزى قدمها برؤية إفريقية؛ لتلائم تقاليد وثقافة شعب الزولو، استوحى بطلها من زعامة حقيقية ظهرت فى أرض الزولو هو الملك «شاكا» أكثر الحكّام قوة وجبروتًا الذى وحّد أرض الزولو (جنوب إفريقيا).

كتب أمسومى مسرحيته فى الستينيات من القرن العشرين، وعرضت حينذاك على مسرح جامعة ناتال بجنوب إفريقيا، ونالت وقتها نجاحًا كبيرًا، ثم توالى عرضها فى الولايات المتحدة وفى عدد كبير من دول أوروپا، ولا تزال تعرض أحيانًا على مسرح شكسپير المفتوح بلندن(*).

عندما مثلت الإمباثا فى أواخر الستينيات كان الزعيم «نلسون مانديلا» وقتها فى السجن، وعبر عن رغبته فى مشاهدتها، ولكنه لم يتمكن من تحقيق هذه الرغبة إلا بعد الإفراج عنه، وعندما شاهدها التهبت أكفه بالتصفيق فقد شاهد شيئًا فريدًا مملوءًا بالقوة والحيوية المصحوبة بالموسيقى المثيرة الرائعة مع الغناء والرقص ذى الإيقاع الصاخب على دقات الطبول، وكان تعليقه: «أن هذه المسرحية تصور

(*) مسرح شكسپير العالمى المفتوح كان حلم الطفولة لمنتج الأفلام الأمريكية «سام ونامیكر» الذى أراد أن يعيد بناء المسرح كما كان أيام شكسپير، وهو العمل الذى بدأه عام ١٩٨٧م، ثم تباطأ بعد موته فى عام ١٩٩٣م، ولكنه اكتمل عام ١٩٩٥م، وصار الآن واحدًا من أكثر المسارح شعبية وجذبًا للسياح والمواطنين.

بحيوية الطموح العام والظمأ والخوف، وأكثر من ذلك التشابه بين مكبث التى كتبها شكسپير وبين شاكا الذى ينتمى إلينا، وهذا مما يذكرنا بأن العالم من الناحية الفلسفية هو مجال صغير جدًا».

عندما سُئل أمسومى: لماذا اختار مكبث بالذات ليترجمها إلى لغة الزولو ويعدها بهذا العرض المميز، أجاب بأنه وجد فى مؤتمرات ومناورات أسطورة مكبث صورة طبق الأصل للدراما التى جرت فى البلدان الإفريقية، فمكبث الإنجليزى يشبه شاكا الإفريقى، وتاريخ جنوب إفريقيا يتشابه مع تاريخ انجلترا القديم، وسكان الناتال فى جنوب إفريقيا التى تدور فيها مسرحية الإمباثا كانوا فى الماضى السحيق عددًا من القبائل المتناحرة توحدت تحت اسم واحد هو«الزولو»، وهو اسم لإحدى الجماعات الصغيرة التى استطاعت فى أوائل القرن التاسع عشر أن تسود المنطقة وتفرض سيطرتها على جيرانها وتخضعهم لها. باختصار يمكن تلخيص تاريخ جنوب إفريقيا فى مجموعة من الحروب المتلاحقة المعقدة، ومجموعة من الهجرات والإبادات الجماعية التى أدت كلها إلى وحدة «الزولو».

وتاريخ انجلترا القديم لا يزيد عن كونه سلسلة من الإغارات يتلو بعضها بعضًا وحروبًا طويلة لا تكاد تنقطع وغزوات تلو أخرى، فمنذ آلاف السنين الممتدة وراء القرن الحادى عشر لا يكاد يسجل التاريخ إلا سلسلة متصلة من موجات وغزوات وهجرات تتخللها دول صغيرة يحكمها ملوك أشبه برؤساء المقاطعات، وكانت تثور بين هؤلاء الملوك منازعات دموية تنتهى بسيطرة أحدهم. فلما جاء القرن الحادى عشر أتى «وليم الفاتح» وأتباعه من مقاطعة نورماندى فى شمال فرنسا، وأخضعوا سكان البلاد الأصليين، وحكموا وأقاموا نظاما إقطاعيًا، واقتسم الأمراء النورماند أرض جزيرة بريطانيا، وبقى الشعب فى كل إقطاعية خاضعًا لأمير منهم يتصرف فى شئونه تصرف الحاكم المطلق، بل صار الشعب أشبه بمن لا يملك لنفسه حرية.

وقصة مكبث استوحى شكسپير وقائعها من حوليات إيقوسيا (اسكتلندا) التى كتبها «هولنزهيد» ١٥٧٧م، فهى مزيج من التاريخ والأقاصيص تقع حوادثها قبل الإغارة الكبرى التى غيّرت وجه التاريخ فى انجلترا، وهى إغارة النورماند على «وليم الفاتح». ومجمل القصة كما رسمها شكسپير أن جموعًا من أهل الشمال من

بلاد النرويج أغاروا على أرض إيقوسيا بمعاونة بعض أمرائها الإقطاعيين، وكادوا يستولون على البلاد التى يحكمها الملك «دنكان» لولا شجاعة الأمير «مكبث» ابن أخ الملك وأقرب قواده إلى قلبه، الذى استطاع مع رفيقه الأمير «بنكو» إنزال الهزيمة بالغزاة وانتهت الموقعة بانتصارهما، وفى طريق عودتهما ليحملا النبأ العظيم إلى الملك اعترض طريقهما ثلاث ساحرات تنبأن لمكبث أنه سيصبح ملكًا، وبشرنه بالترقى العاجل فى مناصب الإمارة، وأنه سيتولى إقطاعية «قودر» كخطوة أولى فى سبيل الملك، وهتفن لـ «بنكو» بأنه سيكون والدًا لملوك إيقوسيا.

وقبل أن يصل «مكبث» و«بنكو» إلى حدود البلاد جاء رسل الملك يستقبلون الأبطال المنتصرين، ويحملون لمكبث خبر أن الملك خلع عليه إمارة قودر، فوقع فى روع «مكبث» أن بشرى الساحرات صادقة ما دامت قد بدأت تتحقق بالإمارة، وداخله الطمع فى الملك السريع فخطرت له فكرة التخلص من الملك؛ كى تتم نبوءة الساحرات.

لما أخبر «مكبث» زوجته بما حدث اشتعلت مطامعها، وأخذت تزكى فى زوجها وساوسه وتحرضه على قتل الملك، وحانت الفرصة عندما جاء الملك لزيارة «مكبث» فى قصره تكريمًا له، فانتهز «مكبث» هذه اللحظة ونفذ جريمته وقتل الملك «دنكان»، ولم يستطع الأمراء الآخرون أن يجاهروا بشكوكهم نحوه فاختاروه ملكًا، واضطر ولدا دنكان الملك القتيل إلى الهرب، ولجأ الابن الأكبر إلى ملك انجلترا يطلب منه المساعدة فى استعادة عرش أبيه.

وبعد أن صار «مكبث» ملكًا توجس من زميله «بنكو» الذى بشرته الساحرات بأنه سيكون والدًا للملوك فدبر مؤامرة لقتله، وعندما نفذ جريمته استولى عليه وهم شديد بأن شبح «بنكو» يلاحقه أينما ذهب، فهو يتمثل أمامه بين ضيوفه ويتخيله جالسًا على كرسيه يهز له خصلة شعره المعقود بالدم فيهيج «مكبث» ويتوعده، ويظن الحاضرون أنه يهذى حتى تشككوا فى قواه العقلية. ويتخوف «مكبث» من كل الأمراء المحيطين به، وخاصة أكبرهم «مكدوف» الذى يتبين له أنه يعصى أوامره ويتحداه، فيدبر «مكبث» مؤامرة لقتل «مكدوف»، ولكنه يهرب قبل أن يصل أعوان «مكبث» إلى قصره فيقتلون زوجته وأولاده.

يهـرب«مكدوف» إلى انجلترا وهناك يلتـقى بالأمـير ابن الملك دنكان ، ويتـفق الاثنان على محاربة «مكبث» ، ويقود «مكدوف» جيش الأمير وأعوانه ، وتشتعل الحرب بينهم وبين «مكبث» ، وتنتهى المسرحية بمقتل «مكبث» على يد «مكدوف» الذى كان يتحرّق للانتقام لزوجته وصغاره .

هذه قصة مكبث الإنجليزى ، أما الإمباثا أو مكبث الزولو فتروى أنه فى أوائل القرن التاسع عشر ظهر فى ناتال (فى جنوب إفريقيا) عبقرية عسكرية قاسية اسمها «شاكا» وهو ابن غير شرعى للملك «دنجزوابو» ، وكان« شاكا» يؤمن بالمانجوما ، أى السحرة ، ويسخرهم لتحقيق طموحاته ، واستطاع «شاكا» أن يصد الغزاة من جيرانه ويكسر حصارهم بفضل تنظيمه للفتيان والشبان فى مملكة والده ، وخاض بهم الحروب ضد البيض فى صفوف متراصة وتشكيلات نظامية ، مستخدمين سيوفًا قصيرة يطعنون بها أعداءهم بدلاً من الحراب التقليدية . وهكذا اكتسحت قوات شاكا المدربة كل من اعترضها ، فغنموا ماشية القبائل الأخرى ، وأسروا فتيانها وفتياتها وضموهم لصفوف قواتهم ، ويموت الملك «دنجزوابو» فى ظروف غامضة و يخلفه «شاكا» ويصبح الحاكم لأول أمة حديثة هى «أمة الزولو» ، ولكن الأخ غير الشقيق لشاكا الذى لم يكن أقل منه قوة وبأسًا وبطشًا يتخوف منه «شاكا» ويتآمر عليه ويقتله بتحريض من أمه ، وبدلاً من أن تستتب الأوضاع لشاكا فإن أنصار الأخ المقتول يعلنون الحرب على «شاكا» ، وتتحول أمة الزولو إلى أرض قتال تموج بالمؤامرات والمناورات .

كان لانبعاث أمة الزولو تحت قيادة شاكا تأثير بعيد المدى شمل جنوب إفريقيا كلها ، فجيرانهم مثل«السوتو» تعلموا منهم فنون الحرب والفتح والنهب وجندوا شبابهم وزاحموا الزولو فى أرضهم ، وكذلك استطاعت جماعات السوازى أن تنتفض ، وتتحول من مجرد جماعة مطاريد مشتتين إلى جماعة محاربة وقفت فى وجه الزولو (وكونت هذه الجماعات أمتين منفصلتين داخل أرض الزولو أصبحتا فيما بعد مملكتى السوازى والسوتو) ، يضاف إلى هؤلاء أن بعض المتمردين على شاكا من الزولو استمالوا إليهم بعض تشكيلاته العسكرية ، وتوجهوا إلى الشمال وقهروا سكانها الأصليين وضموهم إليهم ، وأصبحوا هم أيضًا قوة مناوئة لشاكا وأمة الزولو .

وكما لم ينعم «مكبث» بالملك لم ينعم «شاكا» أيضًا بالاستقرار واتسمت فترة حكمه بالحروب والمؤامرات، وعندما غزا البيض البوير (الهولنديون والبريطانيون) إقليم ناتال وجدوه إقليمًا فقيراً بالسكان نتيجة لهذا التطاحن والاقتتال، واستطاع البيض بإمكانياتهم الحربية المتطورة وبالسلاح والبنادق الحديثة، أن يهزموا الزولو ويسقطوا حكم شاكا ويعلنوا جمهورية ناتال البويرية عام ١٨٣٤م.

والحقيقة أن التشابه بين مكبث الإنجليزى وشاكا الزولو تشابه غير عادى.. «مكبث» أمير ابن أخ الملك دنكان، و«شاكا» ابن غير شرعى لملك الزولو، «مكبث» مزيج من الشجاعة والعنف والتردد والضعف تعتريه وساوس السلطة فتتملكه نزعات الاستبداد والبطش، و«شاكا» شاب يعانى من النفي والاستبعاد منكور من والده مكروه من إخوته مطرود من قصر أبيه يتوارى خجلاً وغضبًا؛ وهذا ما خلق لديه العنف والرغبة فى الحرب، واستطاع بتجميع الشبان المنفيين والمطرودين ممن كانوا على شاكلته أن يبنى بهم واحدًا من أكثر الجيوش التى عرفتها إفريقيا السوداء من حيث التنظيم والمهارة، وفى مدى قليل غزا وحكم إمبراطورية مترامية الأطراف، «مكبث» يقع أسير نبوءة الساحرات ويضع ثقته فى كلماتهن، و«شاكا» يتأثر بقوة المانجوما (السحرة) فيقتحم معبدهم ويسخرهم لخدمة مصالحه. ومثلما قتل الملك دنكان بواسطة من وثق به، فإن ملك الزولو يقتله أقرب الناس إليه، وإذا كانت زوجة مكبث هى محرضته على القتل، فإن أم شاكا هى من حرضته على قتل الملك دنجزوابو، وتنتهى مأساة مكبث بطعنة من زميله، وتنتهى الإمباثا بقتل شاكا بطعنة من الخلف على يد مستشار القصر.

* * *

هذا هو التشابه بين «مكبث» و«شاكا» فى العمل المسرحى، فهل هناك تشابه بين شاكا ملك الزولو الحقيقى وبين شاكا الأسطورة، أى بين الحقيقة التاريخية والعمل الفنى؟

يسجل التاريخ أنه فى عام ١٧٨٣م ولد طفل من قبائل الزولو اسمه «شاكا»، ونظرًا لطفولته المعذبة فقد بحث عن ملجأ له عند أحد الزعماء المحاربين وتبناه أحدهم وجعله وريثًا له، وعندما استلم السلطة شكّل من رعاياه نظامًا عسكريًا مرتكزًا على أساس التنظيم الاجتماعى، الذى كان سائدًا بحسب القبيلة وترتيب

العمر، وقسّم الجيش إلى فرق وجهزه ودرّبه تدريبًا جيدًا، ثم بدأ يحارب ويخضع الشعوب المجاورة له، وكان يجبر المغلوبين منهم على دخول جيشه، وتعلم لغة الزولو. وفي عام ١٨١٦م توج حاكمًا للزولو تحت إمرته مائة محارب، ويحكم أكثر من نصف مليون إنسان.

قاد «شاكا» حملات الدمار والموت ضد القبائل المجاورة وسكان الجنوب الغربي الإفريقي، وكان ذا قوة وجبروت ولقب نفسه بالزعيم المبجل من كل شعب الزولو «الشمس إشراقته، والعواصف غضبته، والمطر رضاؤه، والقحط سخطه». كان قاسيًا متعسفًا عندما ماتت أمه فرض الحداد في كل البلاد طوال عام، وأعدم عددًا من المواطنين؛ لأنهم لم يشتركوا في الحداد أو لم يظهروه بالشكل الكافي، وعندما أصيب في محاولة اغتيال فرض على البلاد إجراءات غريبة وصارمة، فأعدم عددًا من الناس؛ لأنهم لم يبكوا كما ينبغي أن يكون البكاء أو لأنهم كانوا يبكون وهم جلوس، وبقر بطون الحوامل فكيف تحمل النساء وشاكا مصاب، وحرم كل اتصال جنسي بين الرجال والنساء وإذا ظهرت شواهد على ذلك أعدم الرجل والمرأة، ومنع نحر الماشية فلا أكل لحوم وشاكا مصاب. وبعد أن تأكد أنه تماثل الشفاء تغير الوضع ونحر بنفسه الذبائح وقدمها أضحيات لروح أبيه المتوفى.

كان طموح شاكا هو إبادة جيرانه وأعدائه ومد سلطانه عليهم، وشهد عام ١٨٢٤م تطوراً جديدًا في سياسة شاكا، فقد تحقق من المكاسب التي يمكن أن تعود عليه إذ أقام علاقات طيبة مع المجتمع الإنجليزي التجاري الصغير في ميناء ناتال (ميناء ديربان الآن)، فالتجارة مع الإنجليز ستمكنه من الحصول على الأسلحة النارية ذات القيمة الفائقة، فقرر أن يكسب ودّ ومساندة الإنجليز، فعقد معاهدات مع تاجر إنجليزي أصبح للبيض بمقتضاها حق التجول بحرية في أرض الزولو مقابل مساعدة هؤلاء له في حربه ضد جيرانه.

حقيقة شاكا

في عام ١٨٢٤م قام الرحالة البريطاني «هنري فين» برحلة إلى أرض الزولو، وهناك في منطقة ناتال قابل الملك شاكا، وكتب كتابًا رائعًا عن رحلته سجل فيه

مشاهداته ووصف وصفًا دقيقًا لحياة شعب الزولو، وكيف التقى مع شاكا ملك الزولو، باختصار شديد كتب يقول: «وصلنا إلى قرية كراك حيث مقر الملك شاكا كانت القرية محاطة بما يقرب من ١٢ ألف رجل مسلح كلهم فى لباس الحرب، كان الملك جالسًا تحت شجرة محاطًا برجاله والزعماء التابعين له، وخلفه كان يقف الخدم يحملون الدروع مرفوعة ومتقاربة على شكل مظلة لتحميه من أشعة الشمس، كان الملك يربط حول جبهته عمامة من الجلد مثبت فى مقدمتها ريشة طويلة، ويلبس عقودًا حول رقبته، ويلف خصره بشراشيب من جلد النمر، عندما اقتربنا تراجع الجمع مفسحين لنا المكان إلا رجل واحد عرفنا أنه مترجم الملك.

كانت المنطقة كلها يغطيها البشر وقطعان الماشية، وقال لنا الملك ألا نخاف من شعبه، ثم بدأ يستعرض قطعان الماشية ليدلل على ثراء مملكته، ثم تحلق الرجال فى دائرة ورقصوا رقصة الحرب وتبعتهم النسوة. وبعد انتهاء العرض الذى استمر أكثر من ساعتين التفت إلينا الملك شاكا، وتحدث حديثًا طويلاً أكد فيه أنه أعظم ملك فى الوجود، وأن شعبه كبير بعدد النجوم، وأن قطعان ماشيته لا تحصى، كان فخوراً بقدرته على استقبالنا نحن البيض، وقال مخاطبا شعبه: إن هؤلاء الرجال هم رعايا الملك چورچ، وإن أجداده كانوا جبناء؛ لأنهم لم يجسروا على استقبال رجل أبيض، أما هو فهو يستقبلهم ليدركوا مدى عظمته وقوته.. كان فخوراً بكل شىء حتى بلونه الأسود، ووجه إلينا الكلام قائلاً: إن أجدادكم الأوروبيين تميزوا بعطايا كثيرة منها معرفتهم بالمعلومات عن الفنون والصناعات، إلا أنهم حرموا من أعظم الهبات، وهى لون البشرة الأسود، فمع سواد البشرة لا يحتاج المرء إلى الملابس التى نلبسها لا لشىء إلا لنخفى الجلد الأبيض؛ لأن منظره لا يسر العين. وسألنا عن استخدام جلود الثيران فى بلادنا، وعندما علم أننا نصنع منها الأحذية وأشياء أخرى اعترته الدهشة مؤكداً أن هذا دليل آخر على أن أجدادنا البيض لم يكونوا رفيقين بنا؛ لأنهم اضطرونا لتخبئة أقدامنا فى نعال، وهذا أمر غير ضرورى، بينما أجداده استخدموا الجلود فى أمر أكثر نفعًا، وهو صناعة الدروع التى هى فى نظره أفضل من بنادق البيض؛ ذلك أن الدرع إذا نقع فى الماء قبل الهجوم يمكنه أن يمنع طلقة رصاص تم قذفها من بُعد، كما أن الفترة التى يستغرقها الرجل الأبيض فى

إعادة تعمير بندقيته تمكنهم من الاقتراب والاقتحام فلا يجد البيض مناصًا إلا الجرى، لذلك فهو لا يستطيع أن يهضم فكرة تفوقنا عليهم. وعبر عن كراهيته لأسلوبنا فى العقاب بالسجن لمرتكبى الجرائم، ذاكرًا أن السجن هو أقصى ما يمكن أن يتعرض له الإنسان وأنه يسبب آلامًا مرعبة، فإذا كان مذنبًا فلماذا لا نقتله أما إذا كان موضع شك فلمَ لا نتركه حرًا».

ويتابع الرحالة «هنرى فين» وصفه للزولو ومحاولة اغتيال شاكا قائلا: «كان الليل يقضى فى مملكة شاكا فى الرقص، وكانوا يشعلون أفرع الشجر الجاف فتلقى ضوءًا يجعل المشهد رائعًا، وفى ليلة سمعت صرخة وسرعان ما انطفأت النيران وخبت الأضواء المنبعثة منها، وأعقب ذلك صراخ وصياح عام وهياج، وعلمت أن شاكا قد طعن بينما كان يرقص».

ويذكر الرحالة: «ولأننى كنت فى الأصل طبيبًا فقد هرعت لمعالجة شاكا. كانت الطعنة التى وجهت إليه بين ذراعه اليسرى وأدنى صدره، وكان الملك يبصق دمًا، ووجدت أن طبيبه الإفريقى الذى بدا أن لديه معلومات جيدة عن الجروح قد أعطاه مقيئًا بجرعات متكررة وقطرات من دواء مطهر، وراح يغسل الجرح باستمرار بماء غليت فيه بعض الجذور النباتية التى تسكن الألم وتسبب إنعاشًا.

ظل الملك يصرخ طوال الليل تقريبًا ولم يكن يتوقع إلا الموت، وزاد الزحام والصياح والجلبة بشكل فظيع. وشهد الصباح مناظر مرعبة فى وضح النهار، وإن الكلمات لتعجز عن نقل الانطباع عن هذا المشهد المرعب، أعداد ضخمة تصل باستمرار، وحالما يقتربون من مكان وجود شاكا يشرعون فى الصياح والجرى، ويصرخون بكل ما فيهم من طاقة ويدفع بعضهم بعضًا، ويلقون أنفسهم على الأرض دون مراعاة لأى خطر يواجهونه أثناء إسقاطهم أنفسهم، لا فرق فى هذا بين الرجال والنساء، وتعرض عدد كبير للإغماء؛ بسبب الإجهاد وحرارة الشمس وشدة الجوع، فمنذ اللحظة التى طُعن فيها شاكا كان محرمًا على الناس أن يأكلوا أو يستحموا أو يحلقوا الشعر، وكل من يخرق هذه القواعد يعاقب بالقتل.

وفى اليوم الخامس ظهرت علامات تشير إلى تحسن صحة الملك، وبدت جروحه

فى حال أفضل، وعاد الرجال الذين أرسلوا للبحث عن الجناة مرتكبى الحادث، وكانوا يحملون ثلاث جثث المفترض أنهم جثث المجرمين وقد تم قتلهم فى الغابة، وقيل إنهم من رجال زويدى العدو القوى للملك شاكا. طرحت الجثث على الأرض، وقطعت الأذن اليمنى لكل جثة، وهرع الناس إليها وكان كلما وصل أحد إلى الجثث الملقاة ضربها عدة ضربات حتى تقطعت الجثث إربًا، وفى النهاية جمعت الأشلاء وسار ثلاثة رجال فى المقدمة يحمل كل واحد منهم عصا علقت عليها أذن القتلى، وسار الموكب إلى مسكن شاكا، وهنا ظهر الملك لشعبه وغنى الشعب أغنية الحداد الوطنية، وتم إشعال النيران ثم أحرقت الأذن حتى صارت رمادًا، ونحرت الذبائح وقدمت أضحيات لأرواح الأجداد، ونحر شاكا بنفسه ذبيحة قدمها أضحية لروح أبيه».

بالطبع هذه الشخصية القوية المتغطرسة المعتزة بنفسها كشخصية شاكا لا ترضى المستعمرين البيض، فتحالفوا مع جيران شاكا من القبائل الأخرى وزودوهم بالسلاح، وأرسلوا الحملة تلو الحملة حتى أصبحت ناتال مسرحًا للاقتتال والفوضى. وفى عام ١٨٢٨م تآمر أخوا شاكا وهما مهلنجانا ودنجان عليه، وبالتعاون مع أحد الزعماء قاموا بطعن شاكا طعنات أودت بحياته، وكانت كلمات شاكا الأخيرة التى انتزعها فى سكرات الموت بينما كان يسقط على الأرض: «أوه. ماذا فعلت لكم يا أولاد أبى».

وهكذا انتهت حياة زعيم وطنى كبير بعد معارك قاسية، ولكن سيرته لم تنته وأصبحت أسطورة تتداولها الأجيال، حتى جاء «أمسومى» ليسجلها فى عمل درامى عظيم ويقدمها باسم الإمباثا.

وقد لاقت هذه المسرحية الإفريقية التراثية نجاحًا لم يكن متوقعًا فى كل مكان عرضت فيه، وأشاد بها النقاد والصحافة، فكتبت صحيفة «وول استريت»: أنه ليس مديحًا للمخرج والمؤلف أمسومى القول إن مسرحيته الإمباثا وضعت أساسًا جديدًا لمسرحية مكبث، وقال الناقد «بيترلو» فى صحيفة «الديلى ميل»: إننى لا أتصور إنسانًا لا ينفعل بهذا العرض، وهذا التفسير الإفريقى لمكبث، إن هذه أول مرة نفهم فيها شكسبير.

وعلق أمسومى على هذا المديح قائلا : «إن الإمباثا جعلت الفن الدرامى يرتبط بتقاليد الزولو، لقد حولت أجزاء من النص لتستجيب لأوضاع العصر الحاضر وتلائم تقاليد الزولو، فقلعة الملك دنكان مثلاً صارت مغارة على قمة جبل، والخناجر والسيوف استبدلت بهما الرماح والدروع، وصور الخيول والطيور تغيرت إلى البقر الأسود والثعابين، وهذا يجعلنى فخوراً بفن وثقافة جنوب إفريقيا، وأتمنى أن يلهم نجاح الإمباثا كثيرين غيرى من الإفريقيين؛ ليعرضوا على العالم التنوع الهائل فى حضارتهم».

باختصار . . يمكن القول : إذا كانت مسرحية مكبث تحمل شهادة بالثراء من الثقافة الإنجليزية، فإن الإمباثا هى صوت قوى لعظمة الثقافة الإفريقية المجهولة .

* * *

مأساة سارا
رمز لما حدث فى إفريقيا

إن ما حدث لسارتجى بارتمان الذى يختصر اسمها بلفظ «سارا» هو رمز لما حدث لإفريقيا عامة، إن ما عانته هذه الفتاة المسكينة هو صورة للمعاناة الشخصية التى كابدها الملايين من أبناء جلدتها السود الذين شُحنوا قسراً وكرهًا عبر المحيط الأطلسى، وقذف بهم إلى أوروبا والأمريكات ليعمروها.

لم ترتكب «سارا» ذنبًا فى حياتها سوى أنها ولدت فى هذه القارة التى جعلها المستعمرون البيض قارة للعبودية. اختُطفت «سارا» من موطنها كما حدث لملايين الشباب الإفريقى، ولكن معاناتها كانت أشد وأفظع، فقد عوملت هذه الشابة البائسة فى أرض الغربة على أنها فى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان، واعتبرها سيدها الأبيض أنها مسخ بشرى يستحق العرض والمشاهدة، وكل ذلك الهوان والبؤس والظلم؛ لأنها كانت ذات أرداف بارزة، مع أن ضخامة الأرداف وغلظة الشفاه من الصفات البشرية للجنس الأسود، بل تعدان من الجمال الإفريقى.

إن ما كتب عن «سارا» قليل، وهو أقل من أن يكشف عن حقيقة ما كانت تبدو عليه، بعيداً عن المبالغات الغربية والتصوير الكاريكاتيرى لشكلها وأردافها. ولدت «سارا» ١٧٨٩م فى إقليم الكاب بجنوب إفريقيا، وفى السنوات الأولى التى كانت تحبو فيها طفلة كان أهل قبيلتها «الخوسال-Khoisal» يُذبحون ويؤسرون على أيدى المستوطنين الهولنديين للاستيلاء على أرضهم، وسرعان ما وقعت «سارا» فى أغلال عبودية مزارع هولندى هو «بيتر سيزر».

كانت نقطة التحول فى مأساة حياة سارا عندما زار الأخ الأصغر لسيدها المستوطن الهولندى مزرعة أخيه، وكان معه طبيب جراح بريطانى بهره التكوين

الجسمانى لسارا، ومن ثم قام بنقلها إلى بريطانيا لتعرض كحالة غريبة على مسرح بيكاديللى. وفوق حلبة عرض تعلو بارتفاع عدة أقدام، كانت «سارا» تظهر عارية على الناس يقودها حارسها كما يُصنع مع وحش برى، تجبر على المشى والوقوف والجلوس حسب أوامره، كانت تظهر ويعلن عنها باعتبارها أيقونة رديئة للجنس الأسود وللممارسة الجنسية، وعلى أنها تمثل الشراهة الجنسية المتوحشة، وهى الصفة التى أسبغها المكتشفون الأوروبيون لعماء الطبيعة على المرأة السوداء.

صدم هذا الابتذال للعرض العام لـ «سارا» بعض الشرفاء وبدءوا يدافعون عنها وعرضوا قضيتها على القضاء فى نوفمبر ١٨١٠م، ولكن لسوء حظها فإن القاضى حكم ضد منع هذا العرض المبتذل العام لـ «سارا».

وبعد أربع سنوات فى ١٨١٤م باعها صاحب العرض البريطانى لمدرب حيوانات سيرك فرنسى نقلها إلى باريس، حيث وصلت حالتها إلى الحضيض، كانت تعرض مع الحيوانات المتوحشة وهى عارية أو مرتدية بعض الجلود التى تظهرها بشكل متوحش.

وباسم البحث العلمى زادت مهانتها، ففى عام ١٨١٥م قبل وفاتها بقليل أجرى بعض علماء فرنسا (جفروى سانت هيلير وهنرى دبلانفيل وبارون چورچ كافيير) اختباراً على «سارا»، ثم وضعوا نظرية علمية برهنوا فيها على أن المرأة السوداء أكثر بدائية فى شهوتها الجنسية من زميلتها البيضاء، وأن حركاتها وعاداتها تشبهان حركات القرود أو فصائل منها، ودللوا على ذلك بأمور ثلاثة:

١ - أنها رفضت أن تفتح ساقيها وخبأت نفسها فى مئزرها، وأن ضخامة شفتيها تثير الشهوة مثل ضخامة أردافها.

٢ - الأسف الذى كان يبدو على وجهها.

٣ - أنها رفضت المقابل النقدى الذى أعطى لها.

وهذه الأمور الثلاثة إذا كان لدى هؤلاء العلماء قدر من الشرف والاحترام لأدركوا أنها دليل يحسب لسارا لا أن يؤخذ عليها.

حتى الوفاة ذاتها فشلت أن تضع حدّاً للمهانات التى واجهتها «سارا»، فعندما

توفيت فى ديسمبر ١٨١٥م بعد وقت قليل من الاختبار العلمى، وكانت فى الخامسة والعشرين من عمرها، وكان موتها يمثل حركة الاحتجاج الصامت، ويعبر عن أن جهازها العصبى لم يحتمل كل هذه المهانة. تخفت العنصرية تحت ستار العلم الذى كان منتصراً وقتها، وقام عدد من علماء فرنسا بتشريح جثة الفتاة المسكينة، وانتزعوا مخها وأعضاءها التناسلية ووضعوها فى قنينة مملوءة بالفورمالين والمحاليل الحافظة، واحتفظوا بهيكلها العظمى فى «متحف الإنسان» كمسخ آدمى لها، ومما يذكر أنه فى هذا المتحف كل رفات البشر المحفوظة فى معروضاته الزجاجية هم من السود، ولا توجد به حالة واحدة من الجنس الأبيض معروضة، هناك مثلاً نصف رأس لرجل أسود مفتوحة، فهل هذا الرجل تبرع بجسده للعلم!! لا أظن.

عرفت قصة سارا المسكينة من برنامج تليفزيونى عرضته القناة الرابعة البريطانية خصص لصورة الرجل الأسود فى الثقافة الغربية الشعبية، وبهذه المناسبة أشير إلى موضوع سارا. وكان ممن شاهد البرنامج «زولا ماسيكو»، وهو مخرج سينمائى من جنوب إفريقيا التقط الفكرة وعكف على إخراج برنامج وثائقى باسم: «حياة وزمان سارا بارتمان متابعة وثائقية للحياة القصيرة والمأساوية لامرأة شابة من الخوسال».

و«ماسيكو» هو شاب من صناع السينما السود الذين اهتموا بالوثائق الإفريقية فى جنوب إفريقيا، ويحاولون أن يخرجوا منها ما سبق أن أخفى تحت الأبسطة. يقول ماسيكو: إن صناع الأفلام السود فى إفريقيا فى الماضى لم يكن لديهم الوسائل لصناعة الأفلام التى نريدها، أما الآن وقد حزناها فإننا نعيد كتابة التاريخ ونحكيه من خلال تصوراتنا، وسنقول ما نحن عليه ومن أين أتينا، نحن لسنا قردة وليس لدينا چينات مشوهة، نحن نريد أن نسترد كرامتنا، ولهذه الأسباب وأكثر دُفعت أن أحكى قصة سارا.. إننى أتصور أن هذه الشابة خاضت معركة وقاتلت من أجل كرامتها، كانت وحيدة تماماً فى قارة غريبة وماتت من زمن طويل بعيداً عن الشعب الذى أحبها، وقد أبرزت دلائل معركتها من أجل الكرامة التى قاتلت للاحتفاظ بها.

لم يكن البحث عن مادة الفيلم وتصويره بالأمر السهل، كما لم يكن تمويله أيضاً يسيراً؛ ذلك أن الفيلم إنتاج مشترك بين هيئة إذاعة جنوب إفريقيا وفرنسا، ولفرنسا

اهتمام بالإنتاج السينمائى الإفريقى فى البلاد الناطقة بالفرنسية ، واهتمام قليل جداً فى البلاد الناطقة بالإنجليزية مثل جنوب إفريقيا ، ولكنها قبلت الاشتراك فيه لأن القصة تدور فى فرنسا .

على أن العقبة الكبرى التى صادفت «ماسيكو» عند محاولته العثور على بقايا رفات سارا هى رفض «متحف الإنسان» السماح بالتصوير السينمائى لرفاتها الأصلية ، بحجة أن هناك قانونًا يمنع تصوير بقايا رفات البشر الموتى ، واقتضى الأمر تدخل حكومة جنوب إفريقيا ؛ لكى يحصل على نموذج من الجبس مجسداً لسارا .

يقول ماسيكو : عندما رأيت النموذج المصنوع من الجبس لسارا وجدت أنه لامرأة طبيعية ، ولم يكن هناك شىء خطأ بالنسبة لها ، وإننى أتعجب هل كانت فعلاً مشوهة خاصة وأن الإفريقيات وبالذات نساء جنوب إفريقيا لهن أرداف بارزة كبيرة .

أحدث الفيلم دويًا كبيراً وحصل تليفزيون جنوب إفريقيا على جائزة أحسن فيلم تسجيلى فى مهرجان الفيلم الإفريقى فى ميلانو . وأثار اهتمام الجمعيات البريطانية والإذاعات هناك ، فالفيلم لم يلق الضوء ويركزه فقط على الموضوع الرئيسى الخاص ببقايا رفات سارا ، ولكنه كشف عن المنهج الذى يقال إنه منهج علمى للعنصرية والعرقية الذى صار جزءاً مهما من النظرية الاستعمارية .

وحث ذلك حكومة جنوب إفريقيا الوطنية أن تنشط لصالح جماعة تمثل حقوق السكان الأصليين من قبيلة الخوسال ، واتصلت بالحكومة الفرنسية للمباحثة من أجل استعادة بقايا رفات سارا ؛ لكى ترقد فى تراب وطنها بعد غربة مهينة استمرت ٢٠٠ سنة .

وأخيراً فى مايو ٢٠٠٢م بعد ١٨٦ سنة من وفاة سارا وافقت فرنسا أن تعيد رفات سارا التى تتكون من الهيكل العظمى وقنينتين تحتويان على مخها وأعضائها التناسلية . وقال وزير البحث العلمى الفرنسى روجية جيرار شوارزميرج : «إن فرنسا بتسليم رفات سارا إلى موطنها وأهلها تريد بذلك أن تعيد الكرامة لسارا بارتمان التى كانت أهينت كامرأة واستغلت كإفريقى» .

وقال «چوزيف تل» رئيس المجلس الوطنى للخوسال: إن عودة رفات سارا تضع علامة النهاية لمائتى سنة من الإذلال والعزلة والانتهاك لكرامتها، وأنه من الجميل أن نشهد نهاية هذه القصة، وأن توضع لها نهاية على مستوى طيب من التكريم، إنها وضعت أمامنا مفهوم أننا محتاجون أن نكون فخورين بجنسنا، بدلاً من أن نختفى وراء هذا التصنيف المسمى «الرجل الملون» الذى أطلق علينا من النظام العنصرى الذى كرس التفرقة العنصرية. ومن هنا بدت الدلالة من عودتها إلى بلدها جنوب إفريقيا، وقد أصبح غير عنصرى وغير متحيز ضد المرأة بعد قرون من الاستغلال والإذلال، ومن خلال الإهانة والموت انبعثت سارا رمزاً وطنيّا يخرج من الماضى البغيض مع الرغبة الجارفة لاستعادة الكرامة لكل الأجناس البشرية.

استقبل رفات سارا فى بلادها كاستقبال كبار الرجال المهمين، وفى احتفال مهيب جرت مراسيم جنازتها، كان فى استقبالها فى مطار كيب تاون لفيف كبير من الساسة والأكاديميين وكبار أعضاء الحزب الحاكم وأعداد غفيرة من قبيلتها الخوسال (التى يعتقد أنها تمثل السكان الأصليين للجزء الجنوبى من إفريقيا)، ووضع الصندوق على عربة مكشوفة تحوطه العربات العسكرية التى اصطفت على جانبيه، وسار الركب فى طريق ممهد واسع، وصدعت الموسيقى البحرية والأناشيد والأغانى احتفالاً بمرور الموكب. وفى ٩ أغسطس وهو يوم المرأة الوطنى فى جنوب إفريقيا رقد رفات سارا فى حديقة جميلة فى وسط كيب تاون.

ولكن لا يزال هناك عدد كبير من الهياكل العظمية تقدر بنحو ١٧٠٠ من الخوسال يقال إنها موجودة فى المتاحف والجامعات الأوروبية، وأنها أخذت بالسرقة من حفر القبور.

وقد طلبت جمعية متاحف جنوب إفريقيا عام ١٩٩٦م استعادة هذه الهياكل، ولكن لم يُستجب للطلب؛ لأن جنون تجميع الهياكل العظمية للخوسال هو جزء من الدراسات العرقية التى تستهدف تأكيد امتياز الرجل الأبيض.

* * *

الملك خاما الثالث
حاتم الطائى الإفريقى

عندما يضع الأوروبيون أيديهم فى قاع جيوبهم للتصدق من أجل الجماهير الجوعى فى إفريقيا، فإن قليلاً من الناس هم من يعرفون أنه إلى وقت قريب كان العكس هو الذى يحدث، وأن إفريقيا القارة المتسولة الآن هى التى كانت تتصدق على أطفالهم الجوعى، وأن الملك «خاما الثالث» ملك بتسوانا أصغر دويلة فى إفريقيا كان أكثر كرمًا من حكّام ورؤساء عالم اليوم الذين يتشدقون الآن بحقوق الإنسان.

وليس ذلك فى الماضى السحيق بل فى الأمس القريب، فحتى مطلع العشرينيات من القرن العشرين كانت إفريقيا سلة غذاء لأهلها ولمستعمريها، لم يكن بين شعوبها حروب ولا اقتتال، وإنما كانت الحروب سمة أوروبا التى أشعلت حربين عالميتين طاحنتين ساعدتهم فيها إفريقيا بثرواتها وشبابها الذين كانوا من وقود هذه الحروب، ومن قبل اقتنص الأوروبيون أبناءها ليعمروا أراضيهم، ثم أشعلوا بينهم بذور الخلافات والفتنة التى حولت القارة المسالمة إلى قارة متطاحنة عاجزة.

يسجل التاريخ أنه فى ١٥ يوليو ١٩٢٠م استلم الملك «خاما الثالث» حاكم بتسوانا (بتسوانا الآن) وكانت محمية بريطانية تقع داخل أفريقيا الجنوبية، استلم خطابًا أتاه بالبريد من سيدة أوروبية تدعى «ماك جريجور» كانت تعمل على جمع الأموال من أجل الجوعى فى أوروبا، وأرفقت بخطابها صورة تثير الشفقة عن أم أوروبية تحتضن ابنها الجائع، وكتبت فى خطابها تقول:

إلى الرئيس خاما إن ليدى بوكستون تسألنى أن أجمع من المحمية معونة من أجل الأطفال الجوعى فى أوروبا، وإنى أسألك إن كان يمكنك أن تساعدنا وكذلك شعبك من أجل هذه القضية التعيسة.

إن آلافًا من الأطفال الأبرياء يعانون من الجوع ويموتون من شدة احتياجهم للطعام، ويتعرضون للبرد القارص ولا توجد ملابس ولا خرق تحميهم، إنه يبدو مرعبًا التفكير فى هذه المعاناة الأليمة التى يعانيها أطفال فقراء لا حول لهم ولا قوة، وفى إفريقيا لديها كل ما تريد.

إننى أهيب بكرمكم لكى نتفادى أهوال هذا البؤس، وأنا واثقة أنك لن تصم أذنيك عن صيحات البائسين ونداءاتهم لكى تساعدوهم. إن الرغبة ملحة وكبيرة وكل جنيه تعطيه ستعطى حكومة جنوب إفريقيا والحكومة البريطانية جنيهًا مثله، إننى أرسل لك صورة واحدة تريك بؤس الأمهات ومعاناة الأطفال، وهناك الآلاف من هؤلاء فى الصرب وأرمينيا وپولندا وبلچيكا وشرق فرنسا وفى كل وسط أوروپا.

إننى أعرف أنك وشعبك سترسلون ما تستطيعون من أجل هؤلاء الأطفال البؤساء المساكين، وتستجيبون لنداء ليدى بوكستون بأقصى ما تستطيعون وبأسرع ما يمكن لأن المعاناة كبيرة.

المخلصة ماك جريجور

وأرفق بالخطاب صورة صغيرة - يبدو أن «ماك جريجور» - قطعتها من إحدى المجلات، وكان النص المكتوب تحت الصورة: «ضحية نقص الطعام: إن وزن هذا المخلوق الصغير البائس البالغ ست سنوات ونصف هو ٥ , ١٥ رطل فقط، هذا شاهد فهل تتردد لحظة دون أن تصنع أى شىء لإنقاذ الآلاف من هذا الخطر المرعب».

ولكى يكون الملتمس فعالاً ومؤثرًا أضافت السيدة «ماك جريجور» إلى هذا النص «العديد من هؤلاء فقدوا آباءهم فى الحرب وكذلك أمهاتهم».

تأثر الملك «خاما الثالث» (١٨٧٥ - ١٩٢٣م) من هذه الرسالة ووهب لصندوق الأطفال النمساويين الجوعى قدرًا كبيرًا من الجنيهات، حدث ذلك فى عام ١٩٢٠م حينما كانت أوروپا تعانى من آثار الحرب العالمية الأولى، وكانت كاتبة الخطاب السيدة «ماك جريجور» تعيش فى جنوب إفريقيا، وكانت صديقة لزوجة المندوب السامى البريطانى لورد بوكستون.

هذا مثال يوضح كيف تغيرت الحالة العالمية خلال نصف قرن، وقد وجد الخطاب فى أرشيف المتحف التذكارى الخاص بالملك «خاما الثالث» الذى افتتح عام

١٩٨٦م، وأنشأه حفيد الملك ليبستوى خاما وأودعه مع أرشيفات الأسرة. والمتحف مليء بأمثلة تثير الاندهاش عن تاريخ بتسوانا تغطى الفترة ١٨٧٥م-١٩٤٩م.

إن الملك «خاما» لم تتصل به السيدة «ماك جريجور» وحدها، فإن عدداً من طلاب الخير من الأوروپيين قد لجأوا إليه، وبين الملفات الموجودة يوجد طلب من إحدى مستشفيات لندن من أجل الجنود غير القادرين، وفيه ما يدل على أن الملك خاما وشعبه أهدوا إلى ما يسمى «سوق الحرب فى جنوب إفريقيا» مجموعة ضخمة من المصنوعات الجلدية والحرفية التقليدية، وقد ذهبت الأرباح والدخل المتحصل من هذا البيع إلى الفقراء والمحتاجين فى أوروپا.

وخلال الحرب العالمية الثانية تلقت أوروپا العون بصورة أخرى من ملوك إفريقيا. وتذكر وثائق المتحف أن ملك بتسوانا «تشيكيدى» الذى خلف «خاما الثالث» ساعد الجيش البريطانى بتقديم عشرة آلاف من الرجال لينضموا إلى صفوفه. وهذه تعتبر تضحية كبيرة؛ لأن مجموع السكان فى ذلك الحين كان لا يزيد عن ٤٠٠ ألف مواطن.

ولكن لحسن حظ هؤلاء أن الجيش البريطانى لم يكن لديه ثقة فى الجنود الإفريقيين، واستخدم رجال بتسوانا فى الخطوط الخلفية ليقوموا بأعمال الخدم والطبخ والغسيل، وهذا يفسر أن ٢١٦ فقط من بين العشرة آلاف هم من ماتوا فى الحرب.

ولم تتوقف مساعدة بتسوانا للمملكة المتحدة عند هذا الحد، فخلال الحرب العالمية الثانية جمع من شعب بتسوانا مبالغ كبيرة كضريبة حرب، أهداها ملوك بتسوانا كضريبة تطوعية إلى الجيش البريطانى.

فهل كان هناك ملوك أفريقيون آخرون أجزلوا العطاء لأوروپا الجائعة، كما فعل ملوك بتسوانا، وساعدوا فى التخفيف من معاناة الأوروپيين فى الحرب العالمية الثانية؟ لا شك أن ملوك بتسوانا لم يكونوا متفردين فى عطائهم، فغيرهم كثيرون ممن منحوا ووهبوا بلا حدود. وعندما يكتب تاريخ إفريقيا الحقيقى سيكشف المثير مما قدمته إفريقيا لأوروپا عبر الحقبة الاستعمارية.

والآن انقلب الوضع وأصبح أطفال إفريقيا هم الجوعى يطلبون العون من أجل البقاء على الحياة.

الفصل الرابع

وقـــائع وأحـــــداث

الأفارقة سبقوا كولمبس إلى أمريكا

طبقًا للتاريخ السائد الآن فإن «كريستوفر كولمبس» قد اكتشف أمريكا، وأن الأهالى الذين كانوا يعيشون هناك هم شعوب بدائية غير مهمة، ولكن الحقيقة أنه قبل أن تطأ أقدام كولمبس أرض الأمريكات كان الأفارقة قد وصلوا إليها قبله بقرون عديدة، وكانوا يعيشون هناك بين أهلها ويتاجرون معهم، وأثروا فى الحضارات الأمريكية على نحو بعيد ونشروا ثقافاتهم بين أهلها هناك.

وقد ظل وجود الأفارقة فيما يسمى بـ «العالم الجديد» مجهولاً حتى وقت قريب، وساهم المؤرخون بجزء فى إخفاء هذا التاريخ؛ لأن الوجود الإفريقى فى أمريكا يمثل تحديًا كبيرًا لما يدعيه التاريخ الحديث من أن شخصًا اسمه «كريستوفر كولمبس» هو من اكتشف أمريكا. . إلا إذا كان الاكتشاف يعنى الوصول بعد الآخرين بقرون!!

ويرجع الوجود الإفريقى فى الأمريكات إلى ما قبل التاريخ الأمريكى، فالحضارة المصرية وصلت إلى الأمريكات حوالى ١٢٠٠ قبل الميلاد، ووصل «الماندنجو» من غرب إفريقيا إلى هناك فى حوالى ١٣٠٧ ميلادى، قبل أن تظهر رحلة كولمبس فى الأفق بعد.

وقد كشفت الدراسات، التى قام بها العلماء الإفريقيون الأمريكيون مثل الدكتور «إيفان ڤان سرتيما» الذى نشر كتابًا عام ١٩٧٧م بعنوان: «إنهم جاءوا قبل كولمبس»، عن دلائل قوية تؤكد أن الوجود الإفريقى فى الأمريكات كان قبل التاريخ، وأن الأفارقة وجدوا هناك فى العصور القديمة لا بوصفهم عمالاً، ولكن بوصفهم جماعات ذات نفوذ كبير تشغل مراكز النخب فى المجتمع، وتمد المجتمع بعناصر الحضارة التى أتوا بها من إفريقيا قبل القرن الثالث عشر الميلادى، وهو

القرن الذى تلت بعده تجارة الرقيق عبر الأطلنطى، ولكن هذه الحقيقة يصعب قبولها والاعتراف بها من المؤرخين الأوروبيين؛ لأنه ينفى المفهوم الشائع الخاص ببدائية ودونية الزنوج، وهى الفكرة التى راجت لتبرير استرقاق الإفريقيين من القرون التالية.

وأشار الكاتب الإفريقى الكاريبى «رتشارد مور» فى كتابه «دلالة التاريخ الإفريقى» إلى الجهود الكبيرة التى بذلت لإنكار كل شىء فى التاريخ بالنسبة لإفريقيا والشعوب الإفريقية، وأن مهمة تزييف التاريخ الإفريقى كانت متعمدة لتبرير الاسترقاق.

رحلة الماندنجو[1] ١٣٠٠ ميلادية:

إن البحوث الأثرية وبحوث الحفريات أظهرت الحملات الإفريقية التى جرت عبر الأطلنطى إلى أمريكا بين عامى ١٣٠٧، و١٣١٢ بعد الميلاد. فقد ذكر العمرى المؤرخ الإسلامى فى القرن الرابع عشر فى كتابه «مسالك الأبصار»: «أنه عند زيارة السلطان «منسى كن كن موسى» الذى يعد أعظم سلاطين مملكة مالى على الإطلاق وأبرز شخصية فى تاريخ قبائل الماندنج، ذكر أن منسى عندما توقف فى القاهرة، وهو فى طريقه إلى مكة للحج عام ١٣٢٤، حدثه عن حملات الماندنجو عبر الأطلنطى، وأن سلفه قاد حملتين من غرب إفريقيا لكشف حدود الأطلنطى، قال العمرى: عندما سألت السلطان «منسى موسى»: كيف حدث أن وجدت كل هذه القوة؟ أجاب: إننا من بيت تنتقل فيه السلطة والقوة بالميراث، وأن الحاكم الذى

---

(١) قبائل الماندنجو هى مؤسسة دولة مالى أقوى وأغنى الدول الإفريقية التى ظهرت فى غرب إفريقيا، ويميزها عن غيرها الدور الكبير. الذى نهضت به من أجل توحيد القبائل الزنجية داخل مملكة، وكذلك الدور البارز فى نشر الإسلام فى غرب إفريقيا.

وقد سادت قبائل الماندنجو لبضعة قرون المنطقة الفسيحة الممتدة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسى. وظهور الماندنجو على مسرح التاريخ الإفريقى لأول مرة يرجع إلى زمن بعيد، والمعلومات قليلة عن التاريخ القديم للماندنجو؛ وذلك بسبب ندرة المصادر واختلاط الروايات الشفهية بالأساطير، ثم إن السجلات والوثائق الخاصة بمملكة الماندنجو لم تدون إلا بعد مرور نحو سبعة قرون أو ثمانية من ظهورها، علمًا بأن هذه الوثائق والسجلات لم تعن إلا بأخبار الأسر الحاكمة دون الرعايا. وقد ظلت مملكة الماندنجو تنمو وتتسع تدريجيًا فى منطقة أعالى النيجر، وبدأ المعروف عن تاريخ هذه المملكة يتضح منذ القرن السابع الميلادى، وبلغت ذروة مجدها خلال القرن الرابع عشر.

سبقنى لم يكن مؤمنا بأن ثمة استحالة فى اكتشاف حدود البحر المجاور (يقصد المحيط)، لقد رغب فى أن يكتشف وأصر على خططه، وقد أعد مائتى سفينة حملها كلها بالرجال وشحن عدداً مقابلاً من السفن بالذهب والماء ومواد التموين الكافية لعدد من السنين، وقال للرجال الذين يقودهم: لا تعودوا إلا إذا بلغتم أقصى المحيط أو إذا نفد طعامكم وشرابكم. ومضى وقت طويل قبل أن يعود أحد منهم. وفى النهاية فإن سفينة واحدة عادت للظهور، وعندما سئل عن الباقين أجاب ملاحها: لقد أبحرنا لزمن طويل، وواجهنا فى منتصف المحيط شيئًا أشبه بالنهر وتياره شديد، وقد أبحرت السفن ودخلت فى هذه المنطقة واختفت ولم تعد، أما بالنسبة لى فقد عدت إلى حيث كنت ولم أدخل فى التيار. ولكن السلطان لم يشأ أن يصدقه فأعد ألفين من القوارب بالقوة المناسبة وترك لى السلطة، وسافر هو مع رفاقه فى المحيط. وكان هذا آخر وقت رأيته فيه ورأيت الآخرين أيضًا، وبقيت أنا الحاكم المطلق للمملكة».

إن السلطان الذى ذكره منسى هو «أبو بكر الثانى» السلف المباشر لـ «منسى موسى» وهو الذى شن تلك الحملة، وكانت الحملة من المقدر أن تصل إلى أمريكا أو مواقع أخرى فى الكاريبى أو فى خليج المكسيك. وطبقًا لما ذكره العالم الجزائرى «محمد حميد الله» فإن أسطول (حملة أبى بكر الثانى) كان يمكن أن يصل الكاريبى فى الوقت الذى قرر القائد فيه أن يعود بسفينته.

لقد كان الفن والتكنولوچيا فى بناء السفن متطورين وجيدين فى إفريقيا من النوبة إلى الأجزاء الأخرى من القارة. وإن «القانى» وهو المؤرخ التمبكتو فى تاريخ الفتح الإسلامى عرفنا أن «أسكيا إسحاق» ١٥٩١ م وهو آخر سلاطين مملكة السنغى فى غرب إفريقيا، قد استخدم مائتى سفينة فى نهر النيجر؛ ليخلى ساحته من الجيش المراكشى المتقدم.

وبعد نحو ٢٠٠ سنة من زيارة «منسى موسى» لمكة، فإن «كرستوفر كولمبس» فى كتابه «صفحات لكريستوفر كولمبس» شهد باستمرار حملات الماندنجو للأمريكات، وقال: «إن سفنًا تجارية من غرب إفريقيا كانت تغادر شاطئ غينيا دوريًا وتبحر إلى وسط أمريكا محملة بالذهب والبضائع الأخرى، وهى التى أدخلت فن سبك الذهب وخلطه هناك».

كما كتب «كولمبس» : أن هنود أمريكا يأتون بمناديل من القطن منسوجة نسجًا رقيقًا ومشغولة بالألوان، مثل ما يشترى من غينيا ومن أنهار سيراليون بغير اختلاف. إن تجارة الذهب للماندنجو وتجارة الملابس المنسوجة المسماة «المئزر» (ملابس تصنع كثيراً من ألوان متعددة وتستخدم كرداء واحد ويصنع منها قفاطين) مع هنود أمريكا، قد اكتشفها كولمبس وذكرها فى يومياته.

وإن المراكشيين فى شمال إفريقيا الذين كانوا يسيطرون على الجزء الجنوبى لأوروبا ،كانوا يتاجرون مع ممالك الماندنجو وأدخلوا المئزر إلى إسپانيا، ومن ثم جاءت معرفة كولمبس بهذه الملابس.

ويذكر د. ڤان سرتيما فى كتابه عن«الوجود الإفريقى المبكر فى أمريكا» : أن الهنود الحمر ذكروا لكولمبس وآخرين ممن وصلوا إلى جزر الهند الغربية بعد سنة ١٤٩٢م بقليل أن الشعب الأسود الذى عرف باسم الغينى الأسود أتى بالذهب إلى هذه الجزر، وأن أسماء الذهب وهى جوانا وكونا وكوانى وجوانين، أتت مباشرة من أسماء الماندنجو للذهب وهى غانا وجانا وكين وكانين وغانين.

وكتب «البكرى» المؤرخ الإسلامى ١٠٦٧ ميلادية يقول: إن الشعب أهل غانا القدامى يلبسون القطن والحرير وغيرهما. وبعد مائة سنة كتب الإدريسى المؤرخ الإسلامى ملاحظًا أن شعب سيلا وتكرور وغانا يلبسون المئزر.

إن صناعة تفصيل الملابس وجدت فى غرب إفريقيا قبل وصول الأوروپيين إليها بكثير، والمئزر فى غانا وساحل العاج لم يكن مما أدخله الأوروپيون أو العرب، ولم يكن المئزر مجرد لباس، إنه يتضمن رمزًا وفلسفة للناس لأكثر من عشرين رمزاً مقدسًا يعبر عن قيم أخلاقية وتصورات فلسفية يمكن أن تتوحد مع شرائع مصر القديمة.

وفى هندوراس فإن قبائل الماندنجو والجارا والجوابا التى كانت مسلمة، كانت تسمى نفسها «الماميز»، وهو شكل من أشكال نطق الكلمة العربية الإمامو أو الإمام وتعنى القائد، وعندما نزل الأوروپيون إلى جزيرة «سان ڤان سان» وجدوا شعبين متميزين من البشرة الصفراء والبشرة السوداء، وكان ذلك قبل ظهور تجارة الرقيق.

كان الماندنجو الذين يشغلون أماكن متنوعة فى جزيرة «سان ڤان سان» ويألفون

الأرض، يرحبون فى القرن الخامس عشر بالأفارقة الهاربين من العبودية من المعسكرات الموسمية التى كانت تنتشر فى جزر الكاريبى، وفى هذه المعسكرات كانت تجرى عمليات مادية ومعنوية لإخضاع إرادة المقاومة، عن طريق الجلد والحرمان من الطعام بما يجردهم من إنسانيتهم وولائهم للذات. وكانت هذه المرحلة الأخيرة لعملية بدأت فى السفن من ساحل غينيا قبل الرحلة إلى مناطق أخرى فى العالم الجديد. وكانت جزيرة جاميكا من أسوأ المعسكرات الموسمية سمعة، وفيها خاض العبيد الإفريقيون حروبًا متطاولة لتحرير أنفسهم، حيث كان الأفارقة يهربون من المعسكرات الموسمية ومن معسكرات العمل ينشدون الهروب.

إن واحدًا من هؤلاء وهو القائد «جادجوى» وهو من أصل غينى (ولفظ كادجوى مأخوذ من الاسم الغينى كوادجو ويعنى الولد الذى ولد يوم الاثنين)، هذا القائد حارب الإنجليز نحو عشر سنوات، وظل يقاوم جيشًا يتكون من ١٨٠٠ جندى إنجليزى، فضلاً عن ميليشيا يربو عددها على ثلاثة آلاف رجل. وصف المؤرخ الإنجليزى «ب. شارل لوك» هذه الحروب بأنها أول مرة فى تاريخ الأمريكات أجبرت الدولة المستعمرة على الاعتراف بحقوق رعاياها فى الاستقلال، لقد حدث هذا قبل نصف قرن من حصول أمريكا الشمالية على استقلالها و ٧٠ سنة من استقلال السود فى هاييتى.

وفى عام ١٧٩١م فإن الإفريقيين من سورينام الذين كانوا يقودهم كابتن «آدو» (وهو أيضًا اسم غانى يعنى من يولد اليوم العاشر)، حاربوا الهولنديين لمدة ٣٦ سنة قبل أن توقع نهائيًا معاهدة السلام.

رحلة نوبيا كيمت قبل الميلاد:

كان الوجود الإفريقى المبكر فى الأمريكات هو وجود شعب نوبيا كيمت، ثبت ذلك بالاكتشاف الذى تم ١٨٥٨م لرأس ضخم ذى ملامح نوبية يبلغ ثمانية أقدام عرضًا و ١٨ قدمًا طولاً، ويرجع تاريخه إلى ما بين عامى ٨٠٠، و ٦٠٠ قبل الميلاد. وقد اكتشف هذا الرأس فى قرية تريزابوت فى المكسيك، واكتشف بعد ذلك فى أمريكا الجنوبية سبعة عشر رأسًا أخرى.

فى ١٨٦٩ م كتب «جوزى مجلار» الباحث المكسيكى فى القرن التاسع عشر وصفًا مختصرًا عن الآثار فى المكسيك قال: «فى ١٨٦٢م كنت فى إقليم سان أندريه تكستلا، وعلمت فى تجوالى أن رأسًا ضخمًا اكتشف من الأرض من بضع سنين مضت فطلبت أن أذهب لرؤيته، وعندما ذهبت صدمتنى المفاجأة كان عملاً رائعًا من أعمال الفن. كان تمثالاً عظيمًا بغير مبالغة، وما أدهشنى هو الطابع الزنجى الإثيوبى الذى يمثله، وتصورت أن الزنوج كانوا هنا فى هذا البلد، وكان ذلك فى الحقبة الأولى من تاريخ هذا العالم».

إن هذه المقالة ومطبوعات أخرى تضع الإفريقيين بشجاعة فى ارتباط مع أمريكا القديمة، ولكن ذلك يقابل بالصمت من الأساتذة والباحثين الأوروپيين والأمريكيين رغم الدلائل المادية الموجودة على الأرض، ومنها هذا الرأس الضخم الدقيق النحت المكتمل الملامح الزنجية، وهذا مما يؤكد الوجود الممتد للأسلاف الأفارقة فى هذا الجزء من العالم.

فى سبتمبر عام ١٩٧٤م، عقد المؤتمر الواحد والأربعون لعلماء الأمريكات فى المكسيك، وفيه تحدث الدكتور «أندريه فايرز نسكى» وهو أحد الخبراء العالميين المتخصصين فى الشئون الأمريكية، أكد أن جماجم إفريقية وجدت فى مناطق عدّدها وذكر أسماءها فى المكسيك، كذلك قال «ألكسندر ڤان وثنو» مؤرخ الفنون الألمانى: إنه جمع مجموعة مهمة من التماثيل وجدت فى كولومبيا تمثل رؤساء إفريقيين ورجال دين وراقصين وضاربى طبول، ولكنه نُصح بألا يطلق لفظ نجرو على هذه الآثار، وإنما يقول نجرويد أى لا يقول زنجى وإنما زنجوى؛ لأن الزنجوية قد تعنى أن هؤلاء لم يأتوا من إفريقيا ولم يأتوا من الزنوج الإفريقيين، نُصح بذلك لكى يستبقى احترامه فى الدوائر الأكاديمية؛ لأن بعض العلماء يعارضون بشدة وجود علاقات تمتد من إفريقيا عبر الأطلنطى، حتى إن رئيس قسم الأنثولوپولچى فى جامعة ييل فى الولايات المتحدة وهو حجة فى شأن أمريكا الجنوبية، أنكر أن تكون الشفاه الغليظة والأنف المفرطح الخاصة بالرأس الكبيرة والرءوس المكتشفة لأشكال بشرية، وإنما أرجعها إلى أن النحاتين الأرثوذكس لم يريدوا أن يخلقوا ملامح حقيقية يمكن أن تتحطم.

إن أوروبا برغم انبعاثها المتأخر نسبيًا فى مراحل تاريخ الإنسانية يقال إنها تحوز استمرارية تاريخية وأرشيفية ، ولكن اكتشاف مثل الرأس الضخم والتماثيل الأخرى فى أمريكا يؤكد بالدليل المادى استمرارية التاريخ الإفريقى العظيم الذى يعود إلى تاريخ النوبة ومصر الفرعونية .

وفى الحقيقة فإن بداية الاستمرارية التاريخية الأوروبية من خلال الإفريقيين الذين سادوا إسبانيا وروما (إيطاليا)، ومما يثبت بالوثائق فإن أكثر من خمسة أباطرة حكموا روما كانوا من النوبيين ، منهم «فلافياس هونورياس» ٣٩٥ بعد الميلاد ، والإمبراطور «سبتيماس سيفيرس» ١٩٣ م الذى أقام تمثال هانيبال فى روما وفى ٢٠٢ م زار مصر الفرعونية .

حضارة الأولمك ما بين ١٢٠٠ و ٤٠٠ قبل الميلاد

إن كثيراً من الوثائق المكتوبة التى تركها «الأولمك ـ Olmec» فى أمريكا الجنوبية قد خضعت لتدمير منظم بواسطة المستكشفين الأوروبيين للعالم الجديد . إن الناس الذين حرقوا مكتبات المراكشيين الأفارقة فى إسبانيا هم أنفسهم الذين دمروا الوثائق المكتوبة لحضارة الأولمك ، والأولمك لفظ مشتق من الأولم وهو يعنى المطاط لدى قبائل الاوزديك فى المكسيك ، ثم صارت تترجم باعتبارها الناس الذين أتوا من أرض المطاط ، وكانت مدينة لافنتا فى المكسيك هى عاصمة حضارة الأولمك) .

كتب الأسقف الإسپانى «دياجودى لاندا» من نيوقاطان كتب يقول : «إن هؤلاء الناس استخدموا أشكالاً معينة أو حروفًا كتبوا بها كتبهم وشئونهم القديمة وعلومهم ، لقد وجدنا عدداً كبيراً من الكتب تحتوى على خزعبلات وقد حرقناها كلها ، وقد أسفوا هم لذلك ، ونحن مندهشون لأسفهم» .

كذلك كتب «أنطونيو دى كويداد» المؤرخ الإسپانى فى ١٥٨٨ بعد الميلاد يقول : «إن الإسپانيين حرقوا كثيراً من الكتب التاريخية للقدماء التى تتحدث عن بداياتهم وتاريخهم» .

إن المستوطنين الأوائل فى أمريكا الوسطى كانوا فى الفترة ما بين ثلاثة آلاف إلى ألفين قبل الميلاد ، ولكن الحضارة الأساسية التى أعقبتهم كلهم كانت للأولمك التى نشرت نفوذها عبر الحضارات الأمريكية كلها .

إن حضارة الأولمك فى أمريكا كان لها ثلاثة تأثرات كبرى : **الأثر الأول** هو حضارة شبه المنغولية التى اختلطت مع أمريكى عصر إيكا ، **والأثر الثانى** كان الإفريقيين الزنوج ، **والأثر الثالث** أتى من شريط سكان البحر المتوسط . ولكن كان الوجود النوبى ذا نفوذ فعّال فى حضارة الأولمك وفى ذروتها ، وقد أتى بتأثير ثقافى ليس له مثيل انتقل من النوبة إلى العالم الجديد .

وبلغت حضارة الأولمك ما بين ١٢٠٠ و ٤٠٠ قبل الميلاد جواتيمالا وهندوراس ، ووصلت إلى وسط المكسيك وكوستاريكا وعلى طول شاطئ أمريكا القديم حتى پنما ، ولكن كانت لاڤنتا فى المكسيك هى ما أرسى الأولمك أساسها فى أمريكا القديمة ، ويرمز لها عدد من التكوينات الهرمية والكتابات الهيروغليفية وهو أثر تمثلته الحضارات الأخرى فى أمريكا .

إن الجدل فى الأوساط الأكاديمية لا يدور حول ما إذا كان الإفريقيون قد شغلوا مراكز فى الحضارة الأمريكية القديمة ، ولكن الجدل يقوم حول من أى جزء من إفريقيا أتوا من آلاف السنين . وعلى خلاف التقديرات التاريخية فإن الإفريقيين لم يبحروا فى زوارق مصنوعة من جذوع الأشجار ، ولكن عبر مراكب متطورة . وكانت مئات من المراكب عابرة المحيط من أجل التجارة والسيطرة فى العالم القديم ، أوجدتها المهارة والتكنولوچيا التى كانت لدى الإفريقيين القدماء بشأن بناء السفن مثلما وجدت فى قرطاچ فى تونس ، ثم لدى المراكشيين الذين كانوا يتاجرون مع ممالك إفريقيا الغربية فى القرن الثانى عشر .

إن أول هرم فى أمريكا بنى فى مكان كان يقام فيه الاحتفالات ، ويعلق د . إيڤان ڤان سرتيما على أهرامات أمريكا فى كتابه عن الوجود الإفريقى فى بدايات أمريكا يقول : «إن الأهرامات توضع على محور الشمال والجنوب مثل كل أهرامات مصر والنوبة ، وإن الأهرامات تجمع ذات الوظائف المزدوجة باعتبارها قبراً ومعبداً . وإن الهرم الكبير ومساحته ٢٢٥ متراً مربعًا له قاعدة هرمية تماثل فى نسبها قاعدة الهرم الأكبر فى مصر . وفى الحقيقة فإن مستوى القياسات الذى تطور بواسطة الرياضيين ورجال الفلك فى مصر القديمة ، قد وظف فى أمريكا القديمة ، واتبع ذلك الأجانب (يقصد الإفريقيين) الذين رحب بهم الأهالى» . وطبقًا لما يقول د . سرتيما

«إننا إذا اختبرنا بعض خوذات هؤلاء الناس، فإننا نجد أنها شبيهة بخوذات المصريين القدماء في عهد رمسيس وفي الألف الأولى قبل الميلاد. إنها تغطي الرأس كله وظهر الرقبة ولها رباط يربطها في الرأس ويقع في مقدمة الأذن».

إن التشابه القوي بين الحضارة الأولمك وبين مصر القديمة يمكن ملاحظته في المجال العلمي والثقافي، فمثلاً الزورق المقدس لملوك المصريين القدماء وجد أيضًا في رسومات الأولمك بنفس الوظائف، ورمز الحياة الإفريقي عنخ مثل ما في الأولمك الصليب المقدس بذات الوظائف والاسم يسمونه في الأولمك شجرة الحياة، وكذلك الأهرامات في المكسيك تماثل أهرامات مصر القديمة. والآلهة التسعة في عقيدة القدماء المصريين المشار إليهم في كتاب الخلق يمثلون ما وجد في أمريكا وسجل في أهرامات المكسيك بالآلهة التسعة في الليل.

ويقول د. إيڤان سرتيما: «إنه من المهم أن نفهم ما هو العبء الكبير في الإثبات المطلوب لتأثير النفوذ الثقافي، إن اكتشاف وجود الأسلاف الأفارقة في الأمريكات ليس مهمًا بقدر ما هو الكشف عن روح البحث عند الإفريقيين التي ساقتهم إلى اكتشاف أمريكا، وهو ما يدفع الإفريقيين المحدثين إلى نشدان التحرر الروحي والثقافي».

* * *

الفـلاشـــا

في عام ١٩٧٦م دعتنى جبهة تحرير إريتريا لزيارة المناطق المحررة، كانت الجبهة فى ذلك الوقت قد استطاعت أن تحرر ثلثى أراضى إريتريا من الوجود الإثيـوبى، الذى فُرض عليها بالقـوة منذ عام ١٩٥٢ م حين منحت الأمم المتحدة الإمبراطور هيلاسيلاس حق إدارة إريتريا، فضمهـا الإمبراطور عنوة عام ١٩٦٢ م وأصبحت جزءًا من إثيوبيا[١].

---

(١) فى مؤتمر برلين ١٨٨٤م اقتسمت الدول الاستعمارية شرق إفريقيا وكانت إريتريا من نصيب إيطاليا، وأصبحت إريتريا مستعمرة إيطالية من عام ١٨٩٠م، واستمر الحكم الإيطالى بها حتى عام ١٩٤١م عندما منيت إيطاليا بالهزيمة على يد الحلفاء فى نهاية الحرب العالمية الثانية. وفى اتفاقية باريس للسلام ١٩٤٧م أجبرت إيطاليا على تخليها عن مستعمراتها السابقة، وكان على الحلفاء أن يقرروا مصير إريتريا.

طالبت إثيوبيا بضم إريتريا لتكون مخرجًا لها على البحر الأحمر، وطالب الشعب الإريترى بالاستقلال، وفى أكتوبر ١٩٤٨م أحيلت قضية إريتريا إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة، واقترحت أمريكا وبريطانيا أن تنضم إريتريا لإثيوبيا، ورفض الشعب الإريترى رفضًا تامًا هذا الاقتراح الأنجلوأمريكى.

وفى ديسمبر ١٩٥٠م أصدرت الجمعية قرارًا بتسوية فيدرالية بين إريتريا وإثيوبيا، وعينت الأمم المتحدة مندوبًا ساميًا لإريتريا ليضع القرار موضع التنفيذ، وخرج بمسودة دستور عام ١٩٥٢م الذى يسمح بتشكيل حكومة إريترية تختص بالشئون الداخلية مع إحالة الشئون الخارجية لمجلس مشترك فيدرالى مكون من ٦ إريتريين و ٦ إثيوبيين. وفى يناير ١٩٥٣م أعلن استقلال إريتريا وشكلت حكومة إريترية بهيئاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية المستقلة تماما عن الفيدرالية. ولكن أمريكا تحركت بكل قواتها ووقعت مع إثيوبيا اتفاقية دفاع مشترك مدتها ٢٥ عامًا، وفى عام ١٩٥٥م أبلغ ممثل الإمبراطور فى الأمم المتحدة أنه ليس لإريتريا شئون داخلية وأخرى خارجية وكلها تابعة لمكتب الإمبراطور الذى اتخذ سلسلة من الإجراءات لإنهاء كل المؤسسات الإريترية. وفى عام ١٩٥٨م أنزل العلم الإريترى ورفع العلم الإثيوبى. وفى عام ١٩٦٠م أعلنت إثيوبيا أنه لا يوجد شىء يسمى بالحكومة الإريترية، و فى عام ١٩٦١م لم يبق أى شكل لقرار الأمم المتحدة بالفيدرالية. وفى عام ١٩٦٢م حل الإمبراطور رسميًا صيغة الفيدرالية، واحتلت وحدات الجيش الإثيوبى الأراضى الإريترية، وأعلنت الأحكام العرفية وفرض الحكم العسكرى. ومنذ ذلك التاريخ أعلن الشعب الإريترى الكفاح المسلح ضد الاحتلال الإثيوبى بقيادة جبهة تحرير إريتريا.

كانت الرحلة مثيرة وثرية، قضيت ٢١ يومًا تحت القصف الإثيوبى انقلب فيها النهار ليلاً والليل نهاراً؛ إذ كان علينا أن نتحرك فى الظلام، ونختفى مع بزوغ الشمس؛ لأن الطيران الإثيوبى كان يمارس قصفه أثناء النهار فقط فكان لا يستطيع الطيران فى الظلام.

عند الغروب كانت الحياة تدب فى المدن والقرى المحررة، وكان مرافقى عمر يقص علىّ الكثير من المعلومات الغريبة والمثيرة عن هذه القرى وناسها، أصلهم طبيعتهم عاداتهم تقاليدهم معتقداتهم. وفى يوم كنا تحت سطح تل مرتفع ذكر كلمة «الفلاشا»، قال: فوق هذا التل يعيش قوم يسمون الفلاشا، وهم شعب غريب الأطوار يميل إلى العزلة ويبتعد عن المجتمعات الأخرى ويتوجس من الغير ويهرب منهم، يسيطر الهدوء على أماكنهم حتى تبدو مهجورة؛ لأنهم يتحركون ويعملون فى الليل فهم لا يثقون بأحد، وهم ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية الفقيرة جداً، يمتهنون الحدادة وصناعة الفخار ودبغ الجلود وصناعة السلال من القش.

كان عمر يتحدث عنهم بشكل مشوق ملك عليه كل حواسه، وقال كم يتمنى أن يتاح له دخول هذه الأماكن ليكشف غموض هذا الشعب، واسترسل فى الحديث عنهم حتى انتقل حماسه إلىّ فقلت له مازحة: عندما تحرروا هذه المنطقة سأكون أول من يأتى لزيارتها معك.

كانت هذه أول مرة أسمع كلمة الفلاشا وبدت غريبة لى، ومر الزمن ونسيت الزيارة والفلاشا حتى سمعت فى نشرة أخبار إذاعة لندن العربية (يوم ١٤ يناير ١٩٨٥م) خبراً جاء فيه أن هناك مجموعة من اللاجئين الفلاشا وصلت إسرائيل قادمة من السودان. وفى هذه اللحظة عادت بى الذاكرة إلى رحلة إريتريا، واسترجعت كلام مرافقى عمر عن الفلاشا، وازددت شوقًا لمعرفة المزيد عن هذا الشعب الغريب الأطوار.

أصل الفلاشا

حتى بداية عام ١٩٨٥ م لم يكن وجود يهود الفلاشا معروفًا بالنسبة إلى ٩٩٪

للرأى العام حتى داخل إسرائيل نفسها. والفلاشا كلمة إثيوبية تعنى المهاجرين أو الغرباء، وهم اليهود الإثيوبيون الذين أقاموا فى منطقة جوندار المتاخمة لحدود السودان، وتختلف الروايات حول أصلهم الذى لا يمكن الجزم به بشكل ثابت. وثمة أربع نظريات فى هذا الموضوع: **النظرية الأولى:** تعود إلى أعماق التقاليد الإثيوبية زمن الملك سليمان وملكة سبأ التى تقول الأساطير الإثيوبية: إن ملكة أكسوم فى شمال إثيوبيا رحلت إلى القدس لتتعلم الحكمة لدى الملك سليمان فاعتنقت اليهودية، وعندما عادت إلى أكسوم ولدت من الملك سليمان ابنًا هو «منليك» مؤسس الأسرة الإمبراطورية الذى كان يدعى الإمبراطور هيلاسلاس أنه حفيده رقم ٣٢٥، وقد توجه «منليك» إلى القدس ليرى والده فسرق قوس العهد، وأخذ مجموعة من نبلاء حاشية الملك سليمان وعاد بهم إلى إثيوبيا.

النظرية الثانية: تقول إن الفلاشا ينحدرون من صلب هؤلاء النبلاء، ولكن حين دانت إثيوبيا بالمسيحية خلال القرن الرابع وتحولت البلاد عن اعتناق اليهودية رفض الفلاشا العهد الجديد، أى الأناجيل المسيحية، رفضًا تامًا وبقوا على عقيدتهم.

والنظرية الثالثة: تتركز على الهجرة اليهودية، تقول: إن الفلاشا يهود عبروا البحر الأحمر من جنوب شبه الجزيرة العربية متوجهين إلى الشواطئ الإثيوبية.

النظرية الرابعة الأخيرة: فترجع أصل الفلاشا إلى يهود هاجروا إلى الجنوب من مصر والسودان، أو من الممكن أن يكون النفوذ اليهودى جاء عبر أكثر من حقبة واحدة ومن أكثر من مكان.

أما من حيث التركيب العرقى فإن الفلاشا سلالة إثيوبية ملكية انتسبت إلى الملك سليمان وملكة سبأ، وعلى هذا فإن الفلاشا بصفة أساسية إثيوبيون وليسوا يهودًا عرقيًا، وثمة عناصر يهودية قوية فى ديانتهم وتتضمن ديانتهم عناصر أخرى.

وللفلاشا لغتهم الخاصة وتقاليد وعادات مختلفة فى الحياة وهوية منفصلة، وتؤكد الروايات أن الفلاشا يعيشون فى إثيوبيا منذ القرن الثانى قبل الميلاد، وأول من كتب عنهم رحالة يهودى فى القرن التاسع عشر يدعى «الدادا»، زعم أن الفلاشا قبيلة مفقودة كانت تعرف باسم قبيلة« دان »ومن هنا جاء اسمهم «الغرباء». وكتب عنهم رحالة يهودى آخر هو «بنيامين موديلا» قال إن الفلاشا جاءوا أصلاً من اليمن. ويؤكد البروفيسور «چوزيف فورتانا» أن الفلاشا ليسوا قبيلة ضائعة، وإنما هم شعوب من شمال إثيوبيا أصبحوا يهودًا فى ظروف غامضة.

وتقول مراجع يهودية إنهم تعرضوا للاضطهاد المسيحى فى القرن الرابع عشر وتمسكوا بيهوديتهم منسحبين من المناطق الساحلية إلى منطقة «جوندار»، حيث بقيت مقرّاً لهم حتى الآن.

ظل «الفلاشا» بعيدين عن الحركة اليهودية حتى بداية القرن العشرين عندما زار «فيتلوفيتش» أحد زعماء الحركة الصهيونية الحبشة؛ بهدف إخراج هؤلاء من عزلتهم تمهيداً لتهجيرهم إلى فلسطين فى إطار خطة الهجرة اليهودية، ولكنه وجدهم غير راغبين فى الهجرة ويفضلون البقاء فى مناطقهم فى الحبشة، واتضح له أنه لا فائدة من جلب هؤلاء الفلاشا الذين لا يعترفون بأرض إسرائيل.

ويقال: إنه فى عام ١٩٠٠م اقترح يهودى يدعى«رابورت» على اللورد كرومر أن ينقل اليهود الإثيوبيين إلى السودان ليتوطنوا فيه، ذاكراً أنه يرشح السودان لسعة أراضيه وخصوبتها وصغر حجم السكان، وأن انتقال اليهود الإثيوبيين إليه لا يمثل انتقالا إلى بيئة تختلف عن بيئتهم. ولكن اللورد «كرومر» لم يهتم باقتراح «رابورت» كما لم يجد حماساً من العصبة اليهودية.

وبرز الاقتراح مرة أخرى عام ١٩٠٧م فى تقرير كتبه يهودى آخر يدعى «إبراهام جالانت» إلى المنظمة اليهودية الإقليمية، إذ اقترح أن تكون أوغندا الوطن المختار للشعب اليهودى، ولكن المنظمة الصهيونية لم تكن ترضى بديلاً عن فلسطين وطناً لليهود.

وعندما تحقق حلم الصهيونية عام ١٩٤٨م بإقامة دولة إسرائيل بدأت المنظمة اليهودية تعد لمرحلة جديدة، وهى مرحلة تجميع يهود الشتات«إلى أرض الميعاد»، واستطاعت أن تنقل أعداداً كبيرة من الجاليات اليهودية فى عدد من الدول الإفريقية، وخاصة من جنوب إفريقيا وزيمبابوى وكينيا وزائير إلى إسرائيل بلغ عددهم حوالى ١٥٪ من مجموع سكان إسرائيل.

عمليات التهجير

كرست إسرائيل جزءاً كبيراً من تحركها السياسى والاقتصادى والعسكرى فى إفريقيا نحو إثيوبيا، ويعود اهتمام إسرائيل بإثيوبيا إلى عدة عوامل أهمها القرب الجغرافى، وأنها تطل على البحر الأحمر المنفذ الجنوبى لإسرائيل، بالإضافة إلى

وجود يهود الفلاشا الذين يمثلون لديهم واحدة من جماعات يهود الشتات الذين لا بد من تجميعهم.

حاولت إسرائيل في عهد الإمبراطور «هيلاسيلاس» وأثناء حكم الرئيس «عبود» في السودان (١٩٥٨ - ١٩٦٤م)، أن تنقل بعضًا من يهود الفلاشا إلى منطقة الفتقة على الحدود الإثيوبية السودانية وتوطينهم هناك. ثم انتهزت إسرائيل ظروف المجاعة والجفاف التي عاشتها إثيوبيا منذ عام ١٩٧٢م، ونشطت المنظمات اليهودية بتقديم المعونات والمساعدات للفلاشا دون سواهم من أهل إثيوبيا، وأخذت تستميل «هيلاسيلاس» لتهجير الفلاشا، ولكنه كان يماطل في الموافقة؛ إذ كان لا يتصور أن يقتطع منه جزء من شعبه..

وعندما استولى «مانجستو هيلاماريام» على السلطة وأطاح بالإمبراطور «هيلاسيلاس» عام ١٩٧٤م أغمض «مانجستو» عينيه عن هجرة الفلاشا من بلاده على أن تمده إسرائيل بالسلاح، فكانت الطائرات الإسرائيلية تصل إلى «أديس أبابا» حاملة أسلحة لتعود إلى إسرائيل وعليها أعداد قليلة من الفلاشا، وكان هذا يمثل هجرات فردية.

أما الدفعة الأولى لهجرة الفلاشا إلى إسرائيل كهجرة جماعية فكانت في عام ١٩٧٧م، كانت تضم ٦٢ فردًا، ثم توقفت من جانب الفلاشا؛ لأنهم لم يجدوا ترحيبًا من الإسرائيليين.

كانت عملية التهجير تتم ببطء وبأعداد قليلة، بينما كانت الخطة تقضي بنقل ٢٠ ألفًا من الفلاشا في زمن قصير، فاقتضى ذلك بأن تتولى أمريكا بنفسها إتمام هذه العملية، ولما كانت العلاقات بين «مانجستو» وأمريكا غير طيبة لا تسمح للولايات المتحدة أن تضغط على «مانجستو»، فاتجهت أمريكا إلى الضغط على حلفائها في المنطقة، وخاصة الدولة التي تدفق إليها اللاجئون الفارون من الحرب الأهلية ومن المجاعة التي حلت في القرن الإفريقي بسبب الجفاف، وتدفقت الهجرات الجماعية صوب السودان الذي أصبح أرضًا للاجئين والمطاريد.

هكذا بدأ التفكير يتحول إلى التفاوض مع الحكومة السودانية؛ لتسهيل عملية نقل الفلاشا عن طريقها في سرية، ورأت حكومة «نميري» التي مورس عليها ضغط

أمريكى كبير أن تستثمر هذا الموضوع فى الحصول على المزيد من الدعم المالى والعسكرى والحماية الأمنية للنظام الذى بدأ يتصدع .

استمر الجفاف فى إثيوبيا وزادت المجاعة، وارتفعت صيحات الحكومة العسكرية الإثيوبية (حكومة مانجستو) تطلب العون الدولى، ولكن لم تجد سوى الصمت رغم النداءات المتكررة من هيئة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة التى ناشدت المجتمع الدولى لمساعدة هؤلاء اللاجئين ولكن بلا مغيث .

أتاحت هذه الظروف إمكانية ترحيل يهود الفلاشا فى سرية وتكتم، كانوا يُجمعون فى معسكرات خاصة ويمنع على أحد زيارتهم أو الاتصال بهم، وحينما بات مطلوبًا أن يرحلوا بصورة كبيرة وجماعية وبشكل لا يدين الحكومة الإثيوبية ولا يثير الرأى العالمى، حينئذ فقد رُئى الكشف عن قسوة المجاعة فى إثيوبيا فأذاع التليفزيون البريطانى برنامجين صورا بشاعة الأوضاع هناك، والموت والهلاك الذى يواجه أهالى القرن الإفريقى .

تبارت أجهزة الإعلام الغربية ووسائلها المختلفة فى إبراز هذه المأساة الإنسانية، وتركز الاهتمام على إثيوبيا وحدها ، فى حين أن بعض مناطق فى السودان كانت تعانى من ظروف أبشع .

سارعت وكالات الغوث الغربية الدولية الأهلية والحكومية إلى المناطق المنكوبة فى إثيوبيا، وأقامت معسكرات لاستقبال اللاجئين الجياع ، وحينئذ أصبح من السهل تجميع يهود الفلاشا تحت شعار «غوث اللاجئين»، ثم بدأ الكشف عن عملية التهجير .

عملية موسى

إن عملية نقل الفلاشا عبر السودان تمت خلال عامى ١٩٨٢ ، و١٩٨٥م ، وعرفت باسم عملية موسى ، وتم فيها تهجير ٢٠ ألف يهودى إثيوبى، واتهم بسببها الرئيس السودانى «جعفر نميرى» بالخيانة العظمى، وأثارت استياء الرأى العام العربى، وكانت من أحد العوامل التى عجلت بسقوط نميرى؛ إذ أشيع وقتها أن نميرى ونائبه الأول عمر الطيب كانا يأخذان مقابلاً ماليًا على كل مهاجر يهودى يرحل عن طريق السودان .

كما أثارت جدلاً دوليًا كبيرًا جعلت وزير خارجية إثيوبيا يطالب من فوق منصة الجمعية العامة للأمم المتحدة بتسهيل عودة الفلاشا إلى إثيوبيا ، قائلاً : إن يهود الفلاشا ليست لهم أية صلة بإسرائيل، وأنهم يواجهون فيها إجراءات تمييز عنصرى وحياة غربية بائسة، بعد أن انتزعوا من بيئتهم الأصلية. واتهم الوزير الإثيوبى إسرائيل بأنها استغلت ظروف المجاعة التى حلت ببلاده وقامت بترحيل هذه الطائفة بالقوة.

انتقل الفلاشا عبر طريقين من السودان ومن إثيوبيا مباشرة، فى السودان جُمعوا فى معسكرات انتقالية فى «أكوبو» بالقرب من الحدود الإثيوبية، وفى سبتمبر ١٩٨٤م بدأت رحلات التهجير تحت عين السلطات السودانية وبرضائها؛ إذ كان باستطاعة السودان عرقلة العملية إذا أراد.

وتقول بعض المصادر: إن الفلاشا الآخرين وصلوا إلى إسرائيل عن طريق خط طيران مباشر من منطقة تقع شمال قراهم الأصلية بتعاون وثيق بين الحكومتين الإسرائيلية والإثيوبية، وقامت بعملية النقل طائرات بلچيكية خصصت لذلك. واشتركت فى العملية أيضًا الولايات المتحدة، فأعلن «آلان رومبرج» الناطق باسم الخارجية الأمريكية أن الولايات المتحدة ظلت تعمل بهدوء وتكتم الأمر مع عدد من المنظمات والحكومات لإتمام العملية، وقدمت مساعدات مالية كبيرة لإسرائيل إسهامًا منها فى تمويل نفقات توطين الفلاشا، ووعدت بتقديم المزيد، كما طلبت إسرائيل من يهود أمريكا أن يسهموا بدورهم فى مساعدة نفقات استيعاب هؤلاء .

كان أول من كشف النقاب عن عملية الهجرة هذه «موسى جيلباو» مدير قسم شئون العالم اليهودى بوزارة الخارجية الإسرائيلية وأحد أعضاء الهيئة الحكومية المشكلة لهذه العملية. فقد أدلى بحديث صحفى قال فيه: «إن هناك هيئات خارجية ودولاً أخرى ساعدت فى ترحيل اليهود الإثيوبيين، وأنه عندما يحين الوقت سيكون لنا شرف أن نكشف عن الأفراد والحكومات التى ساعدت فى ذلك».

سارع كلٌ من النظامين الإثيوبى والسودانى ينفى علمه بالعملية، وأخذ يكيل كل منهما الاتهام للآخر، ولا شك أن كليهما كان متورطًا فيها، فعملية تشتمل على طائرات ومطارات وحكومات أجنبية وأخصائيين اجتماعيين وصحة ووكالات

يهودية، إلى جانب عدد كبير من اليهود الأجانب الذين قاموا بتنفيذها دون أن يصل شيء منها إلى الصحافة المحلية والأجنبية، ولا يمكن أو يتصور أن تتم على الأقل دون علم حكومات المنطقة.

وإن الادّعاء بأن إثيوبيا لم تكن تعرف بها مقولة ساذجة، فلا توجد جهة لديها الجرأة على نقل الآلاف من سكان دولة إلى دولة أخرى دون موافقة الدولة صاحبة الشأن.

أما الحكومة السودانية فقد نفت تورطها في العملية وأصدرت بيانًا جاء فيه: «أنه مؤامرة صهيونية إثيوبية، وأن الحكومة الإثيوبية استخدمت اليهود كورقة للمساومة مع إسرائيل للحصول على الأسلحة والأموال»، وادّعى البيان السوداني أن بعض الأسلحة التي تم شحنها من إسرائيل إلى إثيوبيا كان الإسرائيليون قد استولوا عليها خلال غزوهم لبنان عام ١٩٨٢م، وأن المعدات العسكرية التي دفع ثمنها نقدًا لأديس أبابا التزمت بها شركة إسرائيلية تعرف باسم «أدميرال» لها مكاتب في إثيوبيا.

وكان هذا البيان السوداني ردًا على اتهامات أديس أبابا للحكومة السودانية وتدخلها في الشئون الداخلية لإثيوبيا بمساعدتها وفتح أراضيها لحركات التحرير الإريترية.

الفلاشا في إسرائيل

واجه يهود الفلاشا الذين وصلوا إلى إسرائيل منذ السبعينيات صعوبات جمة في التأقلم على الحياة في إسرائيل؛ حيث يختلف كل شيء هناك عن طريقة معيشتهم التقليدية، كما لم يعاملوا في إسرائيل على أنهم يهود حقيقيون، بل أجبروا على أخذ دروس في الديانة لتتمشى ممارساتهم الدينية مع الممارسات الدينية للطوائف اليهودية الأخرى، وطالبوا باجتياز مراسيم تتم وفق طقوس التعميد قبل أن يسمح لهم بعقد زيجات في إسرائيل، ويقول حاخامات إسرائيل: إنه لا بد من استمرار تلك الإجراءات؛ لأن يهود الفلاشا عزلوا عن الشعب اليهودي لمدة ألفي عام، ومن ثم فهناك شك في أن يكون البعض قد تزوج من غير اليهود.

وقد أثارت مشكلة الاعتراف بيهودية الفلاشا خلافات وانقسامات دينية داخل إسرائيل، بحيث استدعى الأمر تدخل رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق «بيريز» للتخفيف من تشدد الحاخامات، والتوصل إلى عقد اتفاق مع الحاخامات ؛ كى يقروا بأن اليهود الإثيوبيين يعتبرون طائفة يهودية دون الحاجة إلى إعادة تحويلهم إلى اليهودية بصورة جماعية.

وكان الفلاشا لا يُسمح لهم بالحصول على الجنسية الإسرائيلية، وبالتالى العمل والاندماج فى المجتمع الإسرائيلى، إلا بعد أن «يجدّدوا ديانتهم»، والمقصود بذلك أن تعاد طقوس التعميد فى «حمامات التعميد» اليهودية بالنسبة للنساء، وتعاد طقوس الختان للرجال تحت إشراف الحاخامات حتى بالنسبة للإثيوبيين المختنين بالفعل. وقد اعتبر «الفلاشا» هذه الإجراءات مهانة لهم، ورفض بعضهم الخضوع لها، وانتحر عدد منهم ، وهدد البعض بإشعال النار فى أنفسهم داخل الكنيست احتجاجًا على سوء المعاملة.

وبعد جدل كبير فى الكنيست الإسرائيلى حول هوية الفلاشا اعترفت إسرائيل بهم ، وسقطت آخر تحفظات الحاخامات الإسرائيليين، وطبق عليهم قانون العودة. وإن كان البعض لا يزال يشكك فى نقاء دينهم، ويعلقون ساخرين : أن يهود الفلاشا لا يعرفون ما النقود ؟ أى نوع من اليهود هذا الذى لا يعرف قيمة النقود ! !

والحقيقة أن كثيرًا من الإسرائيليين أنفسهم حتى من غير الحاخامات يشككون فى حقيقة يهودية الفلاشا، وبالتالى عدم انطباق حق العودة عليهم، وما يمكن أن يسببه ذلك فى انتفاء نظرية النقاء اليهودى عليهم التى روجت لها الدعايات منذ أمد بعيد، ولكن إسرائيل عندما غضت الطرف عن ذلك رأت أن هؤلاء الأفارقة يمكن أن يحلوا كعمالة محل الفلسطينيين، وأيضًا تجنيد العديد منهم فى جيش الدفاع. ولم تمارس إسرائيل نفس الدور والتشدد مع الجالية اليهودية فى جنوب إفريقيا؛ حيث اعتبرتها من الجاليات التمويلية كيهود الولايات المتحدة الأمريكية، ومن جماعات الضغط التى استخدمت فى فترة التفريق العنصرى فى جنوب إفريقيا، ومن أجل مزيد من التعاون بين النظامين العنصريين فى إسرائيل وجنوب إفريقيا.

إن المشكلة الحقيقية ليست فى إثبات نقاء عقيدة اليهود الإثيوبيين المهاجرين،

ولكن المشكلة أن يفقد هؤلاء هويتهم الثقافية وأسلوب حياتهم حين يُفرض عليهم أن يصهروا فى بوتقة الشعوب المختلفة التى تمثلها إسرائيل ؛ ذلك أن يهود الفلاشا كانوا يعيشون دائمًا فى عزلة منذ الزحف المسيحى ثم الإسلامى الذى ظهرت آثاره فى إثيوبيا، وهم إن كانوا يحترمون «قانون موسى» فهم يجهلون العبرية والتلمود.

دوافع عملية التهجير

والسؤال . . ما الدافع وراء هجرة الفلاشا ؟ هل هى عملية إنسانية كما تدعى إسرائيل، أم أنها تنطوى على رغبة فى زيادة عدد سكان إسرائيل فى وقت أضحت فيه الهجرة اليهودية إلى الخارج تفوق الهجرة إلى الداخل؟ وما أعمار المهجرين؟ وأين يستوطنون؟

من الصعب الادّعاء بالدوافع الإنسانية ؛ ذلك أنه من سمح له بالهجرة هم الشباب والأطفال، أما كبار السن والشيوخ فهم إما تركوا عنوة فى المعسكرات، أو قيل لذويهم إنهم ماتوا أثناء عملية الترحيل ؛ لأن كبار السن فى نظر السلطات الإسرائيلية إلى جانب كونهم غير منتجين، فهم أيضًا من الصعب أن ينصهروا فى بوتقة المجتمع الإسرائيلى، فهم يتمسكون بلغتهم وثقافتهم المتميزة ، ويميلون إلى استمرار ممارسة تقاليدهم الموروثة، أما الصغار فهم أسرع فى تلقى التعاليم الإسرائيلية ذات الأسلوب المختلف تمامًا. وقد بدأ بالفعل عدد كبير من الصغار يبتعد عن ممارسة طقوس آبائه الدينية وأصبحوا كغيرهم من أطفال إسرائيل.

إن العملية فى حقيقتها ترجع إلى الرغبة فى تنمية القوة العسكرية، فالهدف السياسى هو الأساس ؛ ذلك أن سوء الحالة الاقتصادية والتضخم وحالة الحرب الطويلة فى إسرائيل ، كل هذا يدعو إلى الهجرة منها لا إلى استيعاب أعداد جدد غير مؤهلة ولا مدربة، وقدرات الفلاشا فى إمكانية استخدامهم ضئيلة.

إن الحكومة الإسرائيلية ترى أنها تحتاج اليهود الإثيوبيين كدروع بشرية بتوطينهم فى أراضى الضفة وغزة وفى الخليل الأعلى شمال إسرائيل، وفى مناطق التماس على حدود لبنان ؛ لأن سكانها اليهود يهجرون هذه المناطق بسبب عجز الحكومة عن ضمان أمنهم، وتعمل إسرائيل على إعداد الفلاشا ليحلوا محل الإسرائيليين البيض

لتعمير هذه المناطق، كما يجرى تدريب بعضهم على أعمال المخابرات فى جهاز الموساد لممارسة أعمال التجسس والتغلغل فى إفريقيا بحكم اللون والثقافة والخبرة.

ولكن يهود الفلاشا يشعرون أن المجتمع الإسرائيلى يرفضهم، ويقولون إنهم يعيشون فى إسرائيل أخرى ليست أرض الميعاد التى تحدث عنها الآباء؛ وأن الصبية الإثيوبيين لا يفهمون الإنجليزية و ٥١٪ يدرسون فى مدارس لا تعلم الإنجليزية؛ لذلك فمن المستحيل أن يتأثروا بحركات السود فى الخارج التى تطالب بالمساواة وحق الحياة الكريمة. إنهم يتسلمون رهونات ويتسلمون منازل، ولكن هذه الرهونات ترسل بهم إلى أفقر الأحياء مثل مدينة «لود-Lod».

ويوجد الآن بينهم غضب وتزمر كثير والجرائم تزداد، والأسر الإثيوبية تفشت بينها الجريمة وأصبح لها سجل إجرامى، ولكن السلطات الإسرائيلية تتكتم على ذلك.

باختصار لقد صار وضع الفلاشا فى إسرائيل كوضع العبيد فى الماضى، مواطنون اسمًا، وفعلاً لا يحصلون على أدنى درجات المواطنة، يستغلون فقط فى الأعمال الوضيعة، وكدروع بشرية فى المناطق الخطرة مناطق التماس مع أصحاب البلاد الشرعيين.

* * *

«البرودر بوند»
أخطر منظمة سرية فى جنوب إفريقيا

بعد زوال الحكم العنصرى فى جنوب إفريقيا كشف النقاب عن أخطر منظمة سرية فى العالم، وهى منظمة «البرودر بوند» التى أنشئت منذ ٩٠ عامًا ، وظلت طوال هذه الفترة لا يُعرف عنها شيء سوى اسمها فقط، رغم نشاطها السياسى الإرهابى الخطير فى جنوب إفريقيا.

فقد أصدر سير «فونشتاين» أحد أعضاء «البرودر بوند» كتابًا صغيرًا كشف فيه جانبًا عن النشاط الداخلى لهذه المنظمة السرية التى تعتبر أقوى تنظيم عنصرى وواحدة من أقوى المنظمات الإرهابية فى العالم، وهى فى سريتها وانغلاقها تختلف عن المنظمات الماسونية وغيرها من التنظيمات شبه السرية، فهى لا تنشر أية كلمة عن نشاطها ، ولا تعلن عن عنوان مقرها الرئيسى فى المبنى القائم بميدان أوكلاند بجوهانسبرج، ولا ترد أية كلمة عن آرائها ونشاطاتها فضلاً عن وجودها نفسه .

وعلى مدى ما يقرب من التسعين عامًا التى وجدت فيها منظمة «البرودر بوند» لم تصدر بيانات علنية باسمها إلا فى خمس أو ست من المناسبات، ولم يحدث ذلك إلا تحت الضغط وكرد فعل لبيانات نشرت فى الصحف الناطقة باللغة الإنجليزية فى داخل البلاد وخارجها.

وتشكل «البرودر بوند» من الذكور فقط، بل من جزء من المستوطنين البيض الذين يطلقون على أنفسهم «الصفوة المتميزة»، الذين يشكلون جهازًا يعتبر القوة الحقيقية خلف كواليس الحياة العامة فى جنوب إفريقيا. وأثناء حكم النظام العنصرى كان نفوذها يمتد على كافة المستويات فى قمة القيادة المركزية العليا إلى أصغر الهياكل المحلية.

والانضمام إليها لا يتم بتقديم طلبات، ولكن أعضاءها يجندون بعد سلسلة من عمليات الفحص الدقيق تتم على مدى يزيد عن العام، بغير أن يعرف المرشح للعضوية أن اسمه يوزع على كافة الخلايا فى البلاد، وتكفى أدنى الاعتراضات لإسقاط ترشيحه.

وعندما يُقبل العضو يُستدعى فى خلايا الاستقبال، حيث يقرأ الإنجيل والأناشيد الدينية، ثم يُؤخذ عليه القسم على أنه لن يخون المنظمة ولن يفشى أسرارها حتى ولو استقال منها أو طُرد. وبالطبع لا يجرؤ أحد أن يستقيل فإن الثمن الذى يدفعه من يعارض المنظمة هو الطرد الكامل من مجتمع الصفوة وفقدان الدخل والوظيفة والوضع الاجتماعى. وقد ارتكبت عدداً من جرائم القتل لأعضائها؛ بسبب ما سمى بـ «خيانة أسرار المنظمة».

أسست «البرودر بوند» فى يونيو عام ١٩١٨ م فى جوهانسبرج بجنوب إفريقيا بواسطة حفنة من شباب البيض، وفى بداية الثلاثينيات لعبت المنظمة دوراً حاسمًا فى تشكيل تاريخ العنصرية فى جنوب إفريقيا؛ ذلك أن مفتاح سياسة التفرقة العنصرية وكل ما يتعلق بشأنها، يكمن فى فهم طبيعة منظمة «البرودر بوند» ودورها وفلسفتها ونشاطها وأجهزتها.

وهذا يفسر لماذا كان لا يمكن للمستوطنين البيض أن يغيروا طواعية خطهم السياسى أو يحيذوا عن سياسة التفرقة العنصرية، ولم لم ينقسم الحزب الوطنى الحاكم على نفسه، وأكثر من ذلك لماذا تبدو كل المحاولات الاستراتيجية للدول الغربية الخاصة بالحوار الهادئ مع جنوب إفريقيا أو حتى التهديد بالمقاطعة أو تنفيذ المقاطعة فعلاً غير مجدية فى إرغام حكومة البيض على إلغاء سياستها العنصرية والسير بالبلاد نحو حكم الأغلبية الإفريقية، أو نحو أية صورة من صور المشاركة فى الحكم بين البيض والسكان الأصليين للبلاد.

تضم منظمة «البرودر بوند» نحو ١٢٠ ألف عضو موزعين على نحو ثمانية آلاف خلية، وهؤلاء يعتبرون أنفسهم الصفوة التى تضم الوزراء والبرلمانيين والقادة فى الكنيسة والتعليم والثقافة والمنظمات العمالية والبوليس وأجهزة الإدارة الحكومية ووسائل الإعلام والجامعات وفى المزارع.

ومن الصواب القول إنه باستثناء حالات قليلة جداً فإن كل قيادى بارز ينتمى إلى هذه المنظمة خاصة هؤلاء الذين يشغلون المراكز الحساسة، ومن ثم فإن المنظمة كانت تربط القيادات العليا فى البرلمان مع الأعضاء غير المعروفين نسبيًا فى مجالس الكنائس واللجان المحلية بالمدن.

وتتكون كل خلية من ١٢ إلى ٢٠ عضواً يعقدون اجتماعات منتظمة فى ظروف مبالغ فى سريتها. وهناك تعليمات مشددة تلزم إطاعتها من حيث وجوب عدم إثارة الانتباه بالنسبة للمنزل الذى ينعقد فيه الاجتماع، ولا تنتظر السيارات أمام المنزل المعنى، ولا يركب ثلاثة أو أربعة فى نفس السيارة، ولا يناقش الأعضاء شئون الاجتماعات حتى مع زوجاتهم، كما أن ربة البيت غير مصرح لها بأن تدخل أثناء الاجتماعات.

وتتلقى كل خلية تعليمات منتظمة من المكتب القيادى فى جوهانسبرج، تتضمن توجيهات بالنسبة لما يجب اتخاذه فى كل مسألة من مسائل الحياة العامة كبيرة أو صغيرة.

وفضلاً عن الخلايا واللجان الإقليمية فهناك المؤتمر السنوى الذى يحضره مئات من ممثلى الخلايا والأقاليم، ويغطى جدول أعماله كافة المشاكل التى تواجه العنصريين . وإن ٢٠٪ من أعضاء المنظمة يوجدون فى مجال التعليم، وهذا يفسر كيف كانت تجرى عمليات «غسيل المخ» بين الشبان جيلاً وراء جيل، من أجل حقنهم بالأفكار العنصرية وفلسفات الاضطهاد العنصرى.

وتمارس المنظمة نشاطها فى الخارج من خلال منظمات أخرى، مثل اتحاد الجمعيات الثقافية للبيض الذى يعد واحداً من أهم منظماتها العلنية، وهو ينشط فى أكثر من ألفى جهاز ثقافى فى مختلف النشاطات فى العالم.

وعلى مدار ما يقرب من التسعين عامًا الماضية ما من مؤتمر كانت له نتائج سياسية مهمة، إلا وكانت منظمة «البرودر بوند» وراءه.

ووفقًا للوثائق السرية للبرودر بوند ولأحاديث قادتها فإن أهدافها كانت تتلخص فى **أولاً**: استبقاء البيض فى صورتهم النقية المعزولة بأى ثمن، **ثانيًا**: ضمان سيادة البيض فى حكم جنوب إفريقيا، وأن تكون «البرودر بوند» عمودها الفقرى، **ثالثًا**:

محاولة جذب المستوطنين البيض ذوى الأصول الإنجليزية، الذين ينظر إليهم على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية لتأييد النظام العنصرى المتعصب.

وتعتمد فلسفة «البرودر بوند» على مفهومين أساسيين : **أولهما** الإيمان الأعمى بأن الله يبارك سياساتها العنصرية، و**المفهوم الثانى** هو الأخوة التى تمثل العلاقة الخاصة بين الصفوة أعضاء المنظمة، وتعنى«الأخوة» فى التطبيق أن أعضاء المنظمة يتميزون بمعاملة مفضلة فى التعيين والوظائف العليا ،بل لا يشغل أى منصب مهم إلا أعضاء هذه المنظمة. وقد ظلت قيادات المنظمة هى المسيطرة والمحركة للسياسات العنصرية فى جنوب إفريقيا حتى عام ١٩٦٤م، حينما اضطرت المعارضة الرئيس السابق «فيرفورد» أن يجرى تحقيقات فيما يتعلق بالمنظمة أسفرت عن حملة تطهير واسعة داخلها وداخل الحزب الحاكم نفسه.

ومنذ ذلك التاريخ فقدت المنظمة استقلالها النسبى لتصير أحد أجهزة الحزب الحاكم العنصرى، واعتبرت الجهاز السرى الخاص به الذى يعمل فى الخفاء.

وفى عام ١٩٧٧م عندما أعلنت حكومة جنوب إفريقيا عن عزمها لاتباع سياسة أكثر مرونة بالنسبة للبيض والهنود الملونين، نشطت المنظمة للترويج لهذه السياسة، ولكن ظهر فيما بعد أن هذه السياسة كانت مجرد خديعة لكسب أصوات هؤلاء مع بقاء كل المراكز الحساسة فى أيدى أعضائها.

إن القسوة والوسائل التى كان يواجه بها كل من يتجاسر على نقد أو الاستقالة من المنظمة، تعيدان إلى الأذهان الأساليب النازية التى كان يتبعها «هتلر» مع معارَضيه فى ألمانيا.

على أن هذا الإرهاب لم يخلق شعبًا متماسكًا، بل صنع جماعة مستعبدة مثقلة بأغلال الخوف وعدم الطمأنينة. وهذه العبودية والخوف الشديد على سيادة البيض جعل «البرودر بوند» تقود أعضاءها إلى الدمار الحتمى برفضها قبول الحقائق والمصالح المشروعة للأغلبية الإفريقية، التى كُتب لها النصر فى النهاية وملكت زمام السلطة وقيام حكم وطنى إفريقى.

چورج واشنطن وعبيده

فى سن الحادية عشرة كان «چورج واشنطن»، زعيم حركة استقلال أمريكا، وحركة تحرير شعبها الأبيض من الاستعمار البريطانى، كان من ملاك العبيد، ورث أحد عشر عبداً وخمسمائة أكر من الأراضى طبقًا لوصية أبيه، وبعد إحدى عشرة سنة أخرى أى فى الثانية والعشرين من عمره كان مجموع ما يملك من العبيد يبلغ ٣٦ عبداً، ورث ١٢ منهم من عمه «لورانس واشنطن» طبقًا لوصية العم بعد أن كانت توفيت ابنته الطفلة وزوجته.

وعندما أعلن أول رئيس لأمريكا فى ١٧٨٩م لم يكن «چورچ واشنطن» فقط رجل القرن بسمعة عريضة من الشرف والتكامل، ولكنه كان أيضًا يحوز أكثر من ٣٠٠ عبد، وهؤلاء لم يحصلوا على حريتهم، إلا بعد وفاة زوجته طبقًا لوصية واشنطن نفسه.

إن هذه القصة لا يهتم بها أغلب الكتّاب خاصة فى الغرب، ولا يتعمقون فى معناها؛ لأنها تلقى بظلال سيئة على «أبو الحرية الأمريكية».

ولكن كل إنسان وخاصة الإفريقى يزور«ماونت فيرنون» لا يملك إلا أن يشعر بجو السادة والعبيد الذى يمثل حياة القرن الثامن عشر فى أراضى ماونت فيرنون، حيث كان يعيش «چورچ واشنطن» ويتعامل مع مواطنيه، وحيث يوجد مكتبه الخاص وحجرة نومه وسريره الذى مات عليه كل فى حالته كما كان فى حياته. يلاحظ الزائر أنه حتى فى الموت وبعد مئات السنوات التالية فإن «چورچ واشنطن» لا يزال هو سيد ماونت فيرنون وأن عبيده لا يزالون عبيداً، ففى أسفل تل على يمين المنزل يوجد قبر واشنطن وزوجته وأفراد أسرته الآخرين، وعلى بُعد أمتار قليلة من

حيث يرقد السيد يوجد ما يشار إليه أنه منطقة دفن العبيد، وهذا هو المكان الذى دفن فيه ٣٠٠ خادم، ولا يوجد شاهد على أى قبر ولا حتى بالنسبة لخدم واشنطن المقربين منه والحائزين على ثقته (إن عبداً واحداً فقط حصل على حريته بعد وفاته). . إن السيد هو السيد حتى لو كان ممثلاً للحرية والديموقراطية.

وهذا لا يدعو إلى الدهشة؛ لأن واشنطن لم يخطر بباله أن يتحدث عن العبيد أو عن عبيده، وكانت كلماته غامضة فى هذا الشأن، حتى عندما كتب قوائم عبيده كان وصفه لهم مثلاً: أنه قاطع جيد وشيّال ويمكن أن يقوم بأى عمل رغم شكله المعيب من طفولته، وقال عن جارية أخرى: إنها امرأة جيدة فى العمل رغم بشاعة مظهرها.

وقد تجاهل المعارضة التى كانت تنادى بالحرية للجميع، وكانت هذه المعارضة تواجه واشنطن فى حياته الخاصة والعامة، ولكنه لم يكن يعيرها أدنى اهتمام ولا يستجيب إليها. فى يوليو ١٧٩٦م فإن أحد المعادين للرق وهو «إدوار راشتون» من ليفربول فى انجلترا كتب يدين «چورچ واشنطن» وخاطبه قائلا: «إنه بالشعلة التى أشعلتها فإن كل أمة مضطهدة ستكون قادرة على استشراف وضعها. . ولكن ذلك لا يكون بالنسبة لقائد القوات الأمريكية ولا بالنسبة لرئيس الولايات المتحدة الذى أخاطبه الآن، إننى أخاطبك الآن ومشكلتى هى مع چورچ واشنطن صاحب الضياع فى ماونت فيرنون فى فرچينيا، الرجل الذى بالرغم من كراهيته للاضطهاد وشوقه المشبوب للحرية، يمتلك فى هذه اللحظة مئات من الآدميين يرسفون فى أغلال الرق. . نعم أنت الذى انتصرت تحت رايات الحرية، وأنت الوكيل الأول للشعب الحر تحوز العبيد. . يا للخجل يا للخجل. . إنه من المشين أن الرجل الذى كان من المدافعين عن حقوق أمريكا والذى قاد تحريرها من نير الاضطهاد البريطانى، يمتلك هؤلاء الزنوج الفقراء البائسين».

وبالرغم من أن «چورچ واشنطن» كان لا يهتم بالمعارضة حتى وصفه بعض المؤرخين بأنه كان ضعيف الحساسية للنقد، فقد استثاره هذا القول وغضب بشدة من راشتون إلى حد أنه مزق الخطاب. ولكن راشتون تكلم بعد ذلك عن فقدان واشنطن للشجاعة السياسية التى تجعله يتعامل مع موضوع الرقيق أو يتكلم عنهم أو

يأخذ موقفًا ضد الرق. وعلق «چون آدمز» نائب واشنطن والذى صار الرئيس الثانى للولايات المتحدة بعده قائلاً عن رئيسه السابق: لقد كانت لديه موهبة الصمت. وفى مرة من المرات القليلة جدًا التى أشار فيها إلى الرق كتب واشنطن فى عام ١٧٨٦م يقول: «إننى لن أشرع فى حيازة امتلاك عبيد مرة أخرى بالشراء، إلا إذا أجبرتنى على ذلك ظروف خاصة».

إن «دورثى دوهج» التى كتبت عن واشنطن أشارت إلى أنه لم يحدث أن تكلم علنًا، وأبدى امتعاضه لنظام الرق ولا حدث أن عبّر عن ذلك بشكل واضح، وقالت: إنه كان يتمتع بالقدرة على ألا يعتذر ولا يشرح ولا يبرر ما يقوله، وأكدت أن السبب الرئيسى لدى واشنطن لامتلاك العبيد هو الضرورة الاقتصادية، وبغير العبيد لم يكن من الممكن أن توجد حياة اقتصادية ناجحة فى ماونت فيرنون.

إن قوائم جرد العبيد التى أعدها وكتبها شخصيًا «چورچ واشنطن» تشير إلى أن عدد العبيد العاملين فى«ماونت فيرنون» فى الأوقات المختلفة كالآتى:

فى ١٧٥٩م كان يمتلك ٢٤ عبدًا.

وفى ١٧٨٦م كان يمتلك أكثر قليلاً من مائة عبد بالميراث.

وفى ١٧٩٩م كان لديه ١٦٤ عبدًا و ١٥٣ بالميراث (العبيد الموروثون كانوا ملكًا لزوجته مارتر، وكانت ورثتهم من زوجها الأول السابق دانيال بارك كاستس).

وفى فرچينيا حيث كان يقيم واشنطن كان الرقيق ملكية شخصية، وهذه المستعمرة كانت تستبقى العبيد والأرض الموروثة معًا. وكانت تعرّف العبيد أنهم ملكية حقيقية مثل الأرض، ومن ثم فإن الأرملة أو الأرمل لا يستطيع أن يبيع العبيد بإرادته، وعند وفاة الشخص فإن العبيد يئولون مع الأرض إلى ورثة المالك.

إن واشنطن لم يكن فقط يحتاج إلى العبيد ليعملوا فى مزرعته، ولكنه كان أيضًا متنبهًا إلى أن العهد الذهبى للتوسع الاقتصادى والاجتماعى فى وقته كان يعتمد على تجارة العبيد، كانت مصالحه الاقتصادية تؤدى إلى التمسك بنظام العبيد بما يعلو على مبادئه الأخلاقية.

وفى الحقيقة فإن البحث عن ظروف العبيد فى«ماونت فيرنون» يكشف عن عدم

صداقية كبيرة بين ما يقوله واشنطن وما يحدث بالفعل، على سبيل المثال فى ١٧٧٥م قَبلَ واشنطن فى تسوية دَيْن عبداً فى ميريلاند كان يقاوم لكى لا ينفصل عن عائلته، وكتب إلى مديره عن امتعاضه لسلوك هذا العبد قائلاً إنى لا أتصور أن تغيير السادة والملاك يزيد مضايقات بالنسبة للعبيد، بافتراض أن الزوج أو الزوجة أو الأبناء والأولاد لا ينفصلون بعضهم عن بعض، وفى حالة أخرى كتب إلى مدير آخر من مديريه يعبر عن رغبته فى استبدال عبيد بالأرض.

وفى ١٧٧٢م كان واشنطن عضواً فى مجلس البورجيز الذى وضع مظلمة لملك انجلترا تتعرض لاستيراد العبيد للمستعمرات من الشاطئ الإفريقى، ووصفها بأنها تجارة غير إنسانية تهدد حقيقة الدومينيوم الملكى فى أمريكا، وبعد ذلك بعامين ساهم واشنطن فى مشروع مقتضاه ألا يُستورد عبيد بعد ذلك فى المستعمرات البريطانية، وذكر فى هذه القرارات «أن أكبر رغبة لنا هى أن نرى نهاية تامة وأبدية لهذه التجارة القاسية غير الطبيعية والشريرة».

ولكن رغم كل ذلك كان السلوك العملى لواشنطن مختلفًا لما يبديه، ولا يبين أن قيمه الأخلاقية اهتمت بموضوع العبيد أو أن ذلك ضايقه، وبدلاً من ذلك فقد زاد قوة عمل العبيد فى أراضيه مع تقدم السنين.

ومما يدعو للسخرية أيضًا أن واشنطن كان يعارض بشدة تجنيد السود فى الجيش خلال الثورة الأمريكية، وتشير الوثائق التاريخية أن اعتراضه على استخدام الجنود السود هو الخوف من أن العبيد حاملى السلاح يمكن أن يستثاروا ويثيروا القلاقل فى دوائرهم الخاصة وضد أسيادهم.

وفى نهاية الحرب كتبت «دوهج» أن واشنطن قام بجهود لإعادة العبيد الهاربين من ملاكهم، وأقام محاكم للتحقيق فى دعاوى هؤلاء السادة، وفى ١٧٨٣م اعترض على خطط إنجليزية تتعلق بأخذ الإنجليز العبيد الذين كانوا يخدمونهم فى الجيش أخذهم معهم عند عودتهم، ذاكراً أن نصوص معاهدة السلام تمنع خروج العبيد. وفى ذات الوقت اتصل واشنطن بإحدى الوكالات التى كانت تقوم بإعادة البريطانيين عبر البحار، وادّعى أن بعض العبيد المملوكين له وبعض من كانوا يتولون إدارة شئونه الخاصة أيام الحرب قد هربوا، وطلب من الوكالة أن تساعده فى إعادة من تركوا ماونت فيرنون.

وخلال المؤتمر الدستورى فى فيلادلفيا ، الذى رأسه واشنطن ، كان واشنطن متنبهًا تمامًا لما قد يسببه موضوع العبودية من تعقيدات ، ولكن مناقشات المندوبين التى جرت فيه كانت أكثر اهتمامًا بمعرفة نجاح الحكومة الجديدة ، فلم يكونوا مهتمين بوضع موضوع العبودية فى جدول الأعمال حتى لا يحرجوا الجمهورية الناشئة ، وعلى ذلك فمن مناقشاتهم كتبت «دوهج» تقول إن المندوبين كانوا حريصين حرصًا شديدًا لكى لا يستخدموا حتى لفظ «العبودية» ، فاستخدموا لفظ «المهاجرين» بدلاً من لفظ «الرقيق» ، واستخدموا لفظ «الأشخاص» فى الخدمة بدلاً من لفظ «العبيد» .

إن واشنطن مثل غيره من جيل ما بعد الثورة بقى يلوم بريطانيا على تعليقها موضوع الرق فى رقبة المستوطنين ، ومن ثم فإن مشاعر معاداة الرق أتت ضعيفة جدًا عندما تناقضت مع المصالح الاقتصادية القوية للقوى الموالية والمستفيدة من الرق . وتشرح «دوهج» ذلك بقولها : إنه بالنسبة لواشنطن ، وكذلك بالنسبة لكثير من الأمريكيين حتى بعض هؤلاء الذين كان رأيهم فى الرق أكثر راديكالية بكثير منه ، فإن الموضوع كان حساسًا جدًا إلى درجة أنه لم يتعرض له أحد بما يستحق . إنه بالنسبة لواشنطن وغيره من المؤسسين الآخرين فإن مصير الجمهورية الجديدة وضع فى الميزان فى مواجهة المعارضة ضد الرق . وكان هناك شعور عام أن الجمهورية سوف تذوى إذا فقدت عمل الرقيق ، ومن ثم لم يحدث أى تعليق عام من واشنطن عن الرق .

حتى خلال رئاسته فإن موقف واشنطن من الرق لم يكن واضحًا ، وطبقًا للوثائق الموجودة فى مكتبة الكونجرس أنه فى أبريل ١٧٩١م وخوفًا من تأثير قانون صادر فى بنسلفانيا لتحرير الرقيق فإن واشنطن أعطى تعليماته لسكرتيره ؛ ليتأكد من تأثير القانون على فئات العبيد الذين خدموا فى مقر الرئاسة فى فيلادلفيا ، وفى حالة ما أيقن السكرتير أنّ أيًا من العبيد ينشد حريته طبقًا لقانون فيلادلفيا فإن واشنطن ذكر أنهم يجب أن يُرسلوا إلى «ماونت فيرنون» . وعندما هرب أحد عبيده ١٧٩٥م أصدر واشنطن أوامره بمتابعته ، ولكنه طلب ألا يظهر اسمه فى أى إعلان عن ذلك أو فى أى إجراء يُتخذ . . يالها من حرية وعدالة ! !

وإذا كان واشنطن بقيت لديه شكوك متعلقة برد الفعل فى الولايات المتحدة على

الرمز الخاص بمسألة التحرير، فإن رد الفعل العام تجاه ثورة العبيد فى المستعمرات الفرنسية «سان دومنجو» (هاييتى الآن) فى ١٧٩١ م، يمكن أن يساعد فى تأكيد تصميمه على تجنب إثارة الموضوع بأى ثمن.

كتبت «دوهج» أن فظائع ثورة العبيد فى «سان دومنجو» ضد سادتهم الفرنسيين كانت ظاهرة بشكل مباشر، رغم أنها كانت أقل فهمًا فى الولايات المتحدة، كانت تظهر فى الصحافة الأمريكية تقارير يومية عن الثورة. هذه الثورة صدمت الأمريكيين فى جانبين أنها لعبت على قناعاتهم بشأن الملكية التى تعتبر لدى الأمريكيين واحدة من أسس الحقوق الطبيعية التى قاتلوا من أجلها البريطانيين العديد من السنوات، كما أنها أثارت خوفًا مجنونًا بالنسبة للفتن فى جنوب إفريقيا.

لقد رد واشنطن كتابه إلى «جان بارتست» الوزير الفرنسى، ووعده بالمال والسلاح الذى تطلبه الحكومة الفرنسية لقمع الثورة، وقال: «إنى سعيد أن تأتى هذه الفرصة التى تكشف عن رغبة الولايات المتحدة الأكيدة لتقديم كل معاونة فى طاقتها لأصدقائها وحلفائها الفرنسيين؛ وذلك لقمع الفتنة المنذرة التى يقوم بها الزنوج فى هسبانولا».

وفى هذا الوقت كانت تعليقات واشنطن عن العبودية تعبر عن رغبته فى أن يراها قد اختفت، وهذا يثير تناقضات كثيرة. إن عدم موافقته على العبودية من الناحية الأخلاقية يقوم معها اعتبار العبودية ضرورة للنمو الاقتصادى، ولا يوجد مؤشر فى مراسلاته يثبت أنه كان يدافع عن أو يتبنى سياسة الإلغاء الفورى لها.

إن ملكيته للعبيد وفشله فى أن يتحدث علنًا ضد العبودية لايزالان أمرين من الصعب تصورهما، وإن الحجة المقبولة للعفو والنسيان لهذا الأمر هى أن واشنطن ولد وعاش فى فترة كانت العبودية فيها مقبولة، ولكن هذه الحجة لا تقوم بشكل جدى، إنها تثير سؤالاً كانت مقبولة ممن ومن أجل ماذا؟

لقد مات چورچ واشنطن الرمز الأمريكى المحبوب للحرية، وهو يعلم حتى آخر يوم فى حياته أن العبودية كانت خطأ، ولكنه لم يفعل أى شىء فى مواجهة هذا الخطأ، رغم أنه كانت لديه القوة أن يفعل ما يصححه.

التشكيك فى «الجذور» أشهر الأعمال الأدبية عن الرق

فى عـام ١٩٧٦ م أصـدر الكاتب الأمـريكى الإفـريقى «ألكس هيلى» كـتـابه «الجذور»، ونال عنه جـائزة بوليتزر العالميـة، وكـان الكتـاب يحمل عنوانًا آخر هو «الرق فى البداية»، تتبع فيه مؤلفه أسلافه من خلال ستة أجيال إلى من يدعى «كونتا كنتى» الذى سُرق من قريتـه فى جامبيـا، وهو فى سن السادسـة عـشـرة، ورُبط بالسلاسل وأخذ إلى أمريكا وفُرضت عليه العبودية.

وفى العام التالى لصدور الكتاب ١٩٧٧م حوّل التليفزيون البريطانى B.B.C الكتاب إلى مسلسل عرض باسم «الجذور»، قُدّر عدد مشاهديه فى أمريكا وحدها بنحو ١٣٠ مليون مشاهد، ثم نقلته أغلب تليفزيونات العالم، وأعاد التليفزيون المصرى إذاعته مرتين.

اعتبر «الجذور» واحداً من أهم الأعمال الأدبية ذات الدلالة، وأول عمل أدبى فى التاريخ يصف تجارة الرقيق عبر الأطلنطى، كتب عنه مؤلفه فى مقدمة كتابه: «إن ما أردت كتابته هو قصة أسرتى ولكنها نموذج للآخرين، فإن كل إفريقى فى أمريكا عليه أن يبحث عن أصله الأسود؛ ليعرف سلفه الذى ولد فى إفريقيا، ومن أى قرية جاء جده العبد الذى اختُطف من هناك وشُحن فى السفن إلى أمريكا ليعمل بالزراعة وتسحق آدميته».

كان الصبى «ألكس هيلى» يسمع من جدته قصصًا عن رجل قديم اسمه الإفريقى «كونتا كنتى» الذى اختُطف عندما كان يبحث فى الغابة المحيطة بقريته «چوفيور» عن جذع شجرة ملائم ليصنع منه طبلة، وهناك انقض عليه أربعة رجال وضربوه وأوثقوه بالحبال وحملوه إلى حيث ألقوا به فى سفينة تحمل الرقيق. عبرت السفينة

بحراً هائجًا أيامًا وأسابيع حتى ألقت به وبغيره من الصبيان والشباب المخطوفين إلى هذه الأرض الجديدة. ظلت قصة الجدة عالقة بذاكرة «ألكس هيلى» راسخة فيها، فلما شب انضم إلى الزعيم الزنجى المسلم الثائر «مالكولم إكس» وآمن بمبادئه ودعوته لتحرير الجنس الأسود، وصدم صدمة كبيرة عندما اغتيل مالكولم، اعتكف هيلى وانزوى وكرّس حياته وجهده للبحث عن جذور الجنس الأسود، فراح يبحث ويقرأ ويسافر إلى إفريقيا ويجوس خلال أدغالها، ثم يعود إلى أمريكا ليكتب القصة التى استغرقت منه اثنتى عشرة سنة.

بدأ هيلى رحلته بالبحث والتنقيب فى الوثائق القديمة فى المتحف الوطنى فى واشنطن وفى مكتبة الكونجرس، وذهب إلى لندن حيث تحتفظ الحكومة فى مكتب السجلات العامة بوثائق عن السفن البريطانية التى كانت تحمل الرقيق، حتى اهتدى إلى السفينة التى حملت ذلك الصبى الذى يقال إنه جده كونتا كنتى، ثم ذهب إلى جامبيا وقابل أهلها واستمع إلى شهادات حية من بعض كبارها ممن بقى من كبار قبيلته المسلمة التى فقدت ابنها منذ مائتى سنة.

يروى كتاب «الجذور» مولد الجد كونتا كنتى فى قرية «جوفيور» فى جامبيا إلى أن مات فى« تنيس» بأمريكا، يرويها فى مئات الصفحات تصل إلى سبعمائة صفحة، وهى جولات شائقة فى تاريخ إفريقيا، ولمحات سريعة عن العرب والإسلام، وصور بشعة عن الاستعمار الأوروبى، إلى جانب قصة طويلة مؤثرة عن العبودية فى أمريكا التى مرت عبر التاريخ بكل المآسى وكل الآلام.

ولعل من الصعب بل من الاستحالة تلخيص القصة، أو وصف الظلم الذى عاناه الرقيق المخطوفون وطريقة صيدهم من قراهم ورحلة عذابهم الرهيب فى السفن التى تحملهم إلى الأرض الجديدة، كان يموت أثناءها الكثير من سوء التغذية والتهوية وقسوة المعاملة. وبإيجاز شديد لا يغنى عن القراءة، بل لعله يحث على قراءة القصة، تبدأ «الجذور» عندما ذهب الصبى كونتا ذات يوم إلى غابة قريبة من قريته «جوفيور» ليقطع جذر شجرة لاستخدامه فى صنع طبلة، وتربص به أربعة رجال اثنان من السود واثنان من البيض، وهبطت هراوة ثقيلة فوق رأسه فأفقدته الوعى، وعندما أفاق من إغمائه وجد نفسه معصوب العينين مكممًا مكبلاً

ومعصميه مربوطين وراءه ورسغيه معقودين بحبل، وعندما حاول فك قيوده انهالت عليه السياط بوحشية إلى أن جرت الدماء على ساقيه ونخس بالعصا ليواصل السير، فأسرع في مشيته، حتى وصل إلى ضفاف نهر ،وزج به في قارب صغير سار به مدة، وألقوا به إلى أرض، وربطوه في سور ثم نزعوا العصابة عن عينيه فوجد الظلام مخيمًا وترك بقية الليل، وعند الفجر بدأ يتبين في وضوح أشكال الأسرى الآخرين من حوله من شبان وفتيات. وفي غضب جنوني حاول تحطيم قيوده فهبطت عليه عصا غليظة أفقدته الوعي مرة أخرى، وعندما أفاق اكتشف أنه قد أصبح عاريًا تمامًا ،وأنه مكبل بالأغلال في مبنى يسمى قلعة جيمس، ووجد معه عددًا كبيرًا من الفتية والفتيات رءوسهم جميعًا قد حُلقت وأجسادهم دُهنت بزيت النخيل الأحمر، ويتعالى صراخهم وهم يُحرقون بأسياخ الحديد التي ترسم على ظهورهم علامة L.L التي ترمز إلى اسم السفينة التي ستحملهم إلى الشاطئ البعيد، أرغم كونتا على الجلوس مع تقويس ظهره ورسمت عليه علامة السفينة، فجر الحديد المحمي آلامًا مروعة بين كتفيه جعلته يقفز ويندفع وسط صرخات الموجودين. حاول إلقاء نفسه في الماء إلا أنه كان مربوطًا مع الآخرين وانهالت عليه السياط، وأحس بنفسه وهو ينتزع لأعلى ويلقى به بشدة على مكان مسطح، ثم اقتيد ونزل سلالم ضيقة إلى أن وصل إلى مكان حالك الظلام، وفجأة أحس كونتا أن ذلك المكان يتحرك.

كانت السفينة تحمل ١٤٠ عبدًا من الشباب والصبية والفتيات. وبعد عدة أيام فتح العنبر ودفع بهم إلى سطح السفينة فسقطوا في حالة انهيار وتقيؤ. وبينما كان يتم ربط أقدامهم في سلسلة واحدة لم تتحمل إحدى الفتيات قسوة السياط فألقت بنفسها في مياه البحر، وشوهدت وهي تتمايل مع الأمواج، وعلى مسافة غير بعيدة ظهرت زعانف سمكتين تلاحقانها بسرعة، ثم صدرت صرخة من الفتاة تلتها رغاوي وزبد وتلاشت تاركة وراءها لونًا أحمر في المكان الذي كانت فيه.

بعد مرور أربعة أشهر و نصف منذ غادرت السفينة إفريقيا، شعر كونتا بارتطام السفينة بشيء صلب فتوقفت ساكنة، واقتيد الرجال المكبلون للخروج من السفينة ووطأت أقدامهم أرضًا غريبة، وساروا في طابور بالقرب من أناس بيض ساخرين، ووجدوا أنفسهم أمام مبنى كبير من الطوب اللبن دخلوه، ثم سيقوا إلى غرف عليها

قضبان حديدية، وقام الحراس الذين يسمون «التوبوب» بتكبيل كونتا ورفاقه بأساور حديدية متصلة بسلاسل قصيرة مربوطة فى الجدران.

نظر كونتا فيما حوله نحو زملائه الذين جاءوا معه فى السفينة الكبيرة فلاحظ أنهم جميعا لا يرون ولا يسمعون وأنهم منسحبون إلى داخل أنفسهم. وفى صباح اليوم التالى دخل اثنان من «التوبوب» ومعهم أكياس من الملابس وراحا يفكان قيود العبيد المكبلين ويوضحان لهم كيفية ارتداء الملابس، وبعد وقت قصير اقتيد كونتا وكان فى مقدمة الطابور إلى حلقة مزاد وصعد على منصة مرتفعة، وأخذ «التوبوب» ينادى بصوت جهور هذا شاب فى أوج نشاطه صغير السن رشيق الحركة، كان كونتا فى هذه الأثناء مخدراً بسبب الرعب، حتى إنه لم يلحظ جمهور المشترين وهم يقتربون منه ويفحصون أسنانه وظهره وإبطيه وصدره، ثم بدأ المزاد بثلاثمائة دولار وانتهى بثمانمائة وخمسين دولاراً (ثمنًا لم يُسمع به من قبل!) ودفع به إلى عربة، وبينما كانت تسير قفز كونتا منها مختبئًا بين أحراش الغابة، ولكن سرعان ما هجم عليه كلبان وهوت ضربة ثقيلة على رأسه غيبته عن الوعى، أفاق على ركلة فى ضلوعه وحبل يلتف على جسده وكتفيه يحز فى بشرته الدامية، وهو ممتد على ظهره وباسط ذراعيه وقدميه فى أحد الأكواخ ومقيد رسغيه ومعصميه بالسلاسل.

كان هذا المكان مزرعة مستر «چون وولد» الذى رسا عليه المزاد، وهو مزارع ثرى فى ولاية فرچينيا، غيّر اسم كونتا وأطلق عليه اسم توبى، وهناك بدأ كونتا أو توبى مرحلة جديدة من حياته فى بلاد عرف فيما بعد أن اسمها أمريكا.

صمم كونتا منذ البداية على الهرب من مزرعة «چون وولد»، حاول ثلاث مرات، وفى كل مرة كانت كلاب السيد تقتفى أثره وتنهشه، وسرعان ما تلاحقه كرابيج حراس السيد ويقبضون عليه ويعيدونه إلى سيده، بعد أن يتشقق جلده من السياط. وفى المرة الأخيرة جاء رجلان من البيض وأوثقاه فى جزع شجرة وهوى أحدهم بفأس حاد السلاح على قدمه اليمنى فبتر نصفها الأمامى؛ كى لا يستطيع الجرى أو الهروب.

رأى سيده أن كونتا لم يعد يصلح للعمل فى مزرعته فباعه لأخيه الدكتور «وليم وولد»

ليعمل فى منزله أو عيادته، وهناك وجد كونتا الخادمة «بيل» التى أخذت تغسل له قدمه المبتورة وتضع اللفائف عليها وتدربه على المشى على عكازين. . وتمضى الحياة بكونتا عاجزاً، ويتزوج من «بيل» وتلد له ابنته الوحيدة «كيزى» التى تنتزع منه وتباع إلى أحد تجار الرقيق، ولم يرها «كونتا كنتى» منذ ذلك اليوم. يشترى «كيزى» مزارع فى ولاية بعيدة ويغتصبها وتنجب ولداً، الذى ينجب عدداً من الأولاد والبنات تكون إحداهن الجدة التى كان «ألكس هيلى» يجلس على حجرها وهى تحكى له قصة جدها الإفريقى الذى اسمه «كونتا كنتى».

* * *

عندما صدر كتاب «الجذور» احتفى به احتفاءً كبيراً، واعتبر أكثر الكتب التى نالت رواجًا، وصنف المسلسل على أنه واحد من أشهر وأهم المسلسلات العالمية. ولكن بعد وفاة مؤلفه «هيلى» بدأ النقاد البيض يشككون فى صدق القصة، وكان أكثرهم عنفًا وقسوة الصحفى الشهير «فيليب نوبل» الذى وصف «الجذور» بأنها أكثر أعمال الخداع الأدبى نجاحًا فى العصر الحديث، واتهم «هيلى» بأنه اخترع ٢٠٠ سنة لتاريخ أسرته، وأن «هيلى» مخادع فهو عندما قرر أن يبحث عن جذوره لم يكن لديه فكرة إطلاقًا عن أى جزء من إفريقيا الغربية كان يسكن فيه أسلافه، وأنه اختار بإرادته چامبيا لتكون موطن أجداده قبل أن يخوض رحلة البحث عن أصوله العائلية، وهى مرحلة استمرت ١٢ سنة، وأن «هيلى» اعترف قبل وفاته بالأزمة القلبية عام ١٩٩٢م بأنه اختلق بعض الحكايات ليحبك قصته، وأنه فى عام ١٩٧٨م دفع مبلغ ٦٥٠ ألف دولار لإجراء تسوية خارج المحكمة مع المؤلف «هارولد كورلاندر» الذى ادّعى أن هيلى استولى على ٨٠ صفحة من روايته التى نشرها عام ١٩٦٧م بعنوان «الإفريقى».

كذلك شكك عالما السلالات «جيرى» و«إليزابيث فيلز» فى جذور «هيلى» ووصفاه بأنه هاو فى علم السلالات، وهاجماه على اعتماده على التاريخ الشفهى الذى انتقل إليه عبر أسرته وعبر المؤرخين الشفهيين ممن قابلهم فى چامبيا، وعلى سبيل المثال فقد وجدا فى دراسة الأرشيفات أن توبى الاسم العبودى الذى أطلق على كونتا كنتى قد توفى قبل ثمانى سنوات من مولد ابنته كيزى عام ١٧٩٠م.

ويبدو أن هيلى كان يتوقع هذا النقد، فذكر فى الفصل الأخير من كتابه «فى حدود معلوماتى فإن كل علاقة داخل الجذور هى من أسرتى الإفريقية أو الأمريكية ومما حفظوه من تاريخ شفهى، وهو ما استطعت أن أوفق بينه وبين الوثائق».

ولكن لماذا كل هذه الانتقادات والتشكيك فى قصة الجذور؟ يبدو أن الهدف الخفى هو محاولة التخفيف من أثر العبودية على الإفريقيين، فلأول مرة فى التاريخ الحديث يصور عمل أدبى بهذا الحجم والنجاح والصدق بشاعة تجارة الرق عبر الأطلنطى. وقد أشار إلى ذلك القائمون على جائزة بوليتزر عندما منحوا «ألكس هيلى» الجائزة، فجاء فى تقييمهم للعمل «أن قصة الجذور من أهم الأعمال الأدبية ذات الدلالة التى كشفت عن الدور المدمر لتجارة الرق عبر الأطلنطى، وهى واحدة من أكبر الجرائم ضد البشرية».

وفى خضم هذا الجدل حول الجذور ارتفع صوت شريف يدحض الادعاءات التى أثيرت حولها، جاء الصوت من الكاتب الأمريكى الأسود «باسكو ساويرس» الذى سافر إلى چامبيا ضمن وفد من الوفود السياحية التى تذهب تباعًا إلى چامبيا؛ لتشاهد على الطبيعة أرض الأسلاف، فمنذ نشرت قصة الجذور أصبحت چامبيا مزارًا سياحيًا تجذب أعدادًا غفيرة من زنوج أمريكا وغيرهم من كافة أنحاء العالم الذين يأتون إليها؛ ليشاهدوا وطن كونتا كنتى الجد السادس للمؤلف «ألكس هيلى».

تجول الكاتب «باسكو ساويرس» فى چامبيا وسجل انطباعاته كشاهد عيان لما أحدثته القصة على زنوج أمريكا، وعلى أهل چامبيا أنفسهم.

كتب يقول: قبل الجذور كنت أنظر إلى الإفريقيين باعتبارهم مخلوقات أقل، وعندما عرفت أنى واحد منهم، وعرفت كيف صرت مولودًا هنا فى أمريكا وليس فى إفريقيا كان ذلك من أكثر الخبرات ألمًا فى حياتى، هل حدث هذا فعلاً، ولماذا لم يحك أبوانا عنه، وهل يعرف ذلك أصدقائى البيض؟

إن «الجذور» كان لها أثر شديد علىّ وعلى زملائى البيض فى المدرسة، كانوا يشعرون بالإهانة وبالحيرة عندما يرون لأول مرة ما فعله أسلافهم ضدنا. إن

الكتاب أنجز مهمته ووضع حدوداً ومفاهيم جديدة بين السود والبيض، وجعل كل أسود عليه أن يسعى لمعرفة جذور أجداده.

إن چامبيا واحدة من أصغر دول إفريقيا ، وهى تتكون من شريط ضيق من الأرض وسط ساحل غرب إفريقيا، وسكانها لا يزيدون كثيراً عن مليون نسمة، وتتكون من ثمانية أقاليم يسكنها جماعات عرقية متجانسة، وهى مثل أغلب أجزاء القارة الإفريقية سكانها فقراء والبنية الأساسية فيها متخلفة، ولكن لديها صناعة سياحية متطورة وسمعة لا تنكر فى هذا المجال.

كنا ونحن نتجه إلى چامبيا يملأ خيالنا قصة كونتا كنتى وكيزى وشكن چورچ أبطال القصة، لم نر أنفسنا كسائحين يذهبون عبر الجو أو عبر البحر من السواحل البيضاء، بل كنا نشعر بأننا مثل الأولاد والبنات اليتامى الذين يعودون إلى أرضهم الأم التى افتقدوها، يحدو بعضنا الأمل أن يجد بعض الحقائق التى تتعلق بروابطه الإفريقية.

ولكن لسوء الحظ لم يكن لدينا أى نوع من المعرفة الأساسية التى شجعت «ألكس هيلى» ليعود إلى شجرة عائلته، كانت تقوده قصص سمعها وهو صبى عندما كان يمضى أمسيات الصيف فى منزل عائلته فى أعماق الجنوب الأمريكى يستمع إلى جدته وعماته المسنات يتحدثن عن تراثهن الأسرى، كن يتكلمن عن الجد العجوز كونتا كنتى ومحاولاته العديدة الفاشلة للهرب حتى قطع سيده قدمه ليوقف محاولاته للهرب، ولكن داوم على القتال من أجل الحرية الروحية والذهنية، وسعى لنقل لغته الأصلية وثقافته لطفلته كيزى، ونقلت كيزى هذه المعلومات لطفلها شكن چورچ الجد الأول لكونتا.

يقول «باسكو ساويرس»: إن هيلى وجد فى أحاديث المسنات من عائلته إشارات كثيرة قادته إلى الاتجاه الصحيح عندما قرر أن يبحث عن جذوره، حقيقة أنه لم يكن لديه فكرة عن أى أجزاء من غرب إفريقيا كان يسكن فيه أسلافه، ولكنه قدر إذا كانت لديه فرصة الاختيار فتكون چامبيا أكثر المناطق التى كان يتجمع فيها العبيد المخطوفون.

ويكمل وصف رحلته قائلاً: كانت أكثر المشاهد فى جولتنا إثارة فى چامبيا

جزيرة جيمس، المكان الذى فقد فيه كونتا كنتى رباطه مع الأرض الإفريقية، وهذه الجزيرة لها دلالة رمزية خطيرة، إنها قريبة من نهر چامبيا ويمكن الوصول إليها بزورق صغير، وكانت مركزاً لتجار الرقيق الذين أحكموا قبضتهم عليها، فلم يكن يستطيع أن يهرب منها أى مخطوف ليعود إلى أرضه إلا القوى القادر على السباحة الشاقة.

أما قلعة الجزيرة التى كان تجار الرقيق يحبسون فيها المخطوفين الأكثر تمرداً، كان الوصول إليها عبر مكان ضيق جداً، وهى من الداخل لا تزيد عن أربعة أقدام مربعة، ورغم سخونة الشمس شعرت بالبرد فيها، ويكمل قائلا: ثم ركبنا الزورق عائدين عبر النهر إلى جوفيور وهى القرية الصغيرة التى أخذ منها كونتا كنتى، وبسبب أننا كنا ضيوف الحكومة فقد تجمع الناس حولنا للترحيب بنا. وذكرنى ذلك بوصف هيلى لزيارته الأولى للقرية بأنه قابل أصحاب أسود بشرة رآها فى حياته، وقد التفوا حوله يرددون بصوت منغم ما اعتبره اسمه القديم مستر كونتا كنتى. هذا المشهد أسال الدمع من عينى هيلى، ولكن بعد عشرين عاماً فإن الترحيب الشعبى أشعرنا بعدم الارتياح لنا، لقد ذهب هيلى يبحث عن جذوره وعن هويته الإفريقية، ولكنه بذهابه هذا ترك ما غيّر شعب هذه القرية.

كان أكثر شىء يجذب انتباه الزائر فى قرية جوفيور هو مقابلة «بنتا كنتى» وهى امرأة فى الثمانين من عمرها تعد أعجز من يعيشون من سلالة كونتا كنتى، جلست صامتة متدثرة بشال يصدر منها أحيانا إشارات خفيفة، ويظهر على وجهها أحيانا علامات عدم الارتياح. ومثل كثيرين فى چامبيا فإن «بنتا كنتى» تعيش على السياحة، وكانت تبدو سعيدة حين يُلتقط لها الصور مع أفراد مجموعتنا دون أن تبادل أيّا منا كلمة واحدة. وقد أرجع البعض ذلك إلى أنها لا تعرف الإنجليزية، ولكنى لم أقتنع بهذا السبب، فلعله لم يكن مريحاً لهذه السيدة المحترمة الكبيرة السن أن تتحول إلى مجرد شىء سياحى توزع ابتساماتها وتحياتها على السياح.

إن هيلى فى حكايته «جذور» صوّر إفريقيا فى صورة مثالية: الخضرة الممتدة والأشجار الفارهة والتنظيم الاجتماعى المحكم والناس يعيشون فى تناغم، مسترشدين بالتقاليد والقيم والقوانين القبلية. لقد ركزت أوصاف هيلى على أن الشعب الإفريقى له ماض مجيد عظيم قبل أن يستعبدهم الأوروبيون، إن على آلاف الإفريقيين فى المهاجر أن ينظروا إلى قارتهم، باعتبارها الوطن الأم، وأن يؤكدوا على هويتهم الإفريقية.

ويختم الكاتب مقاله بهذا الاستنتاج أن النقاد البيض اليوم عندما يهاجمون «ألكس هيلى» ويصورونه بأنه مخادع ، فإنهم يحاولون أن يطمسوا حقيقة التأثير المدمر الذى أحدثه الرق على الجنس الإفريقى ؛ لأن معظم الشعب الأسود ينظر إلى «الجذور» بما تضمنته ليس فقط أنها تسجيل موثق لتاريخ أسرة هيلى، وإنما فى الأساس كشفت عبر السياق التاريخى واحدة من أخطر الجرائم التى ارتكبت ضد الإنسانية.

إنها قصة كيف سُرقنا من بيوتنا وجيء بنا إلى الغرب ، وأنسونا أسماءنا ولغتنا وثقافتنا، إن الجذور هى شهادة لا يمكن تحديها، إنها ترمز وتشير إلى هذه الحقيقة المرة.

* * *

وسواء كانت قصة الجذور من تأليف «ألكس هيلى» أو أنه اقتبسها من «هارولد كورلاندر»، أو أن كونتا كنتى هو الجد السادس للمؤلف أمْ لا ، فإن هذه الانتقادات والتشكيك فى العمل لا يمحى أو يقلل من حقيقة أن الشباب الإفريقى كان يُصطاد بطرق متعددة، من شن الغارات والحروب وجمع الإتاوات والاختطاف والشراء والتخلص من المجرمين، سواء كانوا مجرمين حقيقيين أو مُدّعى عليهم. وعندما كان يُجمع عدد كاف من الرقيق كانوا يساقون إلى المستودعات الساحلية، ثم يباعون للتجار البيض الذين يحتفظون بهم إلى حين شحنهم إلى أوروبا وأمريكا.

وهذه القوة البشرية الكبيرة التى اقترنت هجرتها بالإكراه والقهر هى التى عمرت الأرض الوفيرة فى الأمريكتين وجزر الهند الغربية، وقامت بعبء تنمية مواردها وجعلتها أغنى مناطق العالم وأقواها ، دون أن يكسب الرقيق أية حقوق.

أما بالنسبة لإفريقيا فكانت تجارة الرق كارثة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ؛ إذ فقدت القارة شريحة كبيرة من قوتها وثروتها البشرية، وأحدثت حملات اقتناص الرقيق دماراً واسع النطاق، وزادت من عدد الحروب والتمزق والاضطراب فى مجتمعاتها، وأفقدت الحياة أمنها، وكانت الخسائر المباشرة والأشد قسوة هى المعاناة الشخصية التى كابدها الملايين من أبناء إفريقيا الغربية أمثال كونتا كنتى.

عبيد القرن الواحد والعشرين

مع بداية الألفية الثالثة، قرأنا فى الصحف اليومية ثلاثة مشاهد إفريقية منفصلة هزت الضمير الإنسانى:

المشهد الأول: قصة غريبة جرت أحداثها فى سواحل غرب إفريقيا، سفينة تضم مئات الأطفال الأفارقة بيعوا كرقيق؛ بسبب فقر أسرهم أو حاجة ذويهم إلى المال، وكان المفروض أن تنقل السفينة هؤلاء البؤساء من بنين إلى الجابون ليعملوا فى مزارعها. حاولت السفينة أن ترسو فى مرفق«دوالا» فى الكاميرون، ولكن السلطات المختصة رفضت السماح لها بالرسو بعدما كانت سلطات بنين أخطرت العالم أنها تشك فى أن السفينة التى انطلقت من مينائها تنقل ١٨٠ طفلاً تشتبه فى أن عائلاتهم الفقيرة باعتهم.

وتحرك الرأى العام العالمى وانتظر السفينة فى مرفق«كوتونو» ممثلون عن اليونيسيف ومنظمة أرض البشر والصليب الأحمر، وكانت المفاجأة أن لم يجدوا فى السفينة غير سبعة أطفال فقط نقلتهم الشرطة إلى ملجأ.

وكان السؤال: أين ذهب بقية الأطفال؟، هل ألقى بهم القبطان فى البحر بعد أن انفضح أمره، فهذا أسرع طريق لإخفاء جريمته؟. وهذا ليس جديداً على إفريقيا، فقد كان يحدث قديماً أيام كانت إفريقيا تمد أوروبا والأمريكتين بالعبيد ليعملوا دون أجر بوصفهم عبيداً تم شراؤهم. وكان لهذا الاستنزاف البشرى أكبر الأثر فى تقويض اقتصاد القارة الإفريقية فيما بعد.

المشهد الثانى: بضغوط مكثفة من جهات كنسية وخيرية ذات أجندة خفية

وأصحاب ديانات غريبة تبحث عن دماء جديدة، وبتسهيلات من شبكة المتاجرين باللاجئين والمرتشين من بين العاملين فى أجهزة الدولة وهيئات الإغاثة الدولية، فتحت الولايات المتحدة بصورة غير مسبوقة أبوابها دفعة واحدة لنحو ٤٢٠٠ صبى من جنوب السودان من أيتام الحرب الأهلية الذين فقدوا ذويهم وتمكنوا من الهرب والنجاة فى ملحمة مهولة، تفنن كتّاب الغرب فى وصفها من غضب الطبيعة والأنهار الهائجة والتماسيح والحيوانات المفترسة والأمراض الفتاكة. . إلخ، تجمع هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم «الجيل الضائع» أو «الأولاد الضائعين» فى كينيا، ومنذ وصول هذا الحشد من الأيتام اختفوا فى معسكر كوكاما للاجئين الواقع فى شمال كينيا بالقرب من الحدود السودانية. ولم تسعَ أية هيئة كينية أو سودانية أو عالمية للبحث عن ذويهم أو معرفة القرى التى هربوا منها، وتكتمت عليهم هيئات الإغاثة والهجرة وظلت تعدهم فى سرية تامة لتوصيلهم إلى الولايات المتحدة. لم يكن ثمة فرق جوهرى بينهم وبين المجموعات التى اختطفت من قرى غرب إفريقيا وعبرت المحيط الأطلسى فى عصور سالفة الذكر، أولئك اختيروا للعمل رقيقًا فى المصانع وحقول الأمريكيين، وهؤلاء اختيروا من بين الضائعين الذين انقطعت جذورهم الأسرية ولم يعد لهم انتماء وجدانى بأهل أو بوطن، والله أعلم بمصيرهم هل سيعملون عبيدًا كأجدادهم، أو سيكونون قطع غيار بشرية.

والحكومة السودانية دائمًا ما تُدان بأن حربها فى الجنوب هى السبب فى تشريد أمثال هؤلاء، ولا يشار إلى ما تفعله قوات التمرد وقوات جارنج التى تسيطر على قرى الجنوب، وهى التى جندت الأطفال فى جيشها واستخدمتهم كمحاربين ودروع بشرية، ذلك بشهادة المنظمات الدولية للإغاثة.

المشهد الثالث: امرأة شابة تُعرض للبيع فى موريتانيا، ويؤدى ذلك إلى مظاهرات فى الشوارع نظمها الهور (حركة تحرير العبيد التى أنشأها العبيد السابقون)، وانتشرت الاضطرابات فى المدن الرئيسية وعمت المظاهرات البلاد. يحدث هذا رغم أن العبودية ألغيت رسميًا فى موريتانيا ثلاث مرات، وكان عام ١٩٨٠م عام الإلغاء الثالث، وجدّت الحكومة فى تخليص البلاد من العبودية ومحو آثارها، ولكن البلد الذى عانى من الجفاف لأكثر من أربعة عقود، وتدمر بسببه نظام اقتصادى واجتماعى يمكن أن يستباح فيه أى شىء. وقد تناقلت وكالات الأنباء

الغربية هذه القصة المحزنة من قبيل التشهير بإفريقيا والإفريقيين، بدلاً من أن تحث العالم المتحضر على تقديم المساعدة الإيجابية لهذا البلد الذى يحتاج إلى العون الذى يعتقه من مشاكله أكثر من استحقاقه للنقد اللاذع.

هذه المشاهد الثلاثة تؤكد الوصف المقيت الذى توصم به قارة إفريقيا بأنها مزرعة العبودية. ومزرعة العبودية حددتها الأمم المتحدة عام ١٩٥٦م فى مؤتمر مقاومة العبودية بأنها ملكية شخص لآخر، وهى فى جوهرها معاملة الآدمى بوصفه سلعة حية وباعتباره شيئًا يُباع ويُشترى.

وجمعية مقاومة العبودية ومقرها لندن هى أقدم جمعية دولية فى العالم لحقوق الإنسان، أنشئت عام ١٨٤٠م - وهى تعد تقريراً سنويّاً للمجلس الاقتصادى والاجتماعى، وهو تقرير يلحق بلجنة حقوق الإنسان - وهى تعتبر أن استغلال عمل الأطفال هو صورة حديثة للعمل العبودى، فالأطفال يعملون طول النهار وكل يوم من أجل قروش زهيدة، وهم لا يتعلمون، وليس لديهم إمكانية عمل رخيص غير ماهر، ويقدر هؤلاء بنحو ٢٠٠ مليون أغلبهم من إفريقيا.

وعمل الأطفال ينمو فى الدول النامية التى تخضع لقيود البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، وترتبط باقتصاديات التصدير ويزداد فيها تعداد السكان بما يجاوز إمكانيات التنمية، ومن ثم يكون الفقر هو العنصر الذى لا مهرب منه وهو السبب والنتيجة لاستغلال عمل الأطفال.

وإذا كان عمل الأطفال يصنف على أنه شكل من أشكال العبودية، ألا تعد ديون العالم الثالث للدول الدائنة شكلاً آخر للعبودية المعاصرة، ولكن لا أحد يشير إليه.

* * *

خاتمة الطواف

اكتشاف يضيء تاريخ إفريقيا

«ثولا ميلا»
اكتشاف يضىء تاريخ إفريقيا

«ثولا ميلا» اكتشاف أثرى جديد مثير فى الجنوب الإفريقى، جاء من وراء التاريخ ليخاطب الحاضر، ويدحض الفكرة العنصرية بأن إفريقيا قبل استعمارها كانت قبائل بدائية متخلفة بلا حضارة ولا تاريخ، مجرد جماعات همجية تتنقل من مكان إلى آخر سعيًا وراء العشب والمرعى.

جاء هذا الاكتشاف الأسطورى ليثبت أن المنطقة التى تقع بين حدود موزمبيق وزيمبابوى وشمال جنوب إفريقيا نشأت فيها حضارة قديمة على قدر كبير من التقدم، تدل شواهدها التى اكتشفت مؤخراً أن أهلها كانوا بارعين فى صناعة الذهب والمعادن والملابس، ولديهم علاقات تجارية واسعة وصلت إلى الصين، باختصار أنه منذ القرون المبكرة قامت دولة على قدر كبير من التعقيد والتركيب فى الجنوب الإفريقى.

وهذا الاكتشاف يضىء تاريخ المنطقة، ويصحح كثيراً من المفاهيم الخاطئة عن ماضى إفريقيا المجهول، ولأن الحدود السياسية والفواصل بين القبائل والشعوب لم توضع وترسم إلا بعد الغزو الاستعمارى للقارة فى القرن التاسع عشر، فإن تأثير وشواهد حضارة «ثولا ميلا» نجده منتشراً بين هذه الدول الثلاث.

اكتشف «ثولا ميلا» عالم الآثار «سيدنى مولار» بالاشتراك مع المجلس الوطنى لحقول الذهب فى جنوب إفريقيا (وهو أقدم مؤسسات المناجم هناك)، أثناء التنقيب فى هذه المنطقة التى ظلت غير مطروقة حتى عام ١٩٤٤م.

وأثبت التحليل العلمي لآثارها ، وبقايا الحفريات التي وجدت على قمم التلال أنه قامت هناك أسر ملكية قوية حكمت هذه المنطقة بين عامي ١٢٠٠ ، و١٦٠٠ بعد الميلاد، وأمدت الأعمال الفنية و الحرفية التي وجدت فيها بتصور عن الحضارات الإفريقية في هذا الجزء من القارة بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر الميلاديين، وأنها كانت أيام مجدها موطنًا لأمهر الحرفيين الذين حازوا قدرات فنية وتكنولوچية عالية، خاصة في صهر الذهب والنحاس والحديد والبرونز وفي صناعة المجوهرات وأدوات الزينة البالغة الدقة والرقة ، كما كانوا ينسجون الملابس وينتجون أوعية من الخزف بالغة الجمال.

وفي عام ١٩٩٦ م اكتشفت بعض آثار حضارة «ثولا ميلا» أهمها اكتشاف قبر يظن أنه خاص بأحد الملوك، كان جسده مسجى في وضع يتجه إلى الشمال، كما وجدت بعض الحاجيات تحيط به، ومن بينها نوع من الطبول الحديدية لا توجد مثلها إلا في منطقة الشاطئ الغربي لإفريقيا، وثمة دلائل تشير إلى أن هذا الملك دفن تحت أسوار منزله، وأنه بعد وقت قصير لوفاته انتهت دولة «ثولا ميلا»، وقد أطلق على هذا الرجل اسم الملك النمر ؛ لأنه وجد في المقبرة رسومات لنمور.

أما الأثر الثاني الذي وجد في المقبرة فكان رسمًا كاملاً لامرأة تضم يديها تحت خدها الأيسر بإيماءة من الاحترام ، وتتجه نحو الشمال في مواجهة حجرة الملك، وهي تتحلى بمصاغ ذهبية، وتشير البحوث إلى أن هذا الرسم كان لأميرة توفيت حوالي عام ١٥٥٠م، وكانت تبلغ من الطول نحو ١٧٣ سم وفي سن ما بين ٤٥ ـ ٦٠ سنة.

لم يترك شعب «ثولا ميلا» إلا القليل، لذلك فالمعلومات المتاحة عنه تعتمد أساسًا على الحفريات ، والتقاليد الباقية، وتقديرات البرتغاليين الذين كانت سفنهم البحرية تجوب سواحل جنوب إفريقيا عندما كانت حضارة «ثولا ميلا» قائمة.

ولكن ما يجعل حضارة «ثولا ميلا» متميزة وفريدة أنها بقيت بكرًا لم تمس، فالقبور الملكية التي توالى اكتشافها وجدت على وضعها لم تستلب، ومن ثم ظلت محتفظة بآثار قيمة للنخبة التي كانت تحكم وتسيطر على هذه المنطقة في سهل لمبوبو. وبتتبع طرق التجارة القديمة يظهر أن «ثولا ميلا» كانت نقطة التقاء بين

الشمال والجنوب والشرق والغرب فى الجنوب الإفريقى، ومن ثم كانت مركز التجارة الرئيسى وقتها.

* * *

مراحل الحضارة الإنسانية

تشير الحفريات التى وجدت بمستوياتها المختلفة أن هناك ثلاث مراحل من الحضارة الإنسانية قامت فى «ثولا ميلا»: **الفترة المبكرة الأولى** تقع حوالى عام ١٢٠٠ م ولم يكن الناس وقتها يقيمون أبنية ولا يمارسون التجارة، **والفترة الثانية** أو **الوسيطة** تقع ما بين عامى ١٤٠٠، و١٥٠٠ م وهنا تظهر بداية بناء الشرفات من الحجارة، كما توجد دلائل على قيام تجارة مع الهند عبر المحيط الهندى، **والفترة الثالثة والأخيرة** فيما بين ١٥٠٠م- ١٦٠٠ م وهى التى وجدت فيها صناعة الذهب والمجوهرات التى تتميز بجمال غير عادى، فكان صهر الذهب من الصناعات المبدعة فى المنطقة.

كما وجدت صناعات حرفية أخرى كأدوات من المعادن والصفائح والأسلاك الرقيقة وأوان وأحجار من السيراميك وإبر بطول ٨ سم (وهذا يؤكد أن أهالى ثولا ميلا كانوا يصنعون الخيوط). ويشير أيضًا إلى وجود قاعدة صناعية متطورة كانت تعتمد على التجارة الخارجية وعلى العلاقات الديبلوماسية؛ إذ كانت تأتيهم من غرب إفريقيا صناعات من الحديد المصهور والأدوات والشفرات والأجراس الملكية، ومن الصين قطع البورسلين، ومن الهند الخرز الزجاجى.

ويمكن القول إن «ثولا ميلا» كانت مركزًا تجاريًا، كما كانت مقرًا للحكم ومقرًا للملكية فى المنطقة، وهناك وثائق برتغالية ترجع إلى القرن السادس عشر توضح أن عشرات من الزوارق العربية كانت تحمل الذهب والعاج كل شهر من المنطقة المعروفة الآن باسم «مابوتو» (على الحدود بين زيمبابوى وجنوب إفريقيا)، وهذا يعطى فكرة عن حجم التجارة الخارجية التى كان يسيطر عليها ملوك «ثولا ميلا» والمراكز الحضارية الأخرى فى زيمبابوى.

لم يعرف عدد سكان «ثولا ميلا» فى ذروة عظمتها أو قبل ذلك، ولكن ما بين عامى ١٦٥٠م، و١٧٥٠م تشتتوا وتركوها، ويحتمل أن يكون هذا جزءًا من النظام العقيدى المتعلق بوفاة الحاكم، أو يكون نتيجة للكوارث الطبيعية أو الحروب؛ لذلك

يندر وجود قبور بشرية أو هياكل عظمية من بقايا هذه الفترة، وإن بقيت آثارها تتطابق فى الكثير مع الأوضاع الثقافية فى زيمبابوى.

كما تشير وثائق برتغالية إلى أنه فى عام ١٦٩٠م تحركت جماعة من زيمبابوى تعرف باسم «سنجو» نحو الجنوب وغزت «ثولا ميلا» واستخدمت العنف ضد أهلها، وقضت على مراكزها الحضارية، ولا يعرف ما الذى حدث لآخر ملوكها فقد انقطع ذكرها بعد ذلك تمامًا.

يذكر المؤرخ «قطب الدين النهروالى» ١٥٨٢م فى مؤلفه «البرق اليمانى فى الفتح العثمانى»: «أن البرتغاليين وهم طائفة من الفرنجة الملعونة وصلوا المحيط الهندى فى القرن العاشر الهجرى، وهددوا بحرق المدن الساحلية الإفريقية ما لم تدفع فدية كبيرة وتقدم الولاء للشبونة، وكان هذا أفظع الحوادث الرهيبة».

والحقيقة أن وصول البرتغاليين إلى الساحل الشرقى لإفريقيا كان بداية انهيار الحضارات الإفريقية والقضاء عليها وطمس معالمها، ولا يمكن تقدير الخسائر التى حلت بهذه الآثار، فقد خرّب هؤلاء المغامرون أشطاراً من تاريخ إفريقيا وطمسوها إلى الأبد.

وقد ألقت الكتابات عن رحلة «فاسكو داجاما» لكشف رأس الرجاء الصالح، بصيصًا من الضوء على هذه الحضارات القديمة، التى كانت قائمة ومزدهرة قبل أن تدمرها جحافل المستعمرين، وتذكر هذه الكتابات أن عدداً من المغامرين البرتغاليين من أمثال «بارتولو ميودياز» ١٤٨٨ م سبقوا «داجاما» إلى هذه المنطقة، ولكن داجاما بأسطوله هو الذى توغل فى الداخل ووصل إلى نهر كويليمان فى موزمبيق عام ١٤٩٧م. وتشير وثائق الرحلة إلى أن هذه المنطقة كانت تدخل فى النفوذ العربى، ففى تلك الأيام كان العرب سادة المحيط الهندى بلا منازع، ويمارسون التجارة بحرية فى المنطقة؛ لذلك تظاهر «فاسكو داجاما» أمام السكان المحليين الذين لم تكن لهم معرفة بالأوروبيين بأنه هو ورجاله مسلمون. وهكذا استقبل السلطان المحلى البرتغاليين فى بادئ الأمر بلطف وترحاب، وعندما حاول البرتغاليون الوقوف على معلومات عن داخل إفريقيا؛ إذ كانوا يبحثون بصفة خاصة عن مملكة «بيترجون» التى تقول الأساطير إن بيترجون كان ملكًا مسيحيًا حكم مملكة غنية غنى أسطوريًا تقع داخل هذه المنطقة من إفريقيا، أورثت تساؤلاتهم عن المملكة الشك

لدى السلطان . وتصادف أن رأى هنديان من معتنقى الديانة المسيحية (كان قد جيء بهما أسيرين من الهند) علامة سفن فاسكو داجاما ، فأيقنا أنه وبحارته مسيحيون مثلهما ، وكشفا بذلك عن هوية داجاما وجماعته . فدار قتال بين السكان المحليين والبرتغاليين حتى رحل داجاما متجهًا بسفنه إلى الهند .

ومنذ ذلك التاريخ ظل الاقتتال يدور بين الأهالى المحليين وكل من هو أجنبى ، حتى سقطت إفريقيا فى قبضة المستعمرين الأوروپيين بأجناسهم المختلفة فى القرن التاسع عشر .

ما يهمنا من رحلة داجاما هو ما كتبه البرتغاليون عن وصف ثراء الممالك الزنجية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، وأنها كانت آهلة بالسكان ولا تقل نشاطًا عن مدنهم فى البرتغال ، وهذه الأقاويل عن غنى تلك الممالك وثرائها الوفير بالذهب وتجارتها البحرية النشطة ، هى ما جعلتها مطمع المغامرين الاستعماريين . كتب المؤرخ البريطانى الشهير «بازل ديڤيدسون» فى كتابه القيم «إفريقيا تحت الأضواء» نقلا عن الرحالة البرتغالى «دوارث باربوسا» سنة ١٥١٧ م الذى كان على ظهر أول سفينة برتغالية مرت على الساحل الشرقى لإفريقيا فى طريقها إلى الهند ، يصف حاكم مملكة يسمى «مونوموتابا» : إنه صاحب إقليم واسع الأرجاء شاسع الأطراف ، بعيد داخل القارة ، يصل رأس الرجاء من ناحية وموزمبيق من ناحية أخرى . إن ما شق على أوروپا أن تصدق هذا الادّعاء على فرضه أيدته لهم شواهد أخرى كثيرة من قبل ، فما كان أحد يعرف شيئًا يستحق عن القارة ، كانت معارف الناس نتفًا من حقائق لا يصل ببعضها البعض شيء ، فما امتلكت هذه الشعوب سلاحًا - وإن امتلكته فيما بعد - ولا مثير فى هذا ، فأوروپا لم تكن عرفت كثيراً منه فى ذلك الحين ، حملت السفينة القائدة فى أسطول «فاسكو داجاما» أكثر من عشرين مدفعًا من الحديد المصهور والنحاس ، وكانت تعد قوة ضاربة فى ذلك الزمان ، على أنهم لم يتغلبوا فى سهولة على الإفريقيين الذين كانوا يحملون سيوفًا من صنعهم ودروعًا لا تقى نار المدافع . لقى البرتغاليون مقاومة عنيفة ، وأدركوا أنهم أخطأوا التقدير حين حسبوا أنهم أمام عدو لا شأن له بحضارة ، لقد تفوقوا عليهم بالسلاح ولم يكن هذا التفوق كبيراً ، ولكن هؤلاء كانوا يتفوقون عليهم فى العدد ، ويحاربون من أجل قصد واضح محدد هو حماية ديارهم وما يملكون ،

وكان زعماؤهم أقدر ما يكون الزعماء فى الحرب والقيادة لا يعصى لهم أحد أمراً ولا يرحمون من تخاذل. هذه كانت الحال فى الداخل البعيد من القارة، وطبيعى أن تكون مدن الساحل أكثر مدنية وثقافة لكثرة ما رأت من تجار وتجارة، وكانت لا تقل فى هذا عن مدن أوروپا الزاهرة، بل تفوق بعضها. وسجل «باربوسا» فى مذكراته كيف كان الناس هناك يبيعون مقادير ضخمة من الذهب والعاج والشمع، وكان التجار يأتون بالذهب من مكان بعيد اسمه «مونوموتابا» به نوع خاص من الذهب يسميه البرتغاليون «ذهب الرمل»؛ لأنه يشبه ذرات الرمل الصغيرة وإن كان أجود أنواعه.

وقد أثارت هذه المذكرات وغيرها مما كتبه الكاتبون شهوة البرتغال، فعملت على السيطرة على مصادر هذا الربح والاستيلاء على التجارة التى تدره، وصار هذا هدفًا من أهداف الجهود البحرية البرتغالية.

* * *

هذا ما أشار إليه المؤرخ البريطانى بازل ديڤيدسون، وحقيقة أنه فى الربع الأول من القرن الخامس عشر ظهر فى المنطقة الواقعة بين نهرى الزمبيزى وليمبوبو قائد حربى ماهر يسمى «مونوموتابا»، كانت له تطلعات توسعية، استطاع فى عام ١٤٢٥م أن يستولى على هذه المنطقة الغنية بمناجم الذهب (وهى المنطقة التى اكتشفت فيها مؤخراً حضارة ثولا ميلا)، وأخضع أهلها ثم اتجه شرقًا واستولى على المدن والموانئ الواقعة على سواحل موزمبيق، وفى عهده اتسعت مملكته التى عرفت باسم «زيمبابوى الكبرى» وأنشئت فيها المبانى والقلاع والقصور الضخمة، ويقال إن الناس فى حضرته كانوا لا يسجدون له فقط، وإنما ينبطحون أرضًا ويزحفون على بطونهم عند دخولهم إليه أو خروجهم من عنده.

وما أن انتصف القرن الخامس عشر حتى أصبحت مملكة مونوموتابا وعاصمتها زيمبابوى الكبرى مسيطرة على جميع المساحات الواقعة بين نهر الزمبيزى والمحيط الهندى، والممتدة نحو أكثر من ألف كيلومتر من روديسيا الجنوبية (زيمبابوى الآن) حتى الحدود الشمالية للترانسفال فى دولة جنوب إفريقيا الحالية.

اعتبرت «زيمبابوى الكبرى» أكبر وأعظم مدينة بنيت بالأحجار فى جميع مناطق

إفريقيا السوداء جنوب الصحراء الكبرى، وظلت مزدهرة وحصينة وبعيدة عن منال الطامعين حتى بدايات القرن التاسع عشر. وتبين الدراسات التى أجريت على بقايا وآثار زيمبابوى الكبرى أن هذه المدينة لم تبن دفعة واحدة، بل أخذت تتسع على مدى قرون متعاقبة بفضل الإضافات التى كانت تجريها الأجيال المتتالية.

وترجع أقدم الآثار الموجودة من أطلال «زيمبابوى الكبرى» إلى نحو ألف عام مضت، وتقوم مبانيها على أساس فكرة البناء الدائرى أو البناء المستدير، وهى فكرة مستلهمة من فكرة بناء الأكواخ العشبية والطينية ذات الشكل الإفريقى التقليدى.

ومن أعظم وأضخم المبانى التى شيدت فى عهد مونوموتابا قلعة الجبل التى عرفت باسم «الأكروپوليس»، والمعبد أو القصر الكبير الذى بنى على سفح الجبل تحت القلعة، وقد تم تشييد هذه الأبنية الضخمة بأحجار الجرانيت المحلية الموجودة بكثرة فى المنطقة.

واعتبرت هذه المبانى الجرانيتية من عجائب الدنيا؛ إذ لم تستعمل المونة أو الملاط فى لصق أحجارها عند التشييد، وإنما تم ذلك بدون استعمال أى مواد لاصقة، ورصت الأحجار الجرانيتية بعد نحتها وتسويتها فوق بعضها البعض بطريقة التوازن النسبى بين الكتل الحجرية المستعملة فى البناء، وكانت الكتل تنحت بطريقة عاشق ومعشوق وبطرق أخرى أكثر تعقيداً.

وتدل الآثار الباقية من المعبد (القصر الكبير) أنه كان يشغل مساحة قدرها نحو تسعين متراً طولاً وستة وسبعين متراً عرضاً. وكان مبنيًا بأكمله من الجرانيت، مكونًا من عدة مبان متكاملة، تتصل ببعضها البعض عن طريق ممرات جرانيتية ذات جدران ترتفع نحو تسعة أمتار وسمكها يزيد على أربعة أمتار. أما برج القصر فكان ذا شكل قمعى مبنى من الجرانيت بارتفاع نحو عشرة أمتار. وكانت تضاف إلى قلعة الجبل أبنية وإضافات جديدة لتجعلها أكثر قوة ومتانة، واستمرت هذه الإضافات حتى منتصف القرن الثانى عشر.

وقد عاشت مملكة مونوموتابا حتى بداية القرن السابع عشر حين غزتها من الشمال قبائل الروزوى، وهى فصيل من قبائل البانتو التى زحفت نحو زيمبابوى

الكبرى، واستولت عليها، وطردت الأسرة الحاكمة، وشردت شعب مملكة مونوموتابا، وتولت العرش، وأسست مملكة جديدة هى مملكة الروزوى، وظلت تتخذ من زيمبابوى الكبرى عاصمة لها.

أما شعب مونوموتابا فقد تشتت فى الجنوب، ولجأ إلى البرتغاليين طالبًا حمايتهم من مملكة الروزوى، وكان البرتغاليون قد استقروا وسيطروا على سواحل جنوب شرق إفريقيا، كان هدف البرتغاليين من التظاهر بحماية شعب مونوموتابا هو تسخيرهم لمعرفة أسرار مناجم الذهب المنتشرة فى مملكة زيمبابوى، بالإضافة إلى تسخيرهم فى الإغارة على المناطق الجنوبية الداخلية بالقارة لقنص العبيد وتسليمهم للنخاسين البرتغال. وحين اكتشف شعب مونوموتابا هذه الحقيقة المفجعة فى العلاقة بينهم وبين البرتغال شدوا رحالهم منعزلين فى أقصى مناطق جنوب إفريقيا، ولكنهم لم يفلتوا من البرتغاليين وظلوا تحت رحمتهم.

واستمرت «زيمبابوى الكبرى» عاصمة لمملكة الروزوى، وازدادت قوتها واتسع عمرانها وتحصنت قلاعها لدرجة أنها أصبحت فى منأى عن أطماع البرتغاليين، حتى انهارت دون أن يعرف تاريخ لانهيارها.

وقد حاول البرتغاليون وغيرهم من المستعمرين الأوروبيين أن يصلوا إلى مدينة زيمبابوى الكبرى، فلم يستطيعوا الوصول إليها، إلا فى منتصف القرن التاسع عشر وبالتحديد عام ١٨٤٠ م بعدما انهارت إمبراطورية الروزوى آخر ممالك وإمبراطوريات قبائل البانتو.

وحين اكتشفت آثار وأطلال مبانى ممالك البانتو فى زيمبابوى الكبرى لم يتصور علماء الآثار أن هذه المبانى الضخمة كانت من صنع الإفريقيين، وأوعزوها إلى شعوب أخرى غير إفريقية، ولكن ثبت علميًا وتاريخيًا أن جميع هذه المدن الإفريقية الجرانيتية كانت من تصميم بنائين ومهندسين إفريقيين من قبائل البانتو، التى صنعت حضارة على هذا القدر من العظمة طوال عام ألف وخمسمائة من تاريخ إفريقيا، ويشهد بذلك عالم الآثار البريطانى «داڤيد راندل مكايفر» الذى كتب: «أن آثار زيمبابوى وغيرها مما يشابهها تمتد إلى أصول إفريقية، وأن هذه الآثار ترجع إلى عهد أقدم من القرن الرابع عشر أو الخامس عشر، وهى من الناحية المعمارية لا تحمل أى

طابع شرقى أو أوروبى من أى عهد من عهود البناء فى الشرق أو الغرب، فالمساكن المحيطة بالقصور والمعابد إفريقية خالصة لا شك فى إفريقيتها. وكذلك الفنون والصناعات التى عثر عليها إفريقية الأسلوب فى فنها وصناعتها، إلا تلك الآثار التى كان يستوردها الأهالى، وهذه واضحة الأسلوب معروفة التاريخ فى العصر الوسيط أو بعده.

والحقيقة أيضًا أن مدينة «زيمبابوى الكبرى» لم تكن المدينة الجرانيتية الوحيدة فى مملكة مونوموتابا، بل كانت هناك أكثر من ثلاثمائة مدينة جرانيتية أخرى عثر على بعض آثارها وبقاياها فى مناطق زيمبابوى وموزمبيق، ولعل مدينة «ثولا ميلا» هى إحدى هذه المدن الأثرية الإفريقية القديمة المجهولة.

* * *

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع: وقائع وأحداث

رقم الإيداع ١٦٦٢٩/ ٢٠٠٣

الترقيم الدولى 977-09-0988-2 .I.S.B.N

مطـــابـع آمــــون

٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظة

لاظوغلى - القاهرة

تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦

العبودية فى إفريقيا ليست حالة الإفريقى الذى اختطف واستعبد وانما هى حالة شملت قارة بأكملها، فى الماضى كانت عبودية بشر وأرض. واليوم عبودية ديون وقروض.

على مدى أربعة قرون اقتنص الغربيون الشباب الإفريقى وشحنوهم إلى أوروبا وأمريكا مربوطين بالسلاسل والأغلال، وقتل منهم أكثر كثيرا ممن وصلوا أحياء إما من سوء التهوية فى السفن أو من الطعام الردىء أو من التعذيب أو بالانتحار فكان منهم من فضل إلقاء نفسه فى المحيط بدلا من مواصلة العذاب. ثم نزولهم إلى الأراضى الجديدة ومعاملتهم معاملة الحيوانات،من حق السيد الأبيض أن يفعل بهم ما يشاء حتى الموت.

وإذا كان المستعمر الابيض لم يستطع أن يمحى من ذاكرة التاريخ هذه الصور التى ارتكبها، لأنها دونت فى كتابات وأعمال فنية وأدبية، فقد نجح فى إخفاء ما فعله بالأهالى الذين بقوا فى بلادهم، ونجح فى طمس المقاومة الباسلة التى أبداها هؤلاء لصد الغزو عن أراضيهم، وهو النضال الذى خبىء تحت بساط التاريخ ثم بدأ يظهر من الأرشيفات شيئا فشيئا.

إن إفريقيا عندما وطأها الاستعمار لم تكن قارة مظلمة متخلفة، ولم يكن أهلها بدائيين سذجا يهيمون فى البرارى والغابات بل كانت قارة ثرية بحضارات عظيمة وزعامات رائعة، وقامت فيها ممالك كبيرة وروابط حضارية ومسالك تصل أطرافها بعضها ببعض، وعلاقات تجارية بالعالم الخارجى حتى الصين، ووصل الأفارقة إلى أمريكا واكتشفوها قبل كريستوفر كولمبس بقرون عديدة وعاشوا بين أهلها ونشروا ثقافتهم هناك وأثروا فى الحضارات الأمريكية على نحو بعيد.

لم يشهد المستعمرون بشىء من هذا، ولزموا الصمت والنكران مروجين بشكل منظم ومدروس على وصم إفريقيا بأنها قارة بلا حضارة، مجرد جماعات من الهمج يهللون للمستعمر ويتركون أرضهم مقابل الخرز الملون أو كمية من البارود. ولم تذكر عمليات الإبادة التى ارتكبوها بالأهالى والقبائل ليخضعوهم أو ليفرغوا الأ ويستولوا على ثرواتهم.

وهذا الكتاب يكشف جانبا مما فعله المستعمرون الأوائل الإفريقية. حيث كان القتل والشنق على الأشجار وقطع الأيدى الجماعية هى أدواته لإخضاعهم.

ويحوى الكتاب أيضا شخصيات إفريقية قديمة وزعامات عظي ونساءا حاربوا بشجاعة وقاوموا بضراوة حتى أصبحت سيرته تتداولها الأجيال، وهى من خبايا التاريخ الإفريقى وأسراره.

تصميم الغلاف: أحمد محمد أحمد